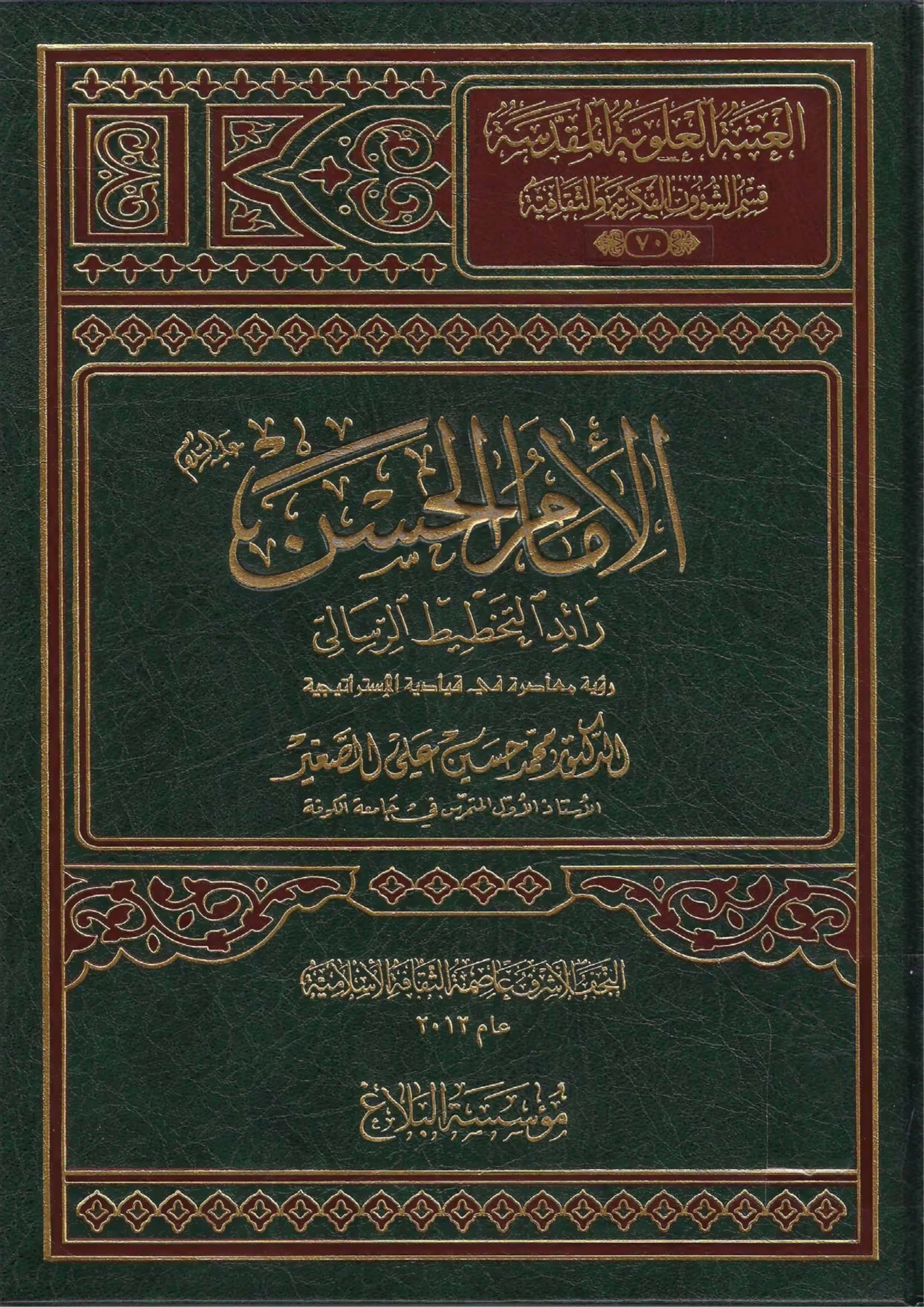

العتبة العلوية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
٧٠
الإمام الحسن عليه السلام
رائداً للتخطيط الرسالي
رؤية معاصرة في قيادية الاستراتيجية
الدكتور محمد حسين علي الصغير
الأستاذ الأول المتمرس في جامعة الكوفة
النجف الأشرف عاصمة الثقافة الإسلامية
عام ٢٠١٢
مؤسسة البلاغ


شبكة الفكر
alfeker.net


الإمام الحسن عليه السلام
رائد التخطيط الرسالي
رؤية معاصرة في قيادية الإستراتيجية


بسم الله الرحمن الرحيم





رائداً للتخطيط الرسالي

رؤية معاصرة في قيادية الإستراتيجية

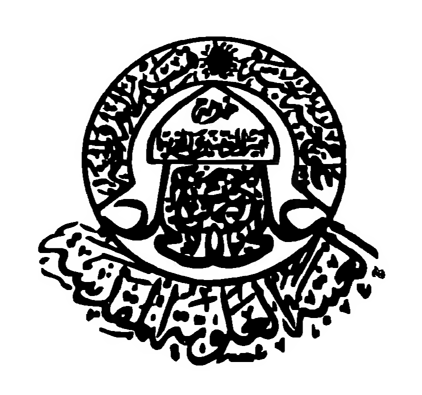
الدكتور محمد حسين علي الصغير

الأستاذ الأول المتمرس في جامعة الكوفة

النجف الأشرف عاصمة الثقافة الإسلامية

عام ٢٠١٢

مؤسسة البلاغ



www.imamali-a.net
info@imamali-a.net



المؤلف: الدكتور محمد حسين علي الصغير

الناشر: العتبة العلوية المقدسة - قسم الشؤون الفكرية والثقافية

الإخراج الفني: محسن اليوسفي

الطبعة الأولى

تاريخ الطبع: ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

التنفيذ الطباعي



للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان - بيروت - بئر العبد - قرب مركز التعاون الاسلامي - بناية حطيط
ص.ب: ١١-٧٩٥٢ بيروت ٢٢٥٠-١١٠٧ - هاتف: (٠٢/٥١٤٩٠٥) - تلفاكس: ٠١/٥٥٣١١٩ لبنان
الموقع الإلكتروني: www.albalagh-est.com
E-mail: Albalagh-est@hotmail.com

المقدمة

لـدى استشهـاد أميـر المـؤمنيـن عليه السلام تسلـم ولـده الإمـام الحسن عليه السلام قيادة الأمة الإسلامية في ظل ظروف سياسية معقدّة، فكان رجل صدقٍ وحقٍ، نافذ البصيرة ثبت الجنان.

وتدافعت أمواج الاهتزاز في الضمير العربي المسلم، وبانت سحب الضلال والتمويه، والتهبت الحياة العقلية بالجدل والمناظرة، وأُتبعّت الأهواء المنحرفة، فكان الخوف والتردد يمتلكان الناس، والتمزق الداخلي يعيث بكيان الأمة، فلا المؤشر الاجتماعي مستقر الذبذبات، ولا الاستقرار النفسي نابع من الأعماق.

بمثـل هـذا المنـاخ المتقلّب انثال المسلمون مبايعين للإمام الحسـن عليه السلام وكـانـت بيعـة شـرعيـة شـارك فيهـا بقيـة المهـاجـريـن والأنصار، وممثلو القصبات والأقاليم، وجماهير العراقيين بخاصة، وكانت هذه البيعة رضىً للخاصة وغبطةً للعامة.

وتناهت الأنباء لمعاوية بهذه البيعة، فتملكّه القلق والفزع، وعسى أن تعود الحرب جذعة، والحسن ابن أبيه، جريئاً دون تسرّع، ومبادراً دون تهوّر، يبتدر العقل والحكمة والتريث، ويستنطق الموازين الدقيقة، فحشد معاوية كل قدراته لقلب ظهر المجّن أفقيّاً للحسن وللعراقيين، فاشترى الذمم والضمائر، استمال زعماء القبائل، وتجاوبت معه أصداء

الأطماع الدنيئة، أتبع ذلك كله بحملات الإرهاب، وبثّ العيون والأرصاد، وواكبه على ذلك الانتهازيون والمنافقون وأهل الريب، ودعاه الإمام للبيعة وامتنع وطلب منه مثلها، فتهيأ الإمام للحرب، وأعدّ لذلك عدتها من الرجال، وسيرها إلى النخيلة، فخانت قيادة الجيش، وتزعزعت الثقة فيه، فعاد الأمل ضئيلاً بالنصر، وتعجله معاوية بالصلح، فما اتخذ الإمام قراراً بذلك، ورصد نية الجيش في كره القتال، وخبر إرادة الناس في الموادعة، والتقى ذلك بالإشاعات المضادّة، واقترن الاختبار بالوعي السياسي المتخلّف، حتى ضمن بعضهم تسليم الإمام لمعاوية، بل لقد حاول بعضهم قتله واغتياله، وتجرأ نفرٌ ضالٌ على جرحه، وانتهبوا فسطاطه، وخلعوا مطرفه من عاتقه، وسحبوا بساطه من بين قدميه، فارتسمت للإمام تناقضات المجتمع الخائر المخدّر، وهو يحتضن نفوساً واهنة الأوصال، ومزيجاً من ذوي البدع والمقالات، هذا الخليط العجيب من الدواعي أدّى بالإمام إلى التفكير بإطّراح الحرب إلى حين، واضطراره إلى الصلح المشروط، فاختاره بعد إخفاق كل الخيارات الأخرى، وغدر معاوية بالمواثيق التي التزم بها نفسه، وأعطاها للإمام مع الأيمان المغلّظة، وجأر المسلمون واستشاطوا غضباً لهذا الانحلال الأخلاقي والعقائدي، واستنكروا ما وضع معاوية من العهود والشروط تحت قدميه، فسجل الإمام عليه السلام أمام الشعب المسلم نصراً عقائدياً أَنْ وفىٰ وغدر خصمه.

ولم يزل التجنّي قائماً بشكل وبآخر تجاه معاهدة الصلح، وكان الانسياق وراء العاطفة واللاوعي مصدر هذا التجنّي المتطاول، وهو منظور ضيّق العطن، لا ينهد بأصالة النظر، ولا يستوعب العمق الموضوعي، ونعلّ الشعور بفداحة الظلم والاستبداد، وشدّة العسف والابتزاز كانا وراء هذا التصعيد في الاحتجاج.

ولم يكن الانفعال الثوري الطائش دليلاً على الوعي المتبلّور، ولم تكن المشاعر الجيّاشة وحدها سبيلاً إلى الإدراك المتميز، وقد يكون التأني النابض بالحركة على صعيد جديد، والاعتدال الشعوري في منظور متطّور جديد، ينهضان بالمهمة الرسالية الرائدة عبر مرحلة دقيقة تختلف فيها الأَعتبارات السياسية معرفةً من فكر إلى فكر، وتكون النتائج مترتبة على أصالة هذه المعرفة وعائديتها.

وأحسب أن الدلائل كانت تشير أن الإمام عليه السلام كان محكوماً من قبل شعبه القلق المهزوز، لا حاكماً يستطيع التصرف بحرية عسكرية، أو يسعى إلى فرض قرار بالإكراه الذي لا يؤمن به، لذلك نجده مؤثراً الصلح مع العزة على الاستسلام مع الذلة، وهذا هو المنطق الديني الرسالي الأمثل الذي اختاره الإمام، وقليل أتباع هذا المنطق، والناس لها ظاهر الحال، والإمام مَعنيٌّ بحقائق الأشياء.

ولم يكن الصلح نهاية لنضال الإمام القيادي، بل كان بداية للتخطيط السياسي الرائد في حركة مبكرة للتنظيم السري حشد لها الإمام كل طاقاته الرسالية، ومعه الحسين عليه السلام بكل تطلعاته القيادية فكان الاضطلاع بالمسؤولية بينهما مشتركاً، بدأ بتعرية النظام الأموي، وانتهى بالقضاء عليه، فقد استطاعت خبرة الإمام عليه السلام النضالية أن تسلط الأضواء على تجاوزات النظام اللاإنسانية، في المجال العقائدي، وعلى المستوى الفكري، وفي ظل الحياة الاقتصادية المتحيّزة وفي ضوء السياسة الدموية الجائرة، فانكشفت للناس سوأة الحكم، وبدت سقطاته المتتابعة، فأفاق الجمع على حكم ينحدر في متاهات الأنحراف، واصطدموا بنظام يتمثل الجاهلية بكل مفاهيمها، فهو يفرّق قبائلهم، ويسفك دماءهم، ويستلب أموالهم، ويقتل خيارهم، ويولي شرار

الناس، ويستعمل طواغيت البشر، ويستنصر بالسفهاء، ويستظهر بالصبية والنساء في تسلم مقدرات الأمة، ومصادرة معالم الخلافة، حتى عادت قيصرية لا صلة لها بالإسلام.

هذه السمات البارزة في كيان النظام التي فضحها الإمام الحسن عليه السلام هيأت المناخ النفسي لدى الشعب المسلم، للانتقام من النظام، ومهّدت السبيل إلى الإمام الحسين عليه السلام في القيام بثورته الخالدة التي شيعت نظام الحكم الأموي إلى الأبد.

وهذه الأبعاد المتشعبة هي موضوع هذه الأطروحة التي اعتبرت الإمام الحسن عليه السلام رائد التخطيط الرسالي والسياسي معاً، وقد انتظمت في ثلاثة فصول رئيسية:

الفصل الأول وكان بعنوان: **قيادة الإمام في ضوء المنطق الرسالي**.

وقد بحث الموضوعات القيادية الآتية:

١ ـ القيادة في ظل القرآن.

٢ ـ إرهاصات قيادية.

٣ ـ المهمّات الريادية الصعبة.

٤ ـ في حاضرة الكوفة الحمراء.

٥ ـ الإمام الحسن يتسلم قيادة الأمة.

٦ ـ التجربة العسكرية المترددة.

وكان الفصل الثاني بعنوان: **التخطيط الرسالي الرائد وانتهاكات الحكم الأموي**.

وقد بحث الموضوعات الخطيرة الآتية :

١ ـ الإمام وطبيعة المجتمع الكوفي المتناقض .

٢ ـ الإمام يرفض الخذلان والاستسلام .

٣ ـ الصلح الاستراتيجي المشروط .

٤ ـ المعارضة ومنهجية الحكم الأموي : ـ

أ ـ إثارة العصبية القبلية .

ب ـ تسخير بيت المال .

٥ ـ الجديد في برنامج معاوية السلطوي : ـ

أ ـ ملاحقة أتباع أهل البيت .

ب ـ سياسة الإرهاب الدموي .

٦ـ الإمام الحسن ينتصر عقائدياً : ـ

أ ـ التنظيم السري الجديد .

ب ـ التخطيط السياسي الرائد .

ج ـ الحسين يتابع الحسن .

وكان الفصل الثالث بعنوان : «**التخطيط الرسالي عند الحسن يمهّد لثورة الحسين**» .

وقد بحث الموضوعات المهمة الآتية :

١ ـ ريادة التخطيط الرسالي من موقع الأحداث .

٢ ـ القرار السياسي في ضوء المسؤولية : ـ

أ ـ يقظة الإمام لا الاَنفعال الثوري.

ب ـ تهيأة الرأي العام.

ج ـ صحوة الضمير الإنساني في العراق.

٣ ـ ظواهر الثورة المضادّة: ـ

أ ـ وضوح الرؤية السياسية في الصراع.

ب ـ تنظيم قِوى الثورة.

ج ـ التنظير الرسالي الموحّد.

٤ ـ الدعوة إلى الإطاحة بالحكم الأموي: ـ

أ ـ التمهيد للكفاح المسلّح.

ب ـ استلحاق زياد.

ج ـ استخلاف يزيد.

٥ ـ الإمام الحسين يهيىء مناخ الثورة: ـ

أ ـ مؤثرات سلبت روح النضال.

ب ـ المناخ الكلامي يحمي النظام الأموي.

ج ـ الحسين يضع اللمسات الأولى للثورة.

د ـ المجابهة بين الحسين ومعاوية.

هذه المفردات الموضوعية تناولها البحث بالاستقراء العلمي، وعالجها في ضوء إِستكناه روح التأريخ، وعرضها لتلقي حقائق الأشياء، حملت عبء المقارنة السليمة، ونهضت بثقل الدراسة الجادّة،

في منظور جديد، وبأسلوب جديد، ابتعد عن التزمّت الموروث، واقترب من الأصالة والعمق، مكتشفاً قيادة الإمام الحسن ابن أمير المؤمنين عليهما السلام في ذروة التخطيط الرسالي المتطوّر.
هذا ما انتهجته هذه الدراسة في خطوطها العامة.

وما توفيقي إلا بالله العلّي العظيم، عليه توكلت وإليه أنيب، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

النجف الأشرف **الدكتور محمد حسين علي الصغير**



الفصل الأول

«قيادة الإمام»

«في ضوء المنطق الرسالي»

١ ـ القيادة في ظلّ القرآن.

٢ ـ إرهاصات قيادية. .

٣ ـ المهمّات الريادية الصعبة.

٤ ـ في حاضرة الكوفة الحمراء.

٥ ـ الإمام الحسن يتسلم قيادة الأُمة.

٦ ـ التجربة العسكرية المترددة.

القيادة في ظلّ القرآن

القيادة هي الجهة الإنسانية التي تصدر القرار في الحياة السياسية والاجتماعية والدولية وشؤون الحياة بعامة، وهذه الجهة هي التي تتحمل مسؤولية هذا القرار سلباً أو إيجاباً.

الصيغة في هذا التعريف واضحة الأبعاد لدى العرب والمسلمين والأوربيين والمستشرقين، كل بحسب تكييفه للمصطلح، سواءً أكان القرار سياسياً أم اجتماعياً، داخلياً أم خارجياً، جزئياً أم كلياً لتنظيم حياة الناس والدولة، وسواءً في ذلك أكان الحكم فردياً أم جماعياً، دكتاتورياً أم ديمقراطياً، رأسمالياً أم اشتراكياً، مستبداً أم دستورياً، قانوناً وضعياً أرضياً ليس غير.

إلا أن القيادة في ظل القرآن الكريم هي الجهة التي تتلقى القرار من السماء لتنفيذه في الأرض، وهي قيادة الرسل والأنبياء والأوصياء، ولنفرض لذلك تمثيلاً واقعياً في التصور الذهني بجهاز الإرسال وجهاز الاستقبال للأمواج الصوتية، فالأمر الإلهي في القرآن يتلقاه النبي من الروح الأمين مرسلاً به، والنبي يستقبله منفذاً له بأمانة واستيعاب كاملين، وليس للنبي الكريم إلا التبليغ بدقة وإخلاص وموضوعية، وكل أمر صادر له عبارة عن تشريع محض في الوجوب أو الاستحباب أو

الإباحة، وقد يكون موضوعاً للحرمة والكراهة إذا اقترن بالنهي.

وعادةً ما يصدر الأمر الإلهي للنبي بصيغة الطلب، وهذا الأمر ذو وجهين في التنفيذ مرحلياً: الأول على وجه الفورية، والثاني على وجه التراخي. وقد يكون الأمر فورياً من وجه ومتراخياً من وجه آخر كما في باب التزاحم، ومن ذلك الصلاة في المكان المغصوب، فالأمر متوجّه بوجوب الصلاة، والنهي متوجّهٌ بعدم إقامتها في المكان المغصوب، وهو مكرهٌ على الإقامة فيه، ولكنه لا يعلم بحين المغادرة، فقد تحدث وقد لا تحدث، فعليه عدم المبادرة للصلاة عند دخولها فالوقت موسّع، ويلزمه التأخير حتى يضيق الوقت، ليصح منه الأداء، فلو أطلقت إرادته غادر المغصوب فوراً ولا يصح منه التراخي في تنفيذ الأمر هنا بل يجب عليه الإسراع في التنفيذ، كما وجب عليه تأخير الصلاة حتى يضيق الوقت «والظاهر اختصاص الحكم بالعالم العامل فلو كان جاهلاً بالغصب أو كان ناسياً له، ولم يكن هو الغاصب صحت صلاته، وكذلك تصح صلاة من كان مضطراً لا يسوء الاختيار، أو كان مكرهاً على التصرف في المغصوب كالمحبوس بغير حق»[١].

ومهما يكن من أمر فإن البداية في تلقي النبي للقرآن العظيم باعتباره قائداً بإذن الله، قائمه على أساس الأمر منذ اللحظة الأولى، قال تعالى بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾[٢].

فهذا أمر إعلائي يستقبله النبي ﷺ في أول آية من أول سورة نزلت عليه، ضمن أوامر أخرى في السورة نفسها.

---

(١) ظ: السيد السيستاني/ منهاج الصالحين/ العبادات ١/ ١٨٠.

(٢) سورة العلق/ ١.

وقد اتسق هذا السياق في طائفة كبيرة من السور الأولى المكية التي أقامت اللبنات التأسيسية للإسلام.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾(٦).

وقال تعالى: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾(٧).

فهذه ثماني سور مكية تمثل أولية الدعوة إلى التوحيد والدين الجديد، وكانت بدايتها تشتمل على الأوامر الصارمة التي لا تقبل ردّاً أو مناقشة بل هي من الضروريات، لأنها في صلب العقيدة وأصول الدين، فيها دلالة على تيسير التعليم بالقراءة، وتأكيد على توحيد الخالق، والإلزام بالنذارة، وتكبير الله تعالى، وتطهير الذيل، وهجر الرجز،

---

(١) سورة المدّثر/ ١ ـ ٧.
(٢) سورة المزمّل/ ١ ـ ٤.
(٣) سورة الإخلاص/ ١.
(٤) سورة الكافرون/ ١.
(٥) سورة الفلق/ ١.
(٦) سورة الناس/ ١.
(٧) سورة الأعلى/ ١.

ورفع المنّ، والصبر في ذات الله، وقيام الليل نصفه أو دونه أو فوقه، وترتيل القرآن، وتوحيد الله، ورفض الإشراك، والاستعاذة بالله، والتسبيح باسمه تعالى.

وليس من الضروري أن يأتي الأمر الإلهي بصيغة الطلب وهي صيغة إنشائية، بل يأتي بصيغة خبرية إسنادية كما في قوله تعالى:

﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[1].

ففيها الأمر بحج البيت بشروطه دون أن تتدخل صيغة فعل الأمر، وهذا جارٍ في عشرات الآيات القرآنية.

هذه الأوامر الإلهية الصادرة من الله إلى النبي على قسمين:
الأول: خاص بالنبي ﷺ كطقوس صلاته في الليل، وقد تشاركه الأمة في صلاة الليل خاصة المنصوص عليها بإحدى عشرة ركعة، أما قيام الليل نصفه أو دون ذلك أو زيادة عليه فهو خاص به.

الثاني: مشترك بين النبي والمسلمين كافة على جهة التبليغ بأمر الله، فالنبي ينطق بوحي من الله، ويقرر عن أمر من الله، ويقول بتسديد من الله تعالى.

قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴾[2].

بل أعظم من هذا، فلقد نزه الله ساحة رسوله الكريم عن أية إضافة من تلقاء نفسه، وقرن ذلك بالوعيد الهائل لو حصل على سبيل الفرض، ليصك به الإنسان ملحظاً عظيماً حقاً.

---

(١) سورة آل عمران/ ٩٧.
(٢) سورة النجم/ ٣ ـ ٤.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾[1].

فإذا نظرت إلى هذا التهديد الفظيع الحاسم، وقارنته بصيغة الأمر في القرآن بلفظ «قُل» وحدها، لوقفت على ضخامة المسؤولية، إذ ورد هذا اللفظ ثلاثمائة واثنين وثلاثين مرة في القرآن العظيم، هذا الورود بحسب تسلسل المصحف الشريف يبدأ بالآية الثمانين من سورة البقرة، وينتهي بالآية الأولى من سورة الناس وهي آخر المصحف.

في هذا الضوء الكاشف، علينا أن نتصور بعمق حجم القيادة النبوية في تحمل مسؤولية الأمر الإلهي، وهو الصادق الأمين حتى عند قريش أنفسهم، بلى لقد كان الرسول الأعظم ﷺ وفياً لرسالته بأدق معاني هذه الكلمة وأسماها، صدع بما يؤمر، وأمر بما بُلِّغ، وبلّغ ما أُنزل إليه من ربه، شديداً في ذات الله، بالمؤمنين رؤوف رحيم، وما كان برسالته هذه حكراً على فئة، ولا مختصاً بأمة، ولا رسولاً لاقليم، بل هو رسول ربّ العالمين، متجاوزاً الحدود الضيقة إلى الأفق الرحيب. قال تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

فاستقام بالدعوة إلى الله، وأوصل الرسالة إلى الأمم كافة، فقد نسخت الشرائع، وعطّلت الأديان الأخرى، وبدلت القوانين القائمة بقانون السماء، فلا شريعة إلا الإسلام، ولا نظام إلا القرآن، ولا دين

(١) سورة الحاقة/ ٤٤ ـ ٤٧.

(٢) سورة سبأ/ ٢٨.

إلا دين الله، حتى قال تعالى حصراً:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[1].

أعاذنا الله وإياكم من الخسران المبين.

ومقتضى هذا التأكيد في رفض ما سوى الإسلام وقبول الإسلام وحده خالصاً، أن يكون هذا الدين عالمياً ودائمياً وإنسانياً وكاملاً، أما ديمومته فهو آخر الأديان وبه ختم الله الشرائع السماوية، وأما عالميته فتنهض بها آلاف الدلائل الموضوعية من خلال قوله تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[2].

والله تعالى رب العالمين، وقد أرسل محمداً ﷺ لكل العالمين بمنطق الحكمة، وشعار الرحمة، وسيماء الموعظة، وعطاء الكرامة، ومبدأ الاختيار، فلا قسر ولا إلجاء ولا إكراه.

قال تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[3] إلى آخر الآية...

وإما إنسانيته وشموليتها لأبناء الإنسان من الناس، فقد ورد ذكر الإنسان في القرآن بصيغته خمساً وستين مرة، كما ورد ذكر الناس فيه إحدى وأربعين ومائتي مرة، عدا مشتقاته الأخرى بما تؤكد العناية الخاصة بهذا الكائن الحي المدرك فرداً وجماعات وأجناس، واستثماراً للنعمة الكبرى، واعتداداً بالرحمة الشاملة، وطلباً للهداية الراشدة حتى

---

(١) سورة آل عمران/ ٨٥.

(٢) سورة الأنبياء/ ١٠٧.

(٣) سورة الفاتحة/ ٧.

تكون الحجة لله على الخلق. قال تعالى:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾(1).

وأما تكامل الإسلام فلا يختلف فيه اثنان من المسلمين بعد قوله تعالى:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾(2).

وكان هذا الإكمال مقترناً بإتمام النعمة، ورضى الإسلام ديناً، ولدى التأكيد الشديد على تبليغ الرسالة والنبي في أخريات حياته الكريمة، تبليغ ذلك دون خشية أو حذر أو إشفاق. قال تعالى:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(3).

وإنه ليستوقفني حقاً في هذه الآية فقرتان مهمّتان تُثيران الانتباه في ضوء الفكر المنهجي الحديث:

الأولى: تتعلق بقوله تعالى: «فإن لم تفعل فما بلغت رسالته» فيا ترى ماذا عسى يكون من الرسول أنه لم يفعله حتى ينفي عنه تبليغ الرسالة، وقد قضى فيها مبلّغاً أكثر من عشرين عاماً بل تزيد عليها سنين عدداً.

الثانية: تتجلى بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ فأي شيء

---

(1) سورة يونس/ ١٠٨.
(2) سورة المائدة/ ٣.
(3) سورة المائدة/ ٦٧.

ـ ليت شعري ـ هذا الذي يَحْذَرُ الرسول فيه الناس حتى يطمئنه ربّ العزة معتصماً به لدى التبليغ.

ولا بد لنا من تأشير هذا الحدث في ظل القرآن نفسه: إن سورة المائدة مدنّية بإجماع المسلمين، وآياتها الثلاثة التي تصرح بإكمال الدين وإتمام النعمة ورضى الإسلام ديناً، نزلت بعرفات من حجة الوداع في ذي الحجة، ومات النبي ﷺ في صفر[1] وكانت آخر سورة نزلت من القرآن هي سورة النصر، وقد نزلت بمنى في حجة الوداع[2].

فالنزول متساوق في سفر حجة الوداع عندها أو بعدها، لنبيّ في أخريات أيامه، حتى سماها المسلمون بسورة التوديع.

على أن الزركشي (ت: ٧٩٤هـ) في ترتيبه لنزول القرآن يعتبر آخر ما نزل من القرآن في المدينة سورة المائدة[3].

وتابعه على ذلك جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)[4]. وكانت آيات سورة المائدة حافلة بتشريعات الدولة في معاملاتها وعبادتها، وإيقاعاتها وحدودها، مما يعتبر التعليمات النهائية للإسلام في الإباحة والوجوب والتحريم كما هو عليه عند المسلمين. نخلص من هذا أن النبي ﷺ كان قد بلّغ الرسالة متكاملة نظاماً وتشريعاً باستثناء أمر خطير ذي شأن عند رب العالمين، وهو موضوع التبليغ مؤكداً عليه في الآية السابعة والستين من سورة المائدة بحيث أن لا تبليغ متكاملاً إلا به، ولا رسالة تامة إلا بإحرازه وتوافره، وأن هذا التبليغ لهذا الأمر من

---

(١) ظ: المؤلف/ تاريخ القرآن/ ٦٠ هامش رقم «٣».

(٢) ظ: المؤلف/ المصدر نفسه ٦٦.

(٣) ظ: الزركشي/ البرهان في في علوم القرآن/ ١٩٣ وما بعدها.

(٤) ظ: السيوطي/ الإتقان في علوم القرآن/ ٢٥ ـ ٣٧ ـ ٧٢ ـ ٧٤.

العناية والأهمية بمكان، وأنه يُعنى ضجة كبرى قائمة يحذر معها الرسول من الاضطراب في صفوف ذوي الحل والعقد من أمته، وأنه يشفق من هذا الملحظ، حتى تعهد الله له أنه يعصمه من الناس، وكان الأمر كذلك في جميع هذه الظِلال المكثفة، فأصحر به في وضوح تام دون ضبابية أو إيهام، بل كان تصريحاً بليغاً دون تردد.

هـذا التصـريـح لـه مـا يبـرره فـي سيـاق الأحـداث التـأريخيـة والموضوعية لمسيرة الرسالة الإسلامية.

فما هو هذا التصريح؟ وما هي خلفياته القيادية؟ وكيف تم ذلك؟ وما هي ردود الفعل المضادة والإيجابية؟ أحاول في الصفحات الآتية رصد ذلك من خلال نظرة فاحصة بعيدة عن الهوى النفسي والانجذاب العاطفي، وإنما هي الاستقراء لطبيعة حقائق الأشياء المرّة في خوضها، والوضاءة في نتائجها، المكشوفة لدى تحليلها.

كان الإمام علي عليه السلام في القمة الشامخة من تاريخ الدين الجديد في منظور متميز انفرد به وحده، فهو ربيب بيت النبوة، نشأ في ظل الوحي، ودرج في توجيه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم فعاد وزيره الأول من العشيرة الأقربين في فجر الإسلام، يحمل آماله وآلامه، ويعيش تطلعاته ومشكلاته، فهو السجين في شِعب بني هاشم لدى مقاطعة قريش للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو الفادي محمداً ليلة الهجرة بنفسه متوشحاً ببرده ونائماً بفراشه، وهو المؤدي عن النبي ودائعه، وهو الضاعن بالفواطم التحاقاً به، وهو المنتظر وصوله من قبل النبي في قبا حتى دخل يثرب معه ومع صاحبه يداً بيد، وهو المشرف على شؤون إدارته العليا في المدينة المنوّرة، وهو بطل الإسلام في أول معركة كان بها الفرقان يوم التقى الجمعان ببدر، وهو قاتل نصف المشركين فيها والمشارك في قتل

النصف الثاني، وكان عدد القتلى سبعين فارساً. ولدى استرداد قريش لأنفاسها، وهي تلعق جراحات بدر، في مسيرتها لمعركة أحد، فما إن بدأت المعركة الكبرى حتى كان لواء الحمد بيد أمير المؤمنين، وتساقطت ألوية المشركين من بني عبد الدار، وقتل حَمَلَتها أجمع بسيف الإمام علي عليه السلام وحده، وكان فرار المسلمين بعد تسلم المشركين الجبل، فثبت مع النبي هو وأبو دجانة الأنصاري، إلا أن قدح علي هو المعلّى، حتى صدر النداء: «لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي» ولا فضل لهذا السيف المبارك على الإسلام إلا بسواعد حامله، وبأكف ممتشقه على المَرَدَةِ والعتاة من أعداء الإسلام، وكان الساعد الحامل لذي الفقار ساعد عليّ عليه السلام.

وكان فارس العرب الأول في معركة الخندق فبرز لعمر بن ودّ العامري مبدداً خوف المسلمين، ومطوحاً بأحلام قريش، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «برز الإيمان كله، إلى الشرك كله» وقتل عمراً ولم يسلبه، وكرّ راجعاً فكانت تلك الضربة تعادل عبادة الثقلين على حدّ تعبير الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم حينئذن قبّل رأسه أبو بكر وعمر (رض) وكفى الله المؤمنين القتال به، وعادت قريش بهزيمتها إلى مكة تجرّ أذيال الخيبة، وتغصّ بطعم الفشل الذريع، وشبح أمير المؤمنين يلاحقها، وطيوفه ترعبها.

ونقضت بنو قريظة من يهود المدينة عهد النبي، فدفع النبي برايته العظمى لأمير المؤمنين، ووصل إلى حصونهم في ضواحي المدينة المنورة، وركز رايته في صدورهم، وزلزل النبي صلى الله عليه وآله وسلم بهم الأرض. وخربوا بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، وتملكهم الرعب والذعر والفزع، فألقوا بأيديهم مستسلمين، وأخذوا أسرى صاغرين، وارتضوا حكم سعد بن معاذ الأنصاري (رض) فحكم فيهم بحكم الله من فوق

سبع أرقعة على حد تعبير رسول الله ﷺ، وتولّى أمير المؤمنين عليه السلام ضرب أعناقهم بأمر خاص من النبي ﷺ.

وخرج النبي ﷺ يريد العمرة ولواؤه بيد علي عليه السلام، وتناهى النبأ إلى قريش فخرجت بجبروتها وطغيانها تريد النبي ﷺ والمسلمين، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، وتم صلح الحديبية الشهير، وهو فتح الفتوح في العرف العسكري[1].

وكان دور أمير المؤمنين عليه السلام بارزاً في البيعة وهو أول المبايعين على الموت، وكان موقعه من الصلح مشهوراً فهو كاتب وثيقته، وهو مدوّن بنوده، وهو الذي أبى أن يمحو عبارة «رسول الله» من العهد بناء على رغبة قريش فمحاه النبي ﷺ نفسه، وقال لأمير المؤمنين أنه سيُدعى إلى مثلها، مشيراً إلى غيب سيقع عند التقاء الحكمين الضالين بعد صفين.

وتفرغ النبي ﷺ ليهود خيبر، وهم من التحصين والقوة بمكان، وقائدهم مرحب اليهودي، وحصونه متعاقبة، ويصدر الأمر بفتح الحصون ومباشرة الحرب، فيهزم قادة المسلمين واحداً تلو الآخر، ويغضب النبي ﷺ ويقول: «والله لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ليس بفرّار يفتح الله على يديه» ثم دعا بعلي وأعطاه الراية[2]. ففتح علي الحصون حصناً حصناً، وقتل مرحباً،

---

(١) يبدو لنا أن «سورة الفتح» نزلت متحدثة عن صلح الحديبية، واعتبرته «فتحاً مبيناً» بنص الآية الأولى منها، لما يحمل بين طياته من مكاسب غير منظورة آنياً، ولكنها كانت عظيمة مستقبلياً، وأولها اعتراف قريش لأول مرّة بكيان الدين الجديد، واستسلامها لقيادة الرسول الأعظم (ص).

(٢) ابن عبد البر/ الاستيعاب وقد رواها بطرق مختلفة عن سعد بن أبي وقاص وسهل بن سعد.

واستسلم اليهود، ونزلوا على حكم النبي ﷺ.

وتطلع النبي ﷺ إلى فتح مكة - وقد فتّت غزوة مؤته بعضد المسلمين فقد استشهد جعفر الطيّار وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة، ورجع بالمسلمين خالد بن الوليد لا يلوي على شيء - وخرج النبي ﷺ يريد مكة، فيدخلها في عشرة آلاف، ورايته العظمى بيد أمير المؤمنين عليه السلام، ويدخل مكة فاتحاً، ويسم قريشاً بقوله: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» ويميل هو وعلي صلوات الله عليهما فيحطمان الأصنام في الكعبة.

وأعلنت هَوَازنُ والأحباشُ الحربَ بحنين على النبي ﷺ ويخطىء خالد بن الوليد التصرف، ويتدارك أمير المؤمنين الأمر، ويخرج النبي ﷺ، باثني عشر ألفاً، ولواء المهاجرين بيد علي عليه السلام، وينهزم القادة من المسلمين، وتنتهي الهزيمة إلى سيف البحر، ويثبت أمير المؤمنين عليه السلام بعد أن ضاقت الأرض بما رحبت، وبلغت القلوب الحناجر، وظن المسلمون بالله الظنون، وَيَقْتُلُ علي عليه السلام قائد المعركة في حنين، ويباشر النبي ﷺ القتال بنفسه ويذود عنه عليٌّ الكتائب، حتى أنزل الله النصر على نبيه ﷺ.

وكانت غزوة تبوك، واستخلف النبي ﷺ علياً عليه السلام في المدينة، فأرجف به المنافقون، وقالوا خلّفَ محمدٌ علياً في النساء والصبيان، وعرض عليّ عليه السلام ذلك على النبي ﷺ فقال النبي ﷺ حديثه الذائع الصيت:

«أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» أو أنه قال: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»[1].

---

(١) هذا الحديث الشريف يسمى بحديث المنزلة، وقد رواه الأثبات من صحابة =

وكانت وقعة ذات السلاسل بدويّها الرهيب، إذ انهزم كل أمراء السرايا، فانتدب النبي ﷺ علياً عليه السلام، وأعطاه الراية، وأغار بجحافله صبحاً، فقتل من قتل، وأسر من أسر، وانهزم المشركون بعد معركة حامية، وخرج النبي ﷺ لصلاة الفجر، وقرأ بعد الفاتحة: سورة العاديات، وصكّ الجمع بآياتها الخمس الأولى:

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾[1].

فلما فرغ النبي من صلاته، قال له أصحابه: هذه سورة لم نعرفها، فقال رسول الله ﷺ نعم، إن علياً ظفر بأعداء الله، وبشرني جبرائيل عليه السلام في هذه الآية، فقدم علي عليه السلام بعد أيام بالغنائم والأسارى، فعن الإمام الصادق عليه السلام: سميت هذه الغزوة «بذات السلاسل» لأن علياً أسر منهم وقتل وسبى وشدّ أسرهم في الحبال مُكتَّفين كأنهم في السلاسل[2].

وباستعراض آيات سورة العاديات يتجلى عظم المعركة، وشدة الوقعة، وصدق اللقاء، ومدى القوة المحاربة، وفي الآيات من التصوير الفنيّ والبعد التمثيلي ما يكشف عن ذلك كشفاً دلالياً وبلاغياً بوقت واحد. وحينما أخبر جبرائيل النبي ﷺ ببشائر هذا النصر المؤزر، بشر النبي ﷺ بذلك أصحابه، وأمرهم باستقبال علي عليه السلام، وكان النبي في طليعتهم، وحينما رأى الإمام النبي في استقباله ترجّل وأهوى على قدمي رسول الله ﷺ يقبلهما تواضعاً لله على هذا التكريم البكر، فقال

= النبي (ص) وهو من أصّح الآثار متناً وسنداً.

(١) سورة العاديات ١ ـ ٥.

(٢) ظ: الطبرسي/ مجمع البيان ١٠/٥٢٨.

رسول الله لأمير المؤمنين: «اركب فإن الله ورسوله عنك راضيان» فبكى علي عليه السلام فرحاً بهذه البشارة العظمى[1].

وكانت أغلب سرايا رسول الله بقيادة أمير المؤمنين عليه السلام حتى كانت مباهلة «نصارى نجران» فكان علي عليه السلام نفس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بنصّ القرآن العظيم، قال تعالى:

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[2].

فقد خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم بإجماع المسلمين مباهلاً بعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، فعلي نفسه التي دعاها، وفاطمة ابنته وهي النساء هنا، والحسن والحسين ابناه. فلما رأى النصارى ذلك امتنعوا عن المباهلة لأنهم لمسوا صدق الرسالة فقال النبي:

«والله لو باهلونا لاضطرم عليهم الوادي ناراً»[3].

وكان الإمام عليه السلام في كل هذه المسيرة الصعبة المضنية ملازماً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يفترق عنه ليلاً أو نهاراً منذ اللحظة الأولى للدعوة الإسلامية حتى روى ابن عبد البر في الاستيعاب بسنده عمن سمع علياً عليه السلام يقول:

«لَقَدْ عَبَدْتُ الله قَبْلَ أَنْ يَعبدَهُ أحدٌ من هذه الأمة خمس سنين» ولقد أجمعوا أنه صلى القبلتين، وبايع البيعتين، وشهد مشاهد

---

(١) ظ: المؤلف الإمام علي فكره وقيادته في ضوء المنهج التحليلي/ ف/٩.

(٢) سورة آل عمران/ ٦١.

(٣) حديث المباهلة مجمع عليه لدى كل المؤخرين والمفسرين.

رسول الله ﷺ كلها باستثناء تبوك، وكان فيها خليفته على المدينة. حتى قال ابن عباس فيما رواه ابن عبد البر في الاستيعاب: «لعلي عليه السلام أربع خصال ليست لأحد غيره: هو أول عربي وعجمي صلّى مع رسول الله ﷺ، وهو الذي كان لواؤه معه في كل زحف، وهو الذي صبر معه يوم فرّ عنه غيره، وهو الذي غسّله وأدخله قبره».

ومعنى هذا أن أمير المؤمنين كان مواكباً لرسول الله ﷺ في رسالته منذ بعثته حتى وفاته دون انقطاع، بل حتى غسله ودفنه بعد وفاته. وهذا مما أجمعت عليه الأمة حتى أورد ابن عبد البر في الاستيعاب قال: وروينا من وجوه عن علي عليه السلام أنه كان يقول: أنا عبد الله وأخو رسول الله ﷺ لا يقولها أحد غيري إلا كذاب.

وقال ابن عبد البر أيضاً تأسيساً على ما سبق: وروت طائفة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال لعلي عليه السلام: «لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلاّ منافق»[١].

وقال رسول الله ﷺ أيضاً «عليٌ أقضاكم».

وقال أيضاً: «عليٌ مَعَ الحق والحق مع عليٍّ».

وقال أيضاً: «أنا مدينة العلم وعلي بابها».

وهذا مما أجمع عليه أهل القبلة، ولم يكن كل هذا وفوق هذا، أمراً اعتيادياً صادراً عن حب أو هوى أو عاطفة، فالنبي ﷺ منزّه عن الانفعالات والأحاسيس النفسية، وإنما كان إعداداً استراتيجياً خاصاً من النبي ﷺ للإمام علي عليه السلام بأمر من الله تعالى ليتسلّم عليٌّ منصب

---

(١) ظ: في جملة هذه الأحاديث/ ابن عبد البر المالكي/ الاستيعاب في معرفة الأصحاب/ ترجمة الإمام علي (ع).

الولاية الإلهية بكل أبعاده القيادية، وكان النبي ﷺ يصرح بذلك عشرات المرّات مؤكداً أسبقية الإمام علي وأوليته وأولويته على حد سواء، ولا أدلّ على ذلك عملياً من تأميره علياً على الناس أجمع، وما اتفق ـ ولو لمرة واحدة ـ أن أمّرَ عليه أحداً في كل أمر، ومع كل هذا كان مشفقاً كل الإشفاق عن الحد الفاصل، حتى فجأه الوحي بضرورة التصريح المطلق في الآية المتقدمة لدى أوبته من حجة الوداع، وهو بغدير«خُم» برمضاء الحجاز بين مكة والمدينة، وبمحضر من آلاف المسلمين، فَنُصِبَ للنبي ﷺ منبر من أحداج الإبل عند الظهيرة، فارتقاه، وقال: «إنّي دُعِيتُ وَيوشَكُ أنّ أُجِيبَ، وقد حانَ مِنّي خُفُوقُ مِنْ بينِ أظْهُرِكُمْ، وإنيّ مُخَلّفٌ فِيكُمْ ما إنْ تَمَسَكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُوا مِنْ بَعْدي أبداً: «كتابَ الله وَعِتْرَتي أهْلَ بَيتي، فإنَهّما لَنْ يفترقا حَتَى يردا عَلَيَّ الحوضَ». ثم أخذ علياً من ضبعيه ورفعه حتى بان بياض ابطيهما، ونادى بأعلى صوته، والكل سامعون منصتون، وكأن على رؤوسهم الطير: «أَلَسْتُ أَولى منكُم بأنْفُسِكُم؟ قالوا اللهم بلى، فقال لهم على النسق، ـ وقد أخذ بضبعي علي عليه السلام ـ، فهذا عَلِيٌ مَولاهُ، اللهم وَال مَنْ وَالاهُ، وعَاد مَنْ عَاداهُ، وأنْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ، وأَخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ».

ثم نزل وصلى الظهر والعصر، وأفرد لعلي عليه السلام خيمةً، وأمر المسلمين أن يدخلوا فوجاً فوجاً، فيهنئوه، ويسلموا عليه بإمرة المسلمين، ففعل الناس ذلك كلهم، حتى من كان معه من أمهات المؤمنين ونساء المسلمين، وكان موقف عمر بن الخطاب (رض) مشرّفاً ذلك اليوم إذ طفح السرور على وجهه، وقال لعلي عليه السلام بالحرف الواحد:

«بَخٍ بَخٍ لكَ يا عليُّ، أصبحت مولاي وَمَولى كلِّ مؤمن ومؤمنة»[1].

وكان هذا التخطيط الرسالي: من نزول جبرائيل بالوحي، وتبليغ النبي ﷺ الأمر في الظهيرة، والتأكيد على استخلاف الكتاب والعترة مجتمعين غير منفصلين، ورفع عليّ بذاته أمام جماهير المسلمين، والتصريح باسمه وليّاً، كل أولئك نصوص كافية لإبلاغ المسلمين كافة بالولاية الإلهية لأمير المؤمنين، ودلائل بالغة على مرجعية أئمة أهل البيت عليهم السلام، يضاف إلى ذلك دلالة آيتي النجوى حكماً ونسخاً في قوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2].

فقد كان التساؤل والثرثرة والهذر معالم تبذيرية يتنطع بها المسلمون للاستئثار بوقت الرسول الأعظم ﷺ والرسول الأعظم ليس ملكاً لأحد، وعائدية رسالته تتبنى المستوى النوعي لمشكلات القيادة، فحدّ القرآن من ظاهرة الاستبداد بوقته الثمين من قبل جملة من المتسائلين، واعتبرها ضرباً من الفوضى، فعالجها بوجوب دفع ضريبة مالية تسبق هذا التساؤل أو ذاك الخطاب، فكانت آية النجوى، فامتنع الأكثرون عن النجوى، وتصدق من تصدق فسأل ووعى وعلم، وانتظم المناخ العقلي بين يدي رسول الله ﷺ، وكان المتصدق هو أمير

---

(١) حديث الغدير روي مسنداً عند المسلمين بمائة وأربعة عشر طريقاً كلها بين صحيح ومعتبر ومقبول، حتى بلغ حد التواتر.
ظ: الأميني/ الغدير في الكتاب والسنة والأدب/ المجلد الأول.

(٢) سورة المجادلة/ ١٢.

المؤمنين وحده بما أجمع عليه المسلمون كافة، وما روي عنه بالذات قوله: «أن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ . الآية، كان لي دينار فبعته بعشرة دراهم، فكلما أردت أن أناجي رسول الله ﷺ قدمت درهماً، فنسختها الآية الأخرى. . . ثم قال: بي خفف الله عن هذه الأمة، ولم ينزل في أحد قبلي، ولم ينزل في أحد بعدي» حتى قال عبد الله بن عمر: كان لعلي بن أبي طالب عليه السلام ثلاث، لو كان لي منهن واحدة لكانت أحب إلي من حمر النعم. تزويجه فاطمة، وإعطاؤه الراية يوم خيبر، وآية النجوى(١).

ولمّا وعت جماعة الإسلام مغزى الآية، وبلغ الله منها أمره، نسخ حكمها ورُفع، وخفف الله عن المسلمين بعد شدة مؤدبة، وفريضة رادعة، وتأنيب في آية النسخ، وقد كان بطل هذا الحدث العظيم علي بن أبي طالب وحده(٢).

قال تعالى: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾(٣).

ودلالة هذه الآية بالعمل بها من قبل أمير المؤمنين منفرداً، ذات بعد قيادي متميز، فإذا أضفت له دلالة قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ۝٧ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ

---

(١) الطبرسي/ مجمع البيان ٩/ ٢٥٢.
(٢) المؤلف/ تاريخ القرآن/ ١٤.
(٣) سورة المجادلة/ ١٣.

﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[1].

فقد روى الخاص والعام بالإجماع أن الآيات من هذه السورة نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وجارية تسمى فضة، وهو المروي عن ابن عباس ومجاهد وأبي صالح: في حادثة مشهورة خلاصتها، أن الحسن والحسين مرضا فعادهما جدهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ووجوه العرب، وقالوا يا أبا الحسن لو نذرت على ولديك نذراً، فنذر أمير المؤمنين عليه السلام صوم ثلاثة أيام إن شفاهما الله سبحانه، ونذرت الزهراء عليها السلام كذلك وكذلك فضة، فبرءا وليس عندهما شيء، فاستقرض أمير المؤمنين عليه السلام ثلاثة أصوع من شعير من يهودي، وروي أنه أخذها ليغزل له صوفاً، وجاء أمير المؤمنين عليه السلام بالشعير للزهراء عليها السلام فطحنت صاعاً منه فاختبزته، وصَلّى علي عليه السلام المغرب وقربته إليهم فأتاهم مسكين يدعو لهم وسألهم فأعطوه، ولم يذوقوا إلا الماء، فلما كان اليوم الثاني، فإذا يتيم في الباب يستطعم فأعطوه، ولم يذوقوا إلا الماء، فلما كان اليوم الثالث، فإذا أسيرٌ بالباب يستطعم فأعطوه، ولم يذوقوا إلا الماء، فلمّا كان اليوم الرابع وقد قضوا نذرهم أتى عليٌّ عليه السلام، ومعه الحسن والحسين عليهما السلام إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبهما ضعف، فلما رآهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بكى، فنزل جبرئيل عليه السلام بسورة هل أتى[2].

والمنظور الدقيق في هذه الآيات أنها تصف علياً والزهراء والحسن والحسين وجاريتهم، وأنهم «أبرار» والأبرار يشربون من كأس حددت صنفها، وإنهم عباد الله ويشربون من عين «يفجرونها تفجيرا»

---

(١) سورة الدهر/ ٥ ـ ٩.

(٢) ظ: الطبرسي/ مجمع البيان ١٠ / ٤٠٤.

وأنهم «يوفون بالنذر»، وهي صفة المتقين الأطهار، «ويخافون» يوم القيامة، وهذه من مخائل الزاهدين، «ويطعمون الطعام» وتلك صفة الأكرمين، وفي سبيل الله وحبه، وذلك محدد بإطعام المسكين واليتيم والأسير، وهم من الأصناف اللائي تستحق الإطعام، وبهم يصاب بالبر مواضعه، وهذا الإطعام فيه خلوص في النية فهو لوجه الله، لا رياء فيه ولا محاباة، وجزاؤه على الله، ولا يراد ممن أطعم جزاء ولا شكور.

والذي نخلص إليه منها أنهم الذروة في البر والتقوى والإحسان فإذا أضفت هذا كله إلى مئات الظواهر القرآنية الحاكمة بمرجعية أهل البيت عليهم السلام، وإمامة علي خاصة، وفي نص لا يقبل التأويل، وهو قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۝ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[1].

والملاحظ أن الآيتين من سورة المائدة آخر ما نزل من القرآن في المدينة المنورة، وفيها الأحكام القيادية النهائية، وقد أجمع المسلمون أن الآية الأولى نزلت في حق أمير المؤمنين بالصيغة التي نصت عليها الآية، وهو التصدق حال الصلاة بخاتمه الشريف، والآية الثانية تنص على أن الولاية العامة لله ولرسوله ولهذا المتصدق وحده، لأنه المعني بالذين آمنوا حال كونهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون.

أقول: الذي نخلص إليه في ضوء ما سبق: أن الإمامة نصٌ لا اختيار فيه، ولا انتخاب به، ولا شورى معه، وكما نصّ القرآن

---

(١) سورة المائدة/ ٥٥ ـ ٥٦.

ورسول الله ﷺ على إمامة علي أمير المؤمنين عليه السلام، فقد نصّ أمير المؤمنين على أمامة ولده الأكبر الإمام الحسن بن علي عليه السلام المولود في الخامس عشر من شهر رمضان المبارك في السنة الثانية أو الثالثة من الهجرة النبوية المباركة[1].

(١) ظ: في تاريخ ولادته والاختلاف في ذلك: ابن حجر/ الإصابة ١/ ٣٢٨، ابن عبد البر/ الاستيعاب ١/ ٣٦٨ + السيوطي/ تاريخ الخلفاء/ ٧٣. المجلسي/ مرآة العقول/ ٣٩ + الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ ٣.

إرهاصات قيادية

نشأ الإمام الحسن بن علي عليه السلام في رحاب جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فتولى تربيته بنفسه، وصقل مواهبه، وتوسم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مخائل الفتوة وسيماء الصدقين، فمنحه من عطفه ولطفه وحبه ورضاه ما سارت بأحاديثه الركبان. وكان تقيمه لسبطه الحسن نابعاً من أصالة منبت هذا الوليد، وطيب محتده وأرومته، وصدق عزيمته ونيته، وتتابع فضله ونبله، حتى إذا التحق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالرفيق الأعلى تسلمه أبوه أمير المؤمنين، فأعدّه إعداداً مثالياً، فكان ابن أبيه ـ بكل ما لهذه الكلمة من دلالات سامية ـ في العلم والتقوى والرجولة والسياسة والاجتماع، وكان ابن أبيه أيضاً في المنح الإلهية الخاصة بالعصمة والإمامة والولاية الكبرى في قيادة الأمة.

وكانت مؤشرات هذه القيادة الحكيمة لدى الإمام الحسن عليه السلام ذات إرهاصات أولية توسمها فيه أهل الحل والعقد، سبقت بأحاديث نبوية متواترة، تُوّجت بآثار من السنة النبوية، فنحن نرى أبا سفيان بن حرب شيخ الأمويين متوسماً في هذا الوليد الناشىء سيادة عربية محضة تأهله أن يجير بين الناس، وأبو سفيان بعدُ في جاهليته وبدويته الغليظة الجافة، فيطلب من الزهراء سيدة نساء العالمين عليها السلام ـ لدى نقض قريش لصلح الحديبية ـ أن يجير الحسن بن علي عليه السلام بين المسلمين بعامة وقريش بخاصة، ليصبح الحسن سيد العرب[1] وليس للحسن إلا

---

(١) ظ: الطبري/ تاريخ الأمم والملوك/ أحداث سنة ثمان من الهجرة.

أن يكون كذلك، فهو سيد ابن سيد، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال:

«إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[1].

وسيادة الإمام الحسن عليه السلام لا تصاحبه في حياته فحسب، بل تمتّد معه حتى يوم القيامة، وهو يتبوء مقعد صدق عند مليك مقتدر، فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ سرّه أنْ يَنظُر إلى سيدِ شباب أَهلِ الجَنَةِ فليَنْظُر إلى الحسن»[2] وهو حديث مستفيض، وقد يجمع به معه الإمام الحسين عليه السلام في عدة روايات صحيحة السند، منها ما رواه عبد الله بن عمر الخطاب (رض) قال: قال رسول الله ﷺ:

«الحَسَنُ والحُسينُ سَيدا شباب أَهل الجَنةِ، وأبوهما خيرٌ منهما»[3] وبإزاء هذه السيادة المطلقة والى جانبها يبرز دور الإمامة العامة في أحاديث صحيحة متواترة، أشهرها قول رسول الله ﷺ: «الحسن والحسين إمامان إن قاما وإن قعدا»[4].

وكان هذا الاحتفاء بالإمام الحسن من قبل جدّه رسول الله ﷺ يستدعي تعظيم الصحابة رضي الله عنهم له، ويستدعي إجلالهم لقدره وسمو منزلته، فقد كان عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، وهو حبر الأمة وترجمان القرآن الكريم، كان إذا ركب الحسن والحسين عليهما السلام

---

(١) ظ: أحمد بن حنبل/ المسند/ ٤٤+ ابن حجر/ الإصابة١/ ٣٣+ ابن عبد ربه/ العقد الفريد١/ ١٦٤.

(٢) ابن كثير/ البداية والنهاية ٨/ ٣٥.

(٣) الترمذي/ الصحيح ٢/ ٣٠٦ + أحمد بن حنبل/ المسند ٣/ ٣ + الحاكم/ المستدرك ٣/ ١٦٧.

(٤) المجلسي/ بحار الأنوار ١٠/ ٧٨ + الخطيب البغدادي/ التاريخ ١/ ١٤٠.

بادر فأمسك لهما الركاب، وسوّى عليهما أطراف الثياب، فاستغرب لهذا الاعتداد مُدارك ابن زياد، ولامه عليه، فانتهره ابن عباس بقوله:

«يا لُكع أَو تدري مَنْ هَذانِ؟ هَذانِ إبنا رَسُول الله ﷺ أَوْ لَيْسَ مما أَنْعَمَ الله بهِ عَلَيَّ أن أمسِك لَهُما الركاب، وأُسَوّي عَلَيهما الثِيَاب»[1].

وكان الاتجاه العام لدى المسلمين الإفادة من المأثور التكريمي للإمام الحسن عليه السلام فهم يستثمرونه بأروع صوره وهم يتمسكون به بأبهى حُلله، وما ذاك إلا لتكامل شخصيته المهابة، وتطاول سؤدده الشريف، ففي حديث ما ورّثه رسول الله ﷺ له ولأخيه الحسين قال ﷺ: «أما الحَسَنُ فَإن لهُ هَيْبَتي وسُؤدَدِي، وأما الحُسينُ فَإنَّ لَهُ جُرْأتي وَجُودِي»[2].

وكانت هذه الهيبة تفرض وجودها في منطلق ذاتي لا عنتَ فيه ولا تَكلّف، ومع ذلك فقد يحسب لها الحساب الدقيق حتى في مراكز القوى الحاكمة، فلا تُطاوَلُ ولا تُنازَعُ ولا تصدّ، لأنها تحتلّ مكانتها بموضوعية صِرفة في أعماق الناس وضمير الأمة.

وكان سؤدد الإمام الحسن عليه السلام يستثمر هذه الهيبة الماثلة في التواضع حيناً، ويُسيّرها في الاحتجاج حيناً آخر، وقد يتجه بها نحو المعارضة الإيجابية بعض الأحيان، وكان الاستثمار التواضعي شكراً لله على هبته الفياضة، والتسيير الاحتجاجي نهياً عن المنكر الجاثم، والاتجاه الإيجابي في المعارضة طلباً للحق المضاع، فقد روي أن

---

(١) ابن عساكر/ تاريخ دمشق ٤/ ٢١٢.

(٢) المتقي الهندي/ كنز العمال ٧/ ١١٠.

الإمام الحسن عليه السلام أبصر أبا بكر (رض) على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو يخطب في الناس، فقال له:

«انْزِلْ عن مِنبَر أبي، واذهب إلى مِنْبَرِ أبيك».

فأجابه أبو بكر برفق: «صَدَقتَ والله إنّهُ لمنبر أبيك لا منبر أبي»[1].

والملفت للنظر حقاً أن هذه الهيبة الموروثة يؤكدها أعداء الإمام وأنصار الإمام على حد سواء، فعبد الله بن الزبير مع شدة انحرافه عن أهل البيت عليهم السلام وتحامله عليهم، يقول: «والله ما قامت النساء عن مثل الحسن بن علي في هيبته وسمو منزلته»[2].

وحتى المعتزلة الذين تجنبوا وعثاء الخلاف السياسي، واستقلوا بأفكارهم الكلامية استقلالاً جزئياً، كانوا يستشعرون هذه المنحة الإلهية للإمام الحسن ابن أمير المؤمنين عليه السلام فقد قال مؤسس هذه الفرقة الإسلامية: واصل بن عطاء: «كانت على الحسن بن علي سيماء الأنبياء، وبهاء الملوك»[3].

وقد انسحبت هذه الشارة البارزة على التفكير السياسي الجديد الذي اختطه الخليفة عمر بن الخطاب (رض) في الشورى، وما أكده في اختيار الخليفة أو ما نصّ به عليه تشخيصاً عينياً، لا أمراً مردّداً بين أصحاب الشورى فيما نذهب إليه بإطار النقد التحليلي لأحداث الإسلام الكبار، فقد رشح عمر (رض) الإمام الحسن صلى الله عليه وآله وسلم وهو في أول شبابه

---

(١) ابن أبي الحديد/ شرح نهج البلاغة ٣/ ١٧.

(٢) ابن كثير/ البداية والنهاية ٨/ ٣٧.

الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ ١٢.

(٣) الأمين العاملي/ اعيان الشيعة ٤/ ١٢.

واكتمال فتوته إلى حضور اجتماع مجلس الشورى الذي عيّنه للأسماء، وقال للمرشحين الستة:

«أحَضِروا معكم الحسن بن علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس فإن لهما قرابةً، وأرجوا لكم البركة في حضورهما»[1].

وحضر الإمام الحسن عليه السلام اجتماع الشورى وإن لم يكن له من الأمر شيء، ومتى كان للحسن وأهل البيت عليهم السلام شيء يذكر مع الحاكمين، وكان الأنسب من عمر (رض) وهو يشير إلى قرابة الحسن وابن عباس، أن يقدم من هو أعرق قرابة، وألصق نسبة من ابن عباس، فيضع إلى جنب الحسن أخاه الحسين وهما ريحانتا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

نعم كان عمر (رض) في مجال آخر، يرى في الحسن والحسين عليهما السلام شريكين لأهل بدر في السابقة والجهاد، وإن لم يولدا أنذاك، ورآهما في منزلتهم في الذّب عن حياض الإسلام، ذلك حينما استن التمايز في العطاء بين المسلمين، فقدم المهاجرين على الأنصار، والعرب على الموالي، وفضل القرشيين على سائر العرب، والبدريين على بقية المسلمين، فقد فرض لأهل بدر خمسة آلاف درهماً، وألحق بأهل بدر: الحسن والحسين عليهما السلام لا أكثر ولا أقل.[2]

وكانت فتوة الإمام الحسن عليه السلام قد تكَامَلَتْ، ورجولته قد ترسّخت، إذ بلغ العشرين من عمره، فهو في عنفوان الشباب، وهو في مصّاف الرجال، وكانت الفتوح في ذروة النصر، والبعوث العسكرية في شدة وطأتها، بيد أننا لم نجد للإمام الحسن عليه السلام مشاركة تذكر، وهو الفتى المُهابُ، والحق أن هذه الظاهرة ينبغي أن تحلل في صالح الإمام

---

(١) ابن قتيبة/ الإمامة والسياسة ١/ ٢٤.

(٢) ظ: ابن عساكر/ تاريخ دمشق ٤/ ٣٢١.

الحسن عليه السلام فقد كان مشمولاً بالحظر السياسي الذي فرضه عمر (رض) على أعيان الصحابة في عدم السماح لهم بمغادرة المدينة المنورّة لأي شأن كان، فقد أخذ بحجزهم على حد تعبيره في الحظر على السفر أو الالتحاق بالفاتحين. إلا أن الحال قد اختلفت أيام عثمان (رض) فقد تحرر الصحابة وعلية القوم في عهده عن الالتزام بهذا الحظر، وسمح لهم بمغادرة المدينة، وأطلق حياة الحل والترحال إلا في حدود معروفة بحثت في مواقعها من كتابنا عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام لهذا فقد وجدنا في نضال الإمام الحسن وقيادته المبكرّة شذرات نادرة، ولكنها ذات قيمة نضالية عالية، فقد نص جملة من المؤرخين الأثبات أن الإمام الحسن عليه السلام قد انضّم إلى الفاتحين المحررين الذين اتجهوا إلى إفريقيا بقيادة عبدالله بن نافع في جيش كانت عدته «عشرة آلاف مقاتل» وقد استقبل المسلمون انضمام الإمام الحسن إليهم بغمرة من الغبطة والفرح الشديدين أن يكون حفيد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وأول سبطيه في طليعة صفوفهم، وتفاءلوا بالنصر، فكان فتح إفريقيا حصيلة كبرى لهذا النصر، وبداية كبّر لها المسلمون من أعماق القلوب(١).

حتى إذا حَلَّت سنة ثلاثين من الهجرة النبوية الشريفة غزا سعيد بن العاص خراسان وكان في كوكبة أركان حربه الإمامان الحسن والحسين عليهما السلام وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن العباس وجملة من صالحي الصحابة، واتجهوا لقومس ونهاوند وجرجان، فكانت الانتصارات المتتالية حليفة للجيش العربي الإسلامي، حتى إذا وصلوا أطراف طبرستان ومعالم جرجان على ساحل البحر قاتلهم أهلها قتالاً

(١) ظ: ابن خلدون/ العبر وديوان المبتدأ والخبر ٢/ ١٢٨.

شديداً، وصلى المسلمون صلاة الخوف، إلاّ أن المسلمين استقتلوا في ظل توجيه الإمامين وبركتهما، فأنزل الله نصره، حتى تمَّ لهم الفتح المبين[1].

وطبيعي أن يكون دور الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ دوراً قيادياً في هذه المعارك الفاصلة في الشرق، وذلك من أجل إعلاء كلمة الله في الأرض، لا يبتغي وراء ذلك سبيلاً يُتخذ لاعتبارات دنيوية زائلة، فقد ابتعد عن هذا النهج، وابتعد النهج هذا عنه، حتى إنه ليدفع ضريبة هذا الاتجاه نضالاً مريراً، لا تأخذه في الله لومة لائم، إلا أنه يحلم ما كان الحلم هو الأجدى، وينتفض ما كان الانتفاض هو الأجدر، فالمعيار السياسي لديه معيار ديني قيادي، لا ينخدع بعاطفة، ولا ينساق وراء العصبية، وإنما هو الحق، والحق وحده، ودلائل هذا المنهج عند الإمام الحسن غنيٌّ بالشواهد الفاصلة، وأكتفي هنا بظاهرتين تمثلان هذا الاتجاه في تأريخه النضالي المشرّف.

الظاهرة الأولى: وتمثل بمساندته لأبي ذر الغفاري في ثورته الفكرية على عثمان بن عفان (رض) فقد أعلن أبو ذر (رض) معارضته لعثمان، ونعى عليه سياسته المالية، ونقد فكره العشائري، وأنكر نكيراً جارحاً وجريئاً كل مخلفّات الضعف في شخصيته، وتوسع في طرح مظاهر الابتزاز في سلطانه، ولم يستجب لصلح أو مهادنة، ولم يغيّر أفكاره المتأججة بوعد أو وعيد، وبعد أخذ وردّ طويلين، بلغ معهما السيل الزبى، ضاق به وبمشاعره الثائرة نظام الحكم، ونفد صبر عثمان عليه، فنفاه إلى الربذة وحيداً، وساق معه التهديد رديفاً، وأمر أن لا يودعه أحد، ولا يخرج معه أحد مهما كانت الصفة أو الكيفية، فخرق

---

(١) ظ: الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٥/ ٥٧.

الإمام علي والحسن والحسين عليهم السلام القرار وأيدهم بذلك كل من: عمّار بن ياسر حليف بني مخزوم، وعقيل بن أبي طالب، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم، وخرجوا جميعاً لتوديع أبي ذر رحمه الله، وكان المسؤول التنفيذي لقرار النفي والتغريب هو طريد رسول الله صلى الله عليه وآله أعني مروان بن الحكم، فاكتوى بنار الحقد والكراهية لتحدي القرار، وبادر الإمام الحسن عليه السلام قائلاً: «إيه يا حسن ألا تعلم أن عثمان قد نهى عن كلام هذا الرجل؟ فإن كنت لا تعلم فاعلم». فانتهره الإمام علي عليه السلام وضرب أذن راحلته بالسوط، لأنه المعني بذلك الكلام، إلا أن مروان لم يجرأ أن يخاطب علياً به فخاطب ولده الحسن. ومهما يكن من أمر فقد تمّ التوديع على عجالة بما يناسب الحال، وألقى الإمام الحسن عليه السلام عبارات التوديع الآتية:

«يا عَمّاهُ لَولاَ أَنّهُ لا يَنْبَغي للمُوَدّع أَنْ يَسْكتْ، وَللمشيّع أَنْ يَنْصَرِفَ، لَقَصرَ الكَلامُ وَإنْ طَالَ الأسَفُ، وَقدْ أتى القومُ إليكَ ما ترى، فَضعْ عَنْكَ الدنيا بتذكر فراغها، وَشِدةِ ما اشتد منها برجاءِ ما بَعْدَها، واصبر حتّى تَلْقى نَبيكَ وهو عَنْكَ راضٍ»[1].

هذه الفقرات الموجزة قد اشتملت على أداب الدعاء، وعبّرت عن مظاهر اللوعة والأسف، وزهّدت بزخارف الدنيا وزبارجها، وحثّت على ثواب الآخرة وعطائها. فكان الإمام الحسن عليه السلام بهذا العرض السريع المؤثر قد أفرغ عصارة تجاربه الرسالية في مثل هذا الموقف الحسّاس، وكأنه أيضاً بهذا المنطق الفيّاض البليغ قد تكلم بلسان أبيه علي عليه السلام إمام البيان.

الظاهرة الثانية: وتتبلور أضواؤها في موقفه من الفتنة الكبرى في

---

(١) ابن أبي الحديد/ شرح نهج البلاغة ١٢/ ١٨٥.

خلافة عثمان بن عفان (رض)، فقد أنكر المسلمون على عثمان ما أحدثه ابتداعاً، من أنظمة ماليّة جديدة لا تتفق مع الملحظ الإسلامي، ولكنه انتهجها، وسياسة متناقضة في نظام الحكم لم تعرف من ذي قبل، ولكنه استنّها، وأثرة إدارية في المناصب وتعيين الولاة لم يسلكها السابقون، ولكنه إتبعّها، فكانت الثورة التي ذهب ضحيتها صريعاً يتشحط بدمه، وبإزائه مروان بن الحكم، ومعاوية بن أبي سفيان، وشباب الأمويين لم يحرّكوا ساكناً في الدفاع عنه، بل ترصدوا الأمر بكل إصرار ليجعلوا من قميصه شعاراً سفكوا من حوله دماء الآخرين، وألبتْ عائشة عليه تأليباً شنيعاً، وغدر به طلحة والزبير غدراً فاضحاً، واعتزل أمير المؤمنين عليه السلام الفتنة، بعد أن نصح وأبلى بالتوجيه السديد بلاءً حسناً، إلا أن مروان كان ينكث ما أبرمه علي عليه السلام، وينقض ما ألزم به عثمان من تغيير المسار في الهاوية، حتى ملّ علي من الأخذ والرد، وعجز عن صّد التيار الجارف، وكان مروان قد تولى كبر ذلك، فما وعَدَ به أمير المؤمنين عليه السلام من الالتزام التام بصدق الوعود، وردّ المظالم، ودفع الاعتداءات، وتطهير الجهاز الحكومي من الفجرة والمردة، كان عسلَ قولٍ يداف بِسُمٍّ الخلف والغدر، حتى إذا كثر النكير، وتدافعت الجموع الغاضبة، وجدنا الإمام الحسن ابن أمير المؤمنين يشهر السيف مرابطاً بباب عثمان (رض) ليدفع غضب الجماهير الثائرة من اختراق الدار، فقد رأى الإمام الحسن في قتل عثمان بهذا الاندفاع الجارف، رأى فيه فتح باب عظيم من الشر على المسلمين، وإن الإنكار على عثمان يجب أن يتم عن طريق عزله لا قتله، وأن بادرة الاغتيال بهذا الحجم الهائل ستمهّد لما هو أكثر خطراً على الإسلام، وأشد وقعاً على المسلمين، وقد كان الأمر كذلك، فما على الإمام الحسن عليه السلام إذا كان الأمر هكذا إلا أن يشارك مشاركة فاعلة في قطع

دابر الفتنة، وأن يصطنع من المعروف والفضل ما هو به أجدر، وبمقامه القيادي أمثل. على أن المحقق الأميني رحمه الله قد نقد هذه الرواية وامثالها وعدّ الجميع من الموضوعات التي لا أصل لها[١].

وقد حسب استاذنا الجليل الدكتور طه حسين في ضوء هذه الرواية وأمثالها مما هو مدخول لا صحة له، حَسِبَ أن الإمام الحسن عليه السلام كان عثمانياً بكل معنى الكلمة، فقال: «ولم يفارق الحسن حزنه على عثمان، فكان عثمانياً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، إلا أنه لم يسلْ سيفاً للثأر لعثمان، لأنه لم يرَ ذلك حقاً له، وربما غلا في عثمانيته حتى قال لأبيه ذات يوم ما لا يحب»[٢].

وهذا الرأي يطلقه أستاذنا العميد على عواهنه دون تمحيص أو رويّة كما هي عادته في البحث العلمي، وهو مناقش سنداً وموضوعياً، فقد اعتمد الدكتور طه حسين في سنده على ما رواه البلاذري في هذا المجال عن المدائني[٣].

والمدائني معروف بعداء أهل البيت عليهم السلام، والانحراف عن نهجهم السوي، وهو ممن وضع الروايات المنتحلة في فضائل بني أمية[٤] ولا تؤخذ الرواية من متهّم أو متعصّب أو كذّاب.

وأما موضوع رأي أستاذنا العميد ومتنه، فمناقش فيه أيضاً مناقشة كبرى، فمتى كان الحسن حزيناً على عثمان فضلاً أن يكون حزنه لم يفارقه عليه؟ وما هي أمارات هذا الحزن؟ وإذا كان الإمام

(١) ظ: الأميني/ الغدير في الكتاب والسنة والأدب ٩/ ٢١٨ـ ٢٤٧.

(٢) طه حسين/ الفتنة الكبرى ١/ ١٧٦.

(٣) ظ: البلاذري/ أنساب الأشراف ٥/ ٨١.

(٤) ظ: الأميني/ الغدير ٩/ ٢١٦ـ ٢٤٥.

الحسن عليه السلام عثمانياً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، فكيف عبّر عن هذه العثمانية؟ وما هو العمل الإيجابي الذي قام به بعد مقتل عثمان (رض)؟ وهل صحيح أنه لم يرَ استلال السيوف للثأر بعثمان حقاً له؟ أعتقد أن أستاذنا كان في رأيه هذا مبالغاً ومغالياً بكل ما لهذين اللفظين من معنى لغوي حقيقي أو مجازي، وذلك أن الإمام الحسن عليه السلام كان ذا باع طويل في تهيئة المقاتلين الرساليين ضد عائشة أم المؤمنين (رض) وضد طلحة والزبير وكل الذين زعموا أنهم ثأروا لعثمان بعد مصرعه، فلقد عمل الإمام الحسن عليه السلام يداً بيد مع الصحابي الجليل عمار بن ياسر في استنهاض الكوفيين لحرب الجمل والتي ألقح جذورها ومرارتها المتمردون ثأراً لعثمان فيما يقولون، وكان موقفه في حرب صفين من القاسطين معروفاً، فقد جنّد معاوية والأمويون الصفة العامة لهذه الحرب للطلب بدم عثمان (رض)، والحسن عليه السلام كان إلى جنب أبيه في هذين الحربين، كيف وقد أنكر المهاجرون والأنصار وطليعة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سياسة عثمان حتى ابن أبي بكر خَلْف الخليفة الأول، ولم يكن عثمان لهم رضاً، ولا سياسته عندهم برشيدة، ولا تسليطه بني أمية عليهم بمقبول، والحسن واحد من هؤلاء وابن رسول الله زيادة على ذلك، وهو ينكر ما أنكروا.

كان الحسن عليه السلام في هذا المناخ المحموم رجل صدقٍ وحقٍ، ورمز بطولة ونضال، وصاحب موقف وكلمة، وكان أبوه في رحاب هذا الأفق المديد.

بقي أن ننبه مسبقاً ليكون المتلقي على بصيرة، أن قيادة الإمام الحسن عليه السلام للأمة ـ كما سنلاحظ دلائل ذلك فيما بعد ـ قد اتسمت بالعنصر المهم المفقود لدى السياسيين الرسميين دون السياسيين

الرساليين، هذا العنصر هو التقوى بأدق معاني هذه الكلمة وأخصها في قاموس الفكر الإسلامي المتوثّب، ولا نريد بالتقوى ـ كما يخيّل للآخرين ـ الفرار من حياة الناس، والاحتجاب وراء جدران البيوت، فالإمام بقيادته الناهضة أرفع جانباً من هذا الفهم الساذج لحقيقة التقوى، بل التقوى حقيقة فعلية ثابتة في الاندماج بحياة الناس بشكل إيجابي دقيق، وانصهار كامل مع الجماعة بحيث تلمسه بعيداً عن سلبية الاعتزال المصطنع، فالإمام أيُّ إمام من أئمة أهل البيت عليهم السلام، معنيٌّ بشؤون المسلمين صغيرها وكبيرها، وهو مُلزَمٌ بإقامة حكم الله في الأرض ما وجد إلى ذلك سبيلاً، وهو موجّهُ لطلائع الأمة كما يريد الإسلام، لم يخطر بباله الهرب من واقع الحياة، ومن الناس في الأعماق، لأن التقوى الحقه لديه هي الذروة الشامخة في النضال واختراق الحواجز(١).

---

(١) ظ: المؤلف/ الإمام زين العابدين: القائد، الداعية، الإنسان/ ٣٤.

المهمات الريادية الصعبة

يبدو أن أمير المؤمنين عليه السلام، وقد ألغى الامتيازات الطبقية لدى تسلمه الحكم الإسلامي الرائد، وعاد بالناس إلى الحضيرة الإنسانية المثلى، فقضى على نظام الطبقات وسيطرة قريش، والأثرة بالمال والجاه والسلطان، وهو بهذا يتلمس الأثر النوعي المحدّد لرسول الله صلى الله عليه وآله، بهذا الملحظ لا سواه، جعل ولده الإمام الحسن عليه السلام مرجعاً عاملاً في تحقيق الوعي التكاملي للإنسان المسلم، فقلّدَه زمام المبادرة لدى المهمات الصعبة التي انتدبه إليها، بما يصلح أن يعتبر دليلاً ناهضاً على أصالة الجذور التاريخية لقيادة الإمام الحسن عليه السلام وهو يتولى شؤون الأمة فيما بعد، وهو يمّهد ويخطط لثورة الإسلام الكبرى في كربلاء، في ظل حنكة سياسة صامدة، متجرعاً الصبر المرير، ومصطدماً بالرزايا الهائلة.

وكانت البداية الهادفة إيفاد الإمام الحسن عليه السلام إلى الكوفة سنة ست وثلاثين من الهجرة الشريفة، وبمعيته الصحابي الجليل الثائر عمار بن ياسر، وذلك حينما بلغ علياً عليه السلام: أن أبا موسى الأشعري عامله على الكوفة، يخذّل الناس عنه، ويجمعهم على خلافه، ويثبّطهم عن الالتحاق به لحرب الناكثين، فانتدب له من يعزله، واستخلف غيره، وكتب له يؤنبه ويوبخه، واستبدله بقرضة بن كعب الأنصاري بما نصّه:

«أما بعد: فقد كنت أرى أن تعزب عن هذا الأمر الذي لم يجعل

الله لك نصيباً منه يمنعك عن ردّ أمري، وقد بعثت الحسن بن علي وعمار بن ياسر يستنفران الناس، وبعثت قرضة بن كعب والياً على المصر، فاعتزل عملنا مذموماً مدحوراً، فإن لم تفعل فإني قد أمرته أن ينابذك»[١].

ونهض الإمام الحسن عليه السلام بهذه المهمة العاجلة، وأعلن فور وصوله الكوفة عزل أبي موسى عن الولاية، ومهّد الأمر للوالي الجديد، واستدعى إليه أهل الكوفة، فرأى الاستجابة حين أوقفهم على الحقيقة، ثم خطب الناس قائلاً:

«أيها الناس: قد كان في مسير أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ما قد بلغكم، وقد أتيناكم مستنصرين لأنكم جبهة الأنصار، ورؤوس العرب، وقد كان من طلحة والزبير بعد بيعتهما وخروجهما بعائشة ما قد بلغكم، وتعلمون أن وهن النساء وضعف رأيهن إلى التلاشي، ومن أجل ذلك جعل الله الرجال قوّامين على النساء، وأيم الله لو لم ينصره فيكم أحد لرجوت أن يكون فيمن أقبل معه من المهاجرين والأنصار كفاية، فانصروا الله ينصركم».

فضجّ الناس مستبصرين بنصرة أمير المؤمنين والتضحية بين يديه، وتهيأت البعوث، وانتظمت الجيوش، وجهر داعي الحق في الآفاق، ولكن أبا موسى لانحراف في سلوكه، وخرف في عقله، وطعن في عقيدته، خذّل الناس، ونهاهم عن الفتنة بزعمه، متناسياً أن علياً مع الحق، وأن الحق معه، فعاتبه الإمام الحسن عليه السلام متسائلاً: «يا أبا موسى لمَ تثبط عنا الناس؟» وقابله مع هذا بلطف ورفق وأناة قائلاً: «يا أبا موسى، والله ما أردنا إلا الإصلاح، وليس مثل أمير المؤمنين يخاف

(١) ابن أبي الحديد/ شرح نهج البلاغة ٣/ ٢٩٥.

على شيء» فوجم أبو موسى، وتعثر بكلامه قائلاً: صدقت بأبي أنت وأمي، ولكن المستشار مؤتمن، فقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنها ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الراكب.

فقاطعه عمار بن ياسر محاججاً، فما نفع مع أبي موسى الحجاج، وبقي مصراً على لجاجه وسوء طويته، فثار بوجهه الإمام الحسن قائلاً: «اعتزل عملنا أيها الرجل، وتنحَّ عن منبرنا لا أم لك»[1].

واندفع مالك الأشتر غاضباً لله، مشتدّاً نحو قصر الإمارة فأحاط بالقصر، واحتله احتلالاً عسكرياً، ونادى بأبي موسى: «اخرج اخرج الله نفسك، فوالله إنك لمن المنافقين».

فخرج أبو موسى بعد هن وهن، لا يلوي على شيء. واستنهض الإمام الحسن عليه السلام المسلمين، واتجه صوبهم مرشداً:

«أيها الناس: أجيبوا دعوة أميركم، وسيروا إلى إخوانكم، فإنه سيوجد إلى هذا الأمر من ينفر إليه، والله لئن يليه أولو النهى أمثل في العاجل والآجل، وخيرٌ في العاقبة، فأجيبوا دعوتنا، وأعينونا على ما ابتليتم، وإن أمير المؤمنين يقول: قد خرجت مخرجي هذا إما ظالماً أو مظلوماً، وإني أذكر الله رجلاً رعى حق الله إلا نفر، فإن كنت مظلوماً أعانني، وإن كنت ظالماً آخذني، والله إن طلحة والزبير لأول من بايعني، وأول من غدر، فهل استأثرت بمال أو بدلت حكماً، فانفروا وأمروا بالمعروف وأنهوا عن المنكر»[2].

---

(١) ظ: في هذه النصوص: الأميني/ الغدير/ ٢/ ٧٧.

(٢) المصدر نفسه ٢/ ٧٦.

فأنت ترى الإمام الحسن عليه السلام في هذا الخطاب قد طبّق المفصل مخططاً، وقد ابتغى الإصلاح والصلاح واثقاً، ودعا إلى إجابة أمير المؤمنين، وطلب المسيرة إلى إخوانهم من المهاجرين والأنصار، ووضعهم أمام الأمر الواقع، فلهذا الأمر أهله، فان ينفر الكوفيون إليه، نفر غيرهم من المسلمين، ولئن ولى الأمر أولو النهى والبصيرة فهو أمثل في عاجل الدنيا، وآجل الآخرة، وأوضح أن القضية قضية ابتلاء واختبار وامتحان والإعانة إنما تكون عند الفتنة، لحسم مادة الابتلاء والبلاء، ثم فصّل القول في موقف أمير المؤمنين حصراً، فأما أن يكون ظالماً فينهى عن ذلك، أما أن يكون مظلوماً فيعان على ظلامته، ثم ذكر حقيقة النكث في البيعة، فقد غدر بها طلحة والزبير وهما أول من بايع أمير المؤمنين، ولكنهم أول من غدر أيضاً، وأمير المؤمنين لم يستأثر بمال، ولم يبدل حكماً.

ولم يقف الإمام الحسن عند هذا الحدّ في مهمته الريادية هذه بل توَّجها بخطاب عظيم الوقع في النفوس، بعيد الأثر في الرواية، «لائح الوقائع في البرهان، لقد عمد الإمام الحسن إلى تذكير الناس بموقع أمير المؤمنين القيادي، فهو يدعو إلى الصواب، ويسعى إلى العمل بحكم الكتاب، وينادي بالناس إلى الجهاد في سبيل الله، وهو وإن كان كرهاً لهم، ولكن فيه بآجله ما يحبّون».

وكما بين هذا الدور القيادي، فقد تناول دور أمير المؤمنين الإيماني، ومكانه من رسول الله صلى الله عليه وآله في مشاهده، واجتهاده في مرضاة الله، ورضا رسول الله صلى الله عليه وآله عنه حتى وفاته، ووصيته له في جميع ما أهمه من أمر الدنيا والدين. قال الإمام الحسن في هذا الخطاب:

«إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أرشد الله أمره، وأعزّ

نصره، بعثني إليكم يدعوكم إلى الصواب، والعمل بالكتاب، والجهاد في سبيل الله، وإن كان في عاجل ذلك ما تكرهون، فإن في آجله ما تحبّون إن شاء الله، ولقد علمتم أن علياً صلى مع رسول الله وحده، وأنه يوم صَدَّقَ به لفي عاشرة من عمره، ثم شهد مع رسول الله جميع مشاهده، وكان في اجتهاده في مرضاة الله، وطاعة رسوله، وآثاره الحسنة في الإسلام ما بلغكم، ولم يزل رسول الله راضياً عنه حتى غمضه بيده، وغسله وحده، والملائكة أعوانه، والفضل ابن عمه ينقل إليه الماء، ثم أدخله حفرته، وأوصاه بقضاء دينه وعداته وغير ذلك من أموره، كلّ ذلك مَنٌّ من الله عليه، ثم والله ما دعى إلى نفسه، ولقد تدّاك الناس عليه تداك الإبل الهيم عند ورودها فبايعوه طائعين، ثم نكث ناكثون بلا حدث أحدثه، ولا خلاف أتاه، حسداً له، وبغياً عليه، فعليكم عباد الله بتقوى الله وطاعته، والجدّ والصبر والاستعانة بالله، والإسراع إلى ما دعاكم إليه، عصمنا الله وإياكم بماعصم به أولياءه وأهل طاعته، وألهمنا الله وإياكم تقواه، وأعاننا وإياكم على جهاد أعدائه، واستغفر الله لي ولكم»[1].

والملاحظ أن الإمام الحسن قد فصّل القول في حياة أمير المؤمنين الإيمانية والنضالية والقيادية، وبيّن ما عليه الحقيقة في بيعة أمير المؤمنين في اجتماع الناس حوله وتداكهم عليه، حتى إذا نهض بالأمر نكث القوم دون أن يحدث حدثاً، أو يغيّر سنة أو يأتي خلافاً، بل هو البغي عليه، والحسد له. وبهذا يكون قد أفرغ في الخطاب بعض ما في نفسه من اختلاج شجي وألم دفين، استحق في ضوء البوح بهما عزيمة الجمع المقاتل على الالتحاق بأمير المؤمنين.

---

(١) هاشم معروف/ سيرة الأئمة الاثني عشر ١/ ٥٤٧ وما بعدها.

وبالفعل فقد فعلت هذه الخطبة وسواها في نفوس القوم ما تفعله النار بالحطب الجزل، فنفر الناس في عشرة آلاف مقاتل من الكوفة، وساروا بقيادة الإمام الحسن إلى أمير المؤمنين وهو مُعَسكر بذي قار..

حينما يلقي البحث الضوء على معطيات أول مهمة رسمية ينهض بأعبائها أبو محمد الحسن بن علي عليه السلام، فإننا نشاهده عن كثب:

قد أبلى بلاء حسناً في السفارة، كان حذراً ودقيقاً، يحذر الفرقة، ويتعامل بدقة، داعياً ومبشراً بأمانة، ومحذراً ومنذراً بجدّية، فقد وُفِّقَ إلى عزل هذا الشيخ الخرف أبي موسى الأشعري، وقد مهّد السبيل بين يدي الوالي الجديد قرضة بن كعب الأنصاري، وكان يمكن أن يحدث ذلك ضجة عارمة، إلا أن الإمام الحسن نفَّذه بحكمة دون دماء، وعالجة بروية دون فتنة، وقد استنفر الناس فأحسن الاستنفار، وأخذ النصرة بوعي وهدوء، فأثبت أنه في خطته هذه، وهي خطة محكمة الأواصر، قد أتى مستنصراً ولم يأتِ مقاتلاً، وقد جاء واعياً ولم يكن باغياً، وقد برز مصلحاً ولم يكن مستبداً، وقد جهد بوضع الشيء في موضعه أميناً، وبذلك فقد نفذ إلى القلوب واستولى على المشاعر والأحاسيس، وحينما تمّ له ذلك أبان عن طوية طلحة ونية الزبير بما هما أهل له دون تزيّد أو إضافة، وعظّمَ من شأن أمير المؤمنين عليه السلام بما كان ينبغي له، وكان قد حاور أبا موسى وناظره، وعاتبه وأنّبه، فلمّا أصرّ على غيّه وجهله عنّفه وعذله، ولمّا ركب ضلاله عزله واستبدله، وأضاف إلى هذه المواقف كلها تعظيم شأن الجهاد وإن كان كرهاً، إلا أن العاقبة الحسنة معه، وتحدث عن أمر البيعة لأمير المؤمنين كما كانت، ونبّأ عن الناكثين بما اقترفوا، وطوّق المتمردين بجرائر ما ارتكبوا، فاطمأنت له الناس، واستجابت له الضمائر، واستيقظ الجمع من الغفلة، ورأوا فيه الرائد

الذي لا يكذب أهله، والمبعوث الذي لا يستلين بمهمته، فاقتاد عشرة آلاف فارس لنصرة الحق.

وهكذا نجد الإمام الحسن عليه السلام مثلاً رائعاً في الاستخلاف، ودبلوماسياً فذاً في السفارة، وسياسياً محنكاً في الكسب الرسالي، وإنساناً فريداً في التصرف وحسن التأتي في الأمور.

وكان المنظور الآخر في تلقي الإمام الحسن المهمات الرسالية الهادفة حينما تحركت كتائب أمير المؤمنين عليه السلام نحو البصرة، ووصلت طلائعها إلى أطرافها وقد تزلزلت أقدام الناكثين رهباً ورعباً، وأخذهم هول ما وقعوا فيه من المأزق الضيّق، وسدت في وجوههم منافذ تبرير أعمالهم، هنالك عمدوا إلى الدجل السياسي، والدجل صناعة وبضاعة بوقت واحد، يصنعها من لا يرتبط بوثاق من دين أو إنسانية، ويستبضعها من لا نصيب له من التقوى والإيمان.

أُوكل إعلام هذا الدجل المغلّف إلى ابن الزبير، فكانت مهمته فيه واهية المصادر، مهتزة الأصول، فاحتطب على كاهله ما ناء به ثقل جريمته، لقد خطب عبد الله بن الزبير أهل البصرة فقال:

«أيها الناس: إن عليّ بن أبي طالب قتل الخليفة بالحق عثمان، ثم جهّز الجيوش إليكم ليستولي عليكم، ويأخذ مدينتكم، فكونوا رجالاً تطلبون بثأر خليفتكم، واحفظوا حريمكم، وقاتلوا عن نسائكم وذراريكم وأحسابكم وأنسابكم، أترضون لأهل الكوفة أن يردوا ماءكم، واغضبوا فقد غوضبتم، وقاتلوا فقد قوتلتم، ألا وإن علياً لا يرى معه في هذا الأمر سواه، والله لئن ظفر بكم ليهلكن دينكم ودنياكم»[١].

---

(١) نصر بن مزاحم/ وقعة الجمل/ ١٥٨.

وكان ابن الزبير في هذا الخطاب الناري ينزع عن قوسي الزيف الديني الذي لا يصدّق، ويعمد إلى برنامج العصبية الإقليمية الذي رفضه الإسلام، فادعى أن علياً قتل عثمان، والمسلمون آنذاك يعلمون براءة علي من دم عثمان، وزعم أن علياً جهّز الجيوش ليستولي عليهم ويأخذ مدينتهم، وعامل عليّ في البصرة وهي ضمن سيطرته السياسية، وحرّضَ على القتال الصاعق دفاعاً عن الحريم والنساء والذراري والأحساب والأنساب فيما يقول، ومنطق الحمية الجاهلية لا يعترف به القرآن، ولا تقرّه السنة الشريفة، وأراد إثارة ما بين الكوفة والبصرة بقدح زناد التعصب الأعمى والنظرة المحلّية، فلا حدود ولا قيود في الدولة بظل الإسلام، وما أغضب عليّ أهل البصرة، ولا قاتلهم حتى يقاتلوا، بل سبقت إليها جيوش المتمردين فأشعلوها فتنة دهياء. أما أن علياً لا يرى معه في هذا الأمر سواه، فكلمة حق أريد بها باطل، فعليٌّ مع الحق والحق مع علي كما روي ذلك عن النبي ﷺ وهو لا يرى معه أحداً لأن كل الذين معه هم الرعية وهو الراعي، ومن كان هكذا فلا يحتاج إلى أحد، ولا غنى لأحد عنه.

وكانت لهجة التحذير والإنذار في خطاب ابن الزبير تفتقر إلى الإسناد الوقائعي، فعلي عليه السلام قد ظفر بأهل البصرة وبه وبأمثاله من المردة والناكثين فعفا عن الجميع، وما أسر أحداً، ولا سلب أحداً، ومارزأهم بشيء، وما استولى على غنائم، ولم يهلك الدين ولا الدنيا فيما زعم ابن الزبير بل صانها بسماح.

وكان حرياً بالإمام الحسن عليه السلام أن يردّ على هذا الهراء كله، وأن يكشف سحب التضليل والدجل السياسي، فيقوم خطيباً بأمر من أمير المؤمنين عليه السلام ويحمد الله ويثني عليه بما هو أهله، ويذكر

النبي ﷺ فيصلي عليه وعلى آله، ويقول:

«قد بلغتنا مقالة ابن الزبير في أبي، وقوله فيه أنه قتل عثمان، وأنتم يا معشر المهاجرين والأنصار وغيرهم من المسلمين علمتم بقول الزبير في عثمان، وما كان اسمه عنده[1] وما كان يتجنى عليه، وإن طلحة يومذاك ركز رايته على بيت ماله وهو حيٌّ، فأنى لهم أن يرموا أبي بقتله، وينطقوا بذمّه، ولو شئنا القول فيهم لقلنا. وأما قوله: إن علياً ابتزَّ الناس أمرهم، فإن أعظم حجة لأبيه ـ زعم ـ أنه بايعه بيده، ولم يبايعه بقلبه، فقد أقرّ بالبيعة، وادّعى الوليجة، فليأتِ على ما ادّعاه ببرهان، وأنى له ذلك؟ وأما تعجبه من توردّ أهل الكوفة على أهل البصرة، فما عجبه من أهل حقٍ توردوا على أهل باطل؟ وأما أنصار عثمان فليس لنا معهم حربٌ ولا قتال، ولكننا نحارب راكبة الجمل وأتباعها»[2].

وكان ردّ الإمام الحسن عليه السلام منطقياً من وجه إذ قرع فيه الحجة بالحجة، وبديهياً من وجه آخر إذ ألزمهم بما ألزموا به أنفسهم من الإقرار على الأقل، وقابل الإمام شدة ابن الزبير باللين، وانتصر على تهجمه بالرفق، وشرح أبعاد الحرب القادمة، فلا حرب مع أنصار عثمان ولا قتال، وإنما هي حرب تستهدف راكبة الجمل وأتباعها. كان هذا المنطق واضحاً في إرادته، صريحاً في دلالته، ولا التواء معه ولا ابتزاز.

ولا شك أن للإمام الحسن عليه السلام طائفة من المواقف الرسالية في معركة الجمل، أغمض التاريخ عنها عيناً، وطوى دونها كشحاً، فأصالة

---

(١) كان الزبير ـ تبعاً لعائشة أم المؤمنين ـ يسمى عثمان« نعثلاً».

(٢) نصر بن مزاحم/ وقعة الجمل/ ١٥٩.

الحسن عند أبيه كانت مرتبطة به داعياً ومصلحاً ومبَلّغاً، وما يدرينا فلعلّ الوجه الرسمي لتدوين التأريخ الإسلامي والعربي قد وقف بالصف المعارض لأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فأوجز ذكر مآثرهم، وأضرب صفحاً عن مكارمهم، فقد دوّنَه أعداؤهم مموّلين بأعطيات الخلفاء والولاة ممن ركبوا رؤوسهم وهم ضالّون، واستأجروا ضمائرهم وهم برحاب الانتهازية الفسيح.

والحسن ابن أمير المؤمنين ـ تبعاً لأبيه وزيادة ـ قد غمط حقه، واستُنكِر لمنزلته، وقامت الضجة الكاذبة حول اتهامه بحب النساء تارة، وبطلب السلامة والعافية تارة أخرى، وهو بريء مما أُلصق به من تهم رخيصة فضفاضة، فكيف بك إذن أن يتطوع واقعيّ شهم أو مؤرخ فذّ فيعطينا شذرات من الحقائق في ظل سيرته وقيادته الرشيدة.

ومهما يكن من أمر، فقد قامت حرب الجمل، واندلع لهبها عالياً، يطال كل الهامات الشامخة في الكبر والاستعلاء والجبروت، وإذا بالإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ يخطر مشتداً نحو المعركة، فهو يحمل روح أبيه بين جنبيه، وإذا بأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ينفس به وبأخيه الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ عن المخاطرة وخوض الحرب، ويلتفت إلى من حوله من المسلمين قائلاً: «املكوا عني هذا الغلام، فإني أنفس بهذين ـ الحسن والحسين ـ عن الموت لئلا ينقطع بموتهما نسلُ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ»[1].

حتى إذا وضعت الحرب أوزارها، صفح أمير المؤمنين عن المنهزمين وسفّر إلى المدينة أمّ المؤمنين، وعفّ عن الأسر والغنائم، وترك للجرحى والمصابين في المعركة حريتهم في العلاج والتطبب،

---

(١) هاشم معروف/ سيرة الأئمة الاثني عشر ١/ ٥٤٩ وانظر مصدره.

وعاد إلى الكوفة، واجتمع إليه زعماؤها، وكان فيهم من قعد عن نصرته، وتوارى عن الاستجابة لحملته، عمد إليهم الإمام عليه السلام فعنّفهم ولامهم، وفيهم سليمان بن صرد الخزاعي، فخصه الإمام عليه السلام بقوله: «ارتبتَ وتربصت وراوغت، وقد كنت من أوثق الناس في نفسي، وأسرعهم ـ فيما أظن ـ إلى نصرتي، فما قَعَدَ بك عن أهل بيت نبيك؟ وما زَهَّدك في نصرتهم؟».

فوجم سليمان، وقال للإمام: «يا أمير المؤمنين: لا تردّن الأمور إلى أعقابها، ولا تؤنبني بما مضى منها، واستبقِ مودّتي تخلص لك نصيحتي، وقد بقيَتْ أمور تعرف فيها وليكَ من عدوّك».

ثم طفق سليمان إلى الحسن عليه السلام قائلاً: «ألا أعجبك من أمير المؤمنين، وما لقيت من التبكيت والتوبيخ؟».

فأجابه الإمام الحسن عليه السلام برويّته الهادئة: «إنما يُعاتَبُ مَنْ تُرجى مودّتهُ ونصيحته» فأعاد له الثقة بالنفس، واعتبره من أهل المودّة والنصيحة، فأبان سليمان ما في نفسه من شؤون للإمام الحسن عليه السلام وقال: «إنه بقيت أمور سيستوسق فيها القنا، وتُنتضى فيها السيوف، ويحتاج فيها إلى أشباهي، فلا تستغشوا نصحي، ولا تتهموا نصيحتي».

فابتدره الإمام الحسن عليه السلام مباركاً ومطمئناً، وقال له: «رحمك الله، ما أنت عندنا بالضنين»[1].

وحديث سليمان بن صرد كله عجب في عجب، ومواقفه مضطربة غير مستقرة، يتوارى حين يجب عليه أن يبرز، ويظهر باندفاع لا روية معه، فقد تخلّف عن الجمل ولكنه التحق بصفّين، وقد هاجم الحسن

---

(١) ظ: في هذه النصوص: نصر بن مزاحم/ وقعة صفيّن/ ١٠.

بصلحه ولكنه شكّل أول خلية للعمل السياسي السرّي، وقد تلكأ عن نصرة الحسين عليه السلام بكربلاء ولكنه ندم على ذلك فقاد ثورة التوابين طلباً بثأره فيما بعد.

وما لنا ولهذا، فقد دخل الإمام الحسن الكوفة حاضرة الإسلام.

في حاضرة الكوفة الحمراء

دخل الإمام الحسن عليه السلام الكوفة مرافقاً لأمير المؤمنين في رجب سنة ست وثلاثين من الهجرة، وقد ناهز الثالثة والثلاثين من عمره الشريف، وهو رهيف الحِسِّ، متفتح المدارك، مكتمل البناء، وفي عنفوان شبابه الفتي، فتطلع إلى الكوفة، والكوفة قد تسمى «كوفة الجند» لأنها مربض جنود الاسلام، وقد تسمّى «الكوفة الحمراء» بلحاظ تربتها الزكية التي تميل إلى الحمرة، وقد يتجوز في ذلك فتعتبر حمراء لكثرة ما سال ببقعتها من الدماء إزاء نصرة الإسلام، ولا مانع من احتضان القولين معاً، فهي «حمراء» برملتها الأرجوانية المائلة إلى الاحمرار، وهي «حمراء» أيضاً، بتربتها التي تشبعت بدماء الشهداء ودماء الأعداء على حد سواء. فكلاهما يصبّان في رافد الإيمان، دماء الشهداء تنير المسيرة بين يدي الشعوب المضطهدة، ودماء الأعداء يريقها المؤمنون الرساليون تمهيداً لإقامة دولة الحق، وهما معاً من دعائم الفكر السياسي في الإسلام.

في الكوفة محطّ أنظار الركب الإلهي الصامد، وملتقى أجناد الزحف الإسلامي الفاتح، تمرَّسَ الإمام الحسن عليه السلام في استكناه مناخها الاجتماعي المتعدد، وأجال النظر في حياتها العقلية المتباينة، وأبصر عن قرب تكوينها النفسي المضطرب، وتنبه إلى الأهواء المختلفة

في التركيبة الداخلية للبناء البشري المتناقض، واستطال إلى العمق الإنساني في شبابها وكهولها وأشياخها، فازداد بها خبرة ومعرفة، وعركها إدراكاً وتجربة، واخترق الحُجُب والأستار ليقف عند الحقيقة كما هي، فواكب أحداثها في جدّها وترددها، ولَحَظَ عيش سكانها في ضرائها وسرائها، وعاصر مناخها في شموخها وانحدارها، فكان من أولئك القلائل الأفذاذ الذين استوعبوا مجمل آثارها ونوازعها وأخبارها، فلم تعد تخفى عليه خافية من شواردها، ولا لتعدوه جزئية من جزئياتها المتأصلة في شتى الميادين.

بهذا الإدراك الشامل المتطاول رأى الإمام الحسن عليه السلام الكوفة وهي تحتفي بأمير المؤمنين عليه السلام بكل ثقلها الجماهيري والعسكري والاجتماعي، فكان لها ما حرصت عليه من عزّ وكرامة وازدهار جعلها في مصّاف الحواضر العالمية الكبرى حينما اتخذها أمير المؤمنين عليه السلام عاصمة للخلافة الإسلامية في شرق الدنيا وغربها، فانتشر فيها عدلُهُ وزهدُهُ، وازدهر بين ربوعها علمُهُ وفكرُهُ، وكثر في صحرائها جنده وجيشه، واشتبكت عليه بفروعها وأصولها، فحباها كرامته وثناءه، وخصّها بحبه واعتداده، فهي عنده: جمجمة الإسلام، وكنز الإيمان، وسيف الله، وقبة الإسلام[1].

واعتبر أمير المؤمنين عليه السلام أهل الكوفة إخوانه في الدين، وأنصاره من الناس، وأعوانه على الحق، المجيبين إلى الجهاد، يضرب بهم المدبر، ويرجو فيهم تكامل طاعة المقبل، حتى قال:

«يا أهل الكوفة أنتم اخواني وأنصاري وأعواني على الحق،

(١) ظ: الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٣/ ٢١٢.

ومجيبي إلى جهاد المحلّين، بكم أَضْربُ المُدْبِرَ، وأرجو إتمام طاعة المُقْبِلِ»[1].

وكان الكوفيون يبادلون علياً حباً بحب، وهوى بهوى، وقد غذّاهم التبصّر بامور الدين في كنه معرفته، وعبّأهم الحديث الشريف في فضائله تعظيم منزلته، وزرع فيهم ولاة الكوفة الأوائل ـ كعمار بن ياسر ـ بذرة تبجيله، وحينما عزم على حرب القاسطين، كان عليه الأمر وعليهم الطاعة، فقد انتدب لهم الإمام الحسن عليه السلام في غمار هذا الولاء الغامر فقام بهم خطيباً، واتجه نحوهم داعياً، يذكرهم برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هيبةً، وبأمير المؤمنين بلاغةً، فقال:

«الحمدُ لله لا إله غيرهُ، وَحدَهُ لا شريك له، وأثني عليه بما هو أهله؛ ثم قال: إن مما عَظّمَ الله عَليكم من حَقّهِ، وأسبغَ عَليكم من نعمهِ، ما لا يُحصى ذِكرُه، ولا يُؤَدى شُكْرُه، ولا يبلغهُ صِفَةٌ وَلاَ قَولٌ، ونَحْنُ إنّما غَضِبنَا لله وَلَكُمْ، فإنه مَنَّ عَلينا بما هو أهلهُ أنْ نشكرَ فيهِ آلاءَهُ وبلاءَهُ ونعماءَهُ، قولاً يَصعَدُ إلى الله فيهِ قولنا، ونَستوجب فيه المَزِيدَ مِنْ رَبِّنا، قولاً يَزِيدُ ولا يَبيدُ، فإنه لم يَجتمعْ قومٌ قَطْ على أمر واحدٍ إلاّ اشتّدَ أَمرُهُمْ، واسْتَحكَمتْ عُقَدَتُهمْ، فاحتشِدوا في قِتال عَدِوكُمْ معاوية وجنوُدِهِ، فإنّه قد حضر، ولا تَخَاذلُوا فإنَّ الخُذلانَ يَقطعُ نِيَاطَ القُلُوب، وإنَّ الإقدامَ على الأَسِنَّةِ نجْدَةٌ، لأنَهُ لَمْ يَمتَنع قومٌ قطّ إلاّ رَفَعَ الله عَنهُمْ العِلّةَ، وَكَفاهُمْ جوائحَ الذِلّةِ، وهداهم إلى معالم المِلّة»[2].

كان هذا الخطاب بلسماً لجراحات يوم الجمل لمن شكك في ذلك من المغفلين، وتثبيتاً للواعين في إدراك الحقائق، والأهواءُ بعدُ لم

---

(١) ابن قتيبة/ الإمامة والسياسة ١/ ٢٣٠.

(٢) باقر شريف القرشي/ حياة الإمام الحسن بن علي ١/ ٤٨٠.

تتفرق، مسرعين للإطاحة بأعداء الإسلام، وطواغيت الأمة وكانت هذه الذبالة المتقدّة في خطاب الإمام الحسن عليه السلام بداية للتآلف في الآراء، والتعاضد في المشاعر، وهم يدٌ واحدة على عدوهم، وسُرَّ بذلك أمير المؤمنين حينما قابلوه قائلين:

«سِرْ بنا يا أمير المؤمنين حيث أحببت، فنحن حزبك وأنصارك، نعادي مَنْ عاداك، ونشايعُ مَنْ أنابَ إليك وإلى طاعتك»[1].

والإمام الحسن عليه السلام يستمع إلى هذا كله، ويدرك مغزى هذا كله، وهو يزداد شعوراً بالغبطة، ويأنس روحاً بهذا المناخ الدافىء، وهو إلى جنب أبيه في أكابر مستشاريه، وأهل الكوفة إلى جنبه، وهم طليعة جنده، وكتيبة بلائه، وعيبة أسراره، يكرعون حوض ولائه، ويسارعون لتنفيذ إرادته، فهو إمامهم وهم شيعته الأقربون.

«وكأنما وجد أهل الكوفة في علي عليه السلام بطلهم الذي طالما افتقدوه، وإمامهم الذي أرسلته العناية الإلهية إليهم، ليحقق أملهم الذي طالما داعب نفوسهم في دولة تعيد مجد الحيرة القديم، ويسجّلون بها في الإسلام نصراً نهائياً على أهل الشام أعدائهم القدامى في تلك المنافسة القديمة بين المناذرة والغساسنة... ثم اشتعلت نفوسهم لتحقيق هذا الأمل عندما رأوا الصراع قد انحصر بين أهل الشام، وأن علياً عليه السلام إنما يقود بهم غمرات هذا الصراع ليسجّل لهم نصراً على أعدائهم القدماء، ومن هنا تركزّت آمالهم في شخصه أول الأمر، ثم في أولاده من بعده، ونظروا إليه على أنه بطل الاستقلال السياسي لبلاد العراق»[2].

---

(١) ابن قتيبة/ الإمامة والسياسة ١/ ٢٣١.

(٢) يوسف خليف/ حياة الشعر في الكوفة/ ٥٨.

وهذا الرأي وإن كان فيه شيء من الصحة إلاّ أنه قد يمثل قِلّةً من أولئك الذين ينشدون النصر السياسي الموقت، أو يفكرون من خلال منظور إقليمي ذي جذور تاريخية موغلة في القدم، وهؤلاء هم الأقليّة الضئيلة التي لا تتسع ذهنياتها لآفاق المستقبل الاجتماعي المنشود، وعلى فرض وجود هؤلاء وأضرابهم فلم يكن هذا وحده مصدر ولاء الكوفة الشعبي لأمير المؤمنين عليه السلام ولا هو بذاته مسرح المدّ الجماهيري الذي حضي به أمير المؤمنين، بل يضاف إليه ـ وهو الأهم في الواقع العقائدي السليم ـ أنهم وجدوا بعلي عليه السلام الممثّل الشرعي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في رسالته، والمنظّر الحقيقي لتعاليم الإسلام المقرّرة، والأمل النابض العريض في تحقيق عدالة السماء في الأرض، والفردوس المفقود الذي يحنُّ له سوبرمان العواطف والعقول. فقد عركوا قبله جمهرة من الطغاة وولاة السوء كالوليد بن عُقبة بن أبي معيط، وسعيد بن العاص الأموي، حتى عاد السواد بستان قريش، والعراق ملك الأمويين، ووجدوا الأموال تحتجن من حلّها ومشتبهها، وتصرف في غير سبيلها وسهامها، وتأخذ عسفاً، وتملك قهراً، وتبذر بدداً، وأدرك أهل الكوفة أيضاً الأثرة بأبشع صورها، والإذلال بكل مظاهره، والاستغلال بعواصفه الهوجاء، والعصبية بإطارها الضيّق المتعنت، فما عليهم إلا أن يحتضنوا علياً من الأعماق، وأن يخلصوا له سِراً وعلناً، وأن تلتف حوله أصولهم وفروعهم، فيُمنح حباً صادقاً، وولاءً متطاولاً، وطاعةً غير محدودة، وهم يعلمون جيداً أن الخلافة إن فاتت علياً عليه السلام فمآلها إلى معاوية قطعاً، ومعاوية زعيم الطلقاء وأهل الشام، وعليٌّ الآن أمير المؤمنين وزعيم أهل العراق والحواضر الإسلامية بعامة. وكان لا بد للعامل الديني أن يقترب من العامل السياسي في اختيار ما فيه المصلحة العليا، فإذا أضفنا إلى هذا كله أن

في الكوفة قادة أمناء، ورجالاً أخلصوا في إيمانهم الذاتي، وشيعة لأمير المؤمنين عليه السلام لا تعدل به غيره، وجدنا أن الأطراف والمحاور بوشائجها المتداخلة تلتقي في إخلاد الكوفة لأمير المؤمنين بالضرورة. وما لهم لا يكونون كذلك، وهذه صفّين يسرّح إليها الإمام عليه السلام علية الكوفيين قادةً لا رعيّة، وأمراء لا سوقة، وزعماء لا سواداً، وعلي ينظر في هذا الكفاية في القيادة، والخبرة في الشؤون العسكرية، والقدرة المدرّبة على خوض الحرب الناجحة، ولئن كانت هذه الكفاية وتلك القدرة وهاتيك الخبرة تتوافر شرائطها في الكوفيين، فذلك أحب إليهم من أن تكون في عامة المسلمين.

والإمام في هذا يسبغ عليهم صفة الإعتداد السياسي كما يردّ إليهم الإعتبار العسكري، فقد كان المسؤول الأول عن قيادة الجيش في صفين مالك بن الحارث الأشتر وهو من أعيان الكوفة، وعلى الساقة شريح بن هاني وهو كوفيٌ عريق، وعلى الخيل عمّار بن ياسر وهو من أوائل الصحابة الذين نزلوا الكوفة فامتزجوا بأهلها وسوادها، وهو أول والٍ على الكوفة في الإسلام، وعلى المهاجرين والأنصار محمد بن أبي بكر، وهو من أحبّ الناس لدى الكوفيين، وعلى أهل البصرة عبد الله بن عباس، وهو ممن وفدوا على الكوفة مع أمير المؤمنين عليه السلام، وعلىٰ أهل الكوفة عبد الله بن جعفر الطيّار، وعلى القلب ولده الأكبر الإمام الحسن عليه السلام، هذا عدا رؤساء الكتائب، وأمراء السرايا، وصفوة الطلائع، وهؤلاء جميعاً شيعته وأنصاره وأهل بيته، فمن الطبيعي أن تحتفل بهم الكوفة لأنهم في السنام منها لا الغارب، ومن الطبيعي أيضاً أن يمزج عليٌ عليه السلام من روحه الفياضة ألقاً يجعلهم جميعاً في وحدة قيادية متكاملة يشد بعضها بعضاً.

ولقد تجلّى ولاء الكوفة العملي في عدد الجيش الذي سار منها إلى صفّين، فقد كان هذا الجيش منتظماً في سبعة وخمسين ألفاً من الكوفيين، ومشتملاً على ثمانية آلاف من مماليكهم ومواليهم، كما ضمّ صفوفه ثلاثة آلاف ومائتين من البصريين.[١].

علماً بأن عدد المقاتلين في البصرة آنذاك كان ستين ألفاً عدا أبناءهم ومواليهم، ولكنهم لم يستجيبوا للإمام استجابة الكوفيين[٢].

وكانت الكوفة مادة الفتح الإسلامي، وحاضرة الجيش العربي الذي زحف على شرق الدولة فأخضع الفرس وسواهم للإسلام، وأنزلهم على حكم القرآن، وكان عمر بن الخطّاب (رض) محتفياً بهم ومؤكداً عليهم، وناظراً إلى عدتهم وعديدهم، فأمر حذيفة بن اليمان (رض) أن يسير بأهل الكوفة إلى «نهاوند» فسار بهم سيراً قيادياً حثيثاً حتى تم له الفتح، وكان فتح نهاوند يسمى «فتح الفتوح» كما ذكر ذلك الطبري.

وتتابعت الأحداث سراعاً، فوجدت الكوفة نفسها في عهد عثمان بن عفان (رض) تدفع ضريبة الدم في معارك الفتح والتحرير، ولا يدفع لها أجر ذلك احتراماً أو عطاءً أو مميزات، وكأن نجمها قد قرب من الأفول، حتى إذا اتخذها عليٌّ عليه السلام عاصمةً له، شعر الكوفيون أن علياً عليه السلام يجدد مجدهم الغابر، ويحتفي بتأريخهم المعاصر، ينظر إلى الماضي المجيد، ويحتفل بالحاضر المشرق، فهبّوا معه على بكرة أبيهم قبل تفرق الأهواء وتبدد الاجتماع، فكانت الحملة كبيرة جداً، وكانت البعوث والسرايا تتابع متجهة نحو صفين، وقامت الحرب ضارية

(١) ظ: ابن قتيبة/ الإمامة والسياسة ١/ ٢٣١.
(٢) ظ: المصدر نفسه ١/ ٢٣٠.

هائلة، وصدق الناس القتال، وقرب النصر، وكاد معاوية ينهزم، فأشرأبت الخديعة، واستوسق المكر في رفع المصاحف بعد هن وهن، حينذاك انشقّت الكوفة على نفسها، وبدأ صراعها داخلياً بمرارة، واندلع الشر مستطيراً، وأقبلت الفتن عليها كقطع الليل المظلم، فتخاذل المقاتلون الأشدّاء، وانقلب الأولياء إلى أعداء، فكانوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً، وكانت فتنة الحكمين الضاليّنَ وقد انحازا في التحكيم، وتنكبا الطريق السوي، وكادا يعصفان بالمجد الإسلامي العظيم، وأوشك الجميع على ذلك.

لقد جاء الحكمان الضالآن بافتراء ما بين أيديهم وورائهم، اتباعاً للهوى وابتغاء للفتنة وطلباً للمآرب، وضعا ما رفع الله تعالى، ورفعا ما وضع الله، فاشتد الخلاف بين الناس، واختلط الحابل بالنابل، هنالك انتدب أمير المؤمنين عليه السلام ولده الإمام الحسن ليلقي الضوء على ما توصل إليه الحكمان زوراً وخداعاً ومواربة، واعتلى الإمام الحسن عليه السلام أعواد المنبر، وقلبه يقطر دماً على المصير المؤلم الذي سيجرّ إلى ويلات يعلم الله وحده مداها، وخطب في الناس قائلاً:

«أيها الناس، قد أكثرتم في هذين الرجلين، وإنما بُعثا ليحكما بالكتاب على الهوى، فحكما بالهوى على الكتاب، ومن كان هكذا لم يُسَمَ حكماً، ولكنه محكوماً عليه، وقد أخطأ عبد الله بن قيس (أبو موسى الأشعري) إذ جعلها لعبد الله بن عمر؛ فأخطأ في ثلاث خصال:

واحدة، أنه خالف أباه إذ لم يرضه لها، ولا جعله من أهل الشورى. وأخرى، أنه لم يستأمر الرجل في نفسه، ولا علم ما عنده من ردّ أو قبول. وثالثها، أنه لم يجتمع عليه المهاجرون والأنصار الذين يعقدون الإمارة، ويحكمون بها على الناس.

وأما الحكومة، فقد حكّمَ النبي ﷺ سعد بن معاذ في بني قريضة، فحكم بما يرضي الله به، ولا شك لو خالف لم يرضه رسول الله ﷺ [1].

وأنت ترى أن الإمام الحسن عليه السلام ـ في هذه الخطبة البليغة الموجزة ـ، قد احتجّ على القوم بمنطق السياسة الرسمي وبلغة القوم.

وقد احتجّ لنفسه ولدينه بالمنطق الديني السليم، فبيّن أن المختار للحكومة عليه أن يحكم في الكتاب متّبعاً إياه، مجانباً لهواه، وكان الحكمان قد قدّما الهوى على الكتاب فلا حكم لهما:

١ ـ إن الحاكم يجب أن يحكم بالحق، فإن خالفه فباطل ما حكم به.

٢ ـ إن أبا موسى الأشعري قد اتبع هواه، وغدر بالجهة الممثل لها، ورشح عبد الله بن عمر، فأخطأ في ثلاث خصال:

الأولى: أن ابن عمر لم يجعله أبوه في رجال الشورى، ولا رآه أهلاً لذلك.

الثانية: أن أبا موسى لم يستأمر ابن عمر في نفسه راضياً بذلك أو رافضاً.

الثالثة: أنه لم يجتمع عليه أهل الحل والعقد من المهاجرين والأنصار، إن كانت الخلافة فيما زعمتم يعقدها أولئك.

وأما تحكيم الرجال فقد حكّم النبي ﷺ سعد بن معاذ الأنصاري في بني قريضة، فحكم بحكم الله من فوق سبع أرقعة كما في

(١) ابن قتيبة/ الإمامة والسياسة ١/ ١٤٤.

الرواية. واستمع لهذا الحجاج النابض من استمع، فنأى عنه من نأى بغير حجة، واقترب منه من اقترب ومعه الدليل.

من خلال هذا المناخ، واهتزاز النفوس تردداً وخيبة واضطراب الأمر شدة ووقعاً، نجحت بادرة الخوارج فكان بلاؤها عقيماً، وعناؤها كثيراً، أثارت القلق في روح الدولة، وأشاعت الفزع في أرجائها، وعمدت إلى التخريب في سلطانها، وأصحرت بمجموعة من الإجراءات الدموية ارتفعت إلى مستوى الكوارث الاجتماعية، وقد أوشك الفساد أن يعمّ الأرض، فكانت معركة النهروان فرقانَ ما بين الحق والباطل، وكانت فتنة الخريّت وأصحابه ثالثة الأثافي بآثارها المدمّرة حتى ألحقها الإمام عليه السلام هزيمة نكراء، إلا أن هذه الفتن لم تنم إلا لتستيقظ، ولم تهدأ إلا لتضطرب، فمني الجيش العراقي بتمزيق أوصاله، وعادت الجماعة المؤمنة الصامدة تعاني من الإِنفصام في عرى الوحدة الوطنية، وعاد الصراع داخلياً، وإذا بدأ الصراع الداخلي بدأت الهزائم تترى، والمهالك تتسع، والآراء تتشقق، والأهواء تتنازع.

وقف الإمام الحسن عليه السلام على هذا الكيان المتداعي في تآكله، ونظر نظرة الفاحص الخبير إلى هذه المضاعفات الخطيرة، وأدرك جملة المآسي في مخلفات صفيّن والنهروان، فعمد إلى تهيئة المناخ الصالح لإنقاذ أكبر عدد ممكن من حيرة الضلال، فأمر بالمعروف مجاهراً، ونهى عن المنكر متحاملاً، وخفّ إلى الإصلاح مبادراً، وتوّج مفرق التأريخ الرسالي بكوكبة من الخطب العصماء، أبلغ فيها بالنصح، وأعذر بالتوجيه، بمبادرة ذاتية منه تارة، وبإشارة من أبيه أمير المؤمنين عليه السلام تارة أخرى، حتى انبلج الصبح وأسفر لذي عينين، متمخضاً عن توليه للمسؤولية بتخطيط جديد أشرف عليه أمير المؤمنين بنفسه، مباركاً

قيادته الفتية، ومؤكداً موقعه المباشر من الأحداث، فقد أمره أمير المؤمنين عليه السلام أن يخطب الناس في جامع الكوفة، فارتقى المنبر وقال:

«الحَمدُ للهِ الواحدِ بغيرِ تَشبيهٍ، والدائمِ بغير تكوينٍ، القائمِ بغير كُلفةٍ، الخالقِ بغيرِ منصبةٍ، الموصوفِ بغير غايةٍ، المعروفِ بغير حدودٍ، لم يَزَلْ قديماً في القدم، رُوعِتْ القلوبُ لهيبتِهِ، وذُهِلَتْ العقولُ لِعزّتِهِ، وَخَضَعَتْ الرِقابُ لقُدرَتِهِ، فليسَ يَخْطُرُ على قلبِ بشرٍ مبلغُ جَبروته، ولا يَبلغُ الناسُ كُنهَ جلالِهِ، ولا يُفصِحُ الواصفون منهم كُنْهَ عظمته، ولا تَبلغُهُ العلماءُ بألبابها، ولا أهلُ التفكيرِ بتدبيرِ أمورِها، وأعَلَمَ خَلقِهِ به الذي بالحدِّ لا يصفُهُ، يُدرِكُ الأبصار وهو اللطيف الخبيرُ.

أَمّا بعدُ: فإنَّ علياً بابٌ من دَخَلَهُ كانَ مؤمِناً، ومَنْ خَرَجَ منه كانَ كافِراً، أقولُ قَولِي هذا وأستغفرُ اللهَ العظيمَ لي ولَكَم»[1].

وهذه الخطبة تتحدث بإيجاز مكثف عن تنزيه الله، وقدرته في الإبداع، وإحاطته بكل شيءٍ دون حدود، وتناوله لكل شيء دون مشقّة، تنقاد القلوب لهيبته، وتخضع الرؤوس لقدرته، فهو أهل الكبرياء والجبروت، لا تدرك عظمته، ولا يحاط بكنهه، فهو حقيقة فوق حقائق الأشياء، لا تبلغه العلماء، ولا يصل إليه التفكير مع حسن التدبير، ولا تدركه الأبصار فليس كمثله شيء، وهو اللطيف الخبير وكفى.

بعد هذا التقديس لله تعالى، عطف على قضية الولاية الإلهية لأمير المؤمنين عليه السلام، فاعتبره الباب الخاص لدخول أهل الإيمان، فمن خرج منه عدّ كافراً، وهذا هو القول باشتراط الولاية العامة لأمير المؤمنين.

---

(١) المجلسي/ بحار الأنوار/ ٤٣/ ٣٥١.

وتدافعت أمواجُ الاِهتزاز في الضمير العربي المسلم، ورانت سحبُ الضلال والتمويه في الأفق المبين، وتحرك الرتلُ الخامسُ مشككاً بمنزلة حَمَلَةِ الإسلام، وهَدَر فنيقُ الجدلِ المحموم، واتسمت الحياة العقلية بالحِجاج والمناظرة، وتعطل الفكر القائد، واتبعت الأهواء المنحرفة فأوعز إليه أبوه أمير المؤمنين بأن يخطب في الناس، فارتقى المنبر، وقال:

«أيّها الناسُ، اعْقِلوُا مِنْ رَبكُمْ، إنّ الله عَزّ وَجَلّ اصطفى آدم ونُوحَاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض، والله سميعٌ عليم، فنحنُ الذُريّةُ من آدم، والأُسرة من نُوح، والصفوةُ مِنْ إبراهيمَ، والسُلالةُ من إسْماعِيلَ، وآلُ محمد ﷺ، نحنُ فيكُمْ كالسماء المرفوعة والأرض المدحوَّة، والشمس الضاحية، وكالشجرة الزيتونةِ لا شرقية ولا غربية، التي بورك زيتها، النبيّ أصلُها، وعليٌّ فرعها، ونَحنُ وَالله ثمرُ تلك الشجرة، فَمَنْ تَعَلَّقَ بغُصنٍ مِنْ أغصانها نجا، وَمَنْ تخلّفَ عنها فإلى النارِ هَوى..»[1].

واحتفل عصره ببدايات علم الكلام الأولى، وكان من أهم مسائله مسألة الجبر والتفويض، وهما من مبتكرات السياسية الأموية، ومسلطات الحكم الطاغوتي، فالحكم الظالم يتكأ على حجج واهية لتمرير مخططاته المنحرفة عن الإسلام بغطاء جديد تنسجه أيدي العملاء الرسميين باسم العلم، فتتذرع بذلك لظلم العباد وسلب البلاد، وقد رفع أهل البصرة للإمام الحسن عليه السلام رسالة يطلبون فيها رأيه بمسألة القدر والجبر، وما حولها من خيوط مشتبكة، فأجابهم الإمام الحسن عليه السلام بقوله: «وَمَنْ لَمْ يُؤمِنْ بِالله وَقضائِهِ وقدَرِهِ فَقَدْ كَفَرَ، وَمَنْ

(١) المجلسي/ جلاء العيون ١/ ٣٢٨.

حَمَلَ ذَنْبَهُ عَلَى رَبِهِ فَقَدْ فَجَرَ، إنَّ الله لا يُطاعُ اسْتِكراهاً، ولا يُعصىٰ لِغَلَبَةٍ، لأَنَّهُ المَلِيكُ لِما مَلَّكهُمْ، والقادرُ على ما أَقْدَرَهُمْ، فإن عَمِلُوا بالطَاعةِ لَمْ يَحُلْ بَينَهُمْ وَبينَ ما فَعَلوا، فإذ لم يَفْعَلُوا فَلَيسَ هُوَ الذّي أَجْبَرَهُمْ عَلَى ذلِكَ، فَلَوْ أَجْبَرَ الله الخَلْقَ عَلى الطاعة لأَسْقَطَ عنهم الثواب، وَلَوْ أَجْبَرَهم عَلَى المعَاصِي لأسقَطَ عَنْهُمْ العِقابَ، وَلَوْ أَهْمَلَهُمْ لكانَ عَجْزَاً في القُدْرَةِ، وَلَكِنْ لَهُ فِيهِمْ المَشِيئةُ التي غيَّبَها عَنْهُمْ، فإن عَمِلُوا بالطاعاتِ كانتْ لَهُ المِنَّةُ عَلَيهِمْ، وإن عَمِلوا بالمعْصِيةِ كَانت الحُجَةُ عَلَيهم»(١).

وقد فصل الإمام عليه السلام في هذه الرسالة موضحاً الأحكام الآتية:

١ ـ من لم يؤمن بقضاء الله وقدره فهو كافر.

٢ ـ من حمل ذنبه على الله فهو فاجر.

٣ ـ إن طاعة الله طوعية لا استكراهية، ومعصيته لا عن غلبة.

٤ ـ إن الله هو المليك القادر، وهو واهب الملك والقدرة للناس.

٥ ـ من أراد الطاعة فعل. بمحض إرادته، ومن ردّها فليس الله الذي أجبره.

٦ ـ لو أجبر الله الناس على شيء لأسقط الثواب على الطاعة، والعقاب على المعصية.

٧ ـ لو يدع الله الناس هملاً دون ضوابط، فالإهمال دليل العجز.

٨ ـ لله المشيئة مغيبة عن الناس فإن أطاعوا فله المنّة، وإن عصوا

---

(١) أحمد زكي صفوت/ جمهرة رسائل العرب ٢/ ٢٥.

فعليهم الحجة وهذه الفقرات مباحث كلامية مستطيلة تجدها في موضعها في كتب المقالات الإسلامية، وضع الإمام نقاطها مستدلاً، وحصرها مستوعباً، ومرض أمير المؤمنين عليه السلام، فدعا ولده الإمام الحسن عليه السلام وأمره أن يصلي بالناس الجمعة، فصلاها، وجاء في إحدى خطبتيها قوله:

«إنَّ الله لم يَبْعَث نَبياً إلاّ اختارَ لَهُ نَفْساً وَرَهْطاً وَبَيْتاً، فَوَ الذي بَعَث مُحَمَداً بالحَقِّ لا يَنْتَقِصُ مِنْ حَقِّنا أهلَ البيت أَحَدٌ إلاّ نَقَصَهُ الله من عَمَلِهِ مِثْلَهُ، ولا يكونُ عَلَينا دَولةٌ إلاّ وَتكون لَنا العَاقِبَةُ، وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِين»[1].

وهذه الخطبة باختصارها الرائع تستطلع اختيار أهل البيت عترة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وتشعر الناس أنهم رهطه وأهله المقربّون، وتؤكد أن من انتقص من حقهم شيئاً نقص ذلك من عمله، ولا تدال عليهم دولة إلا كانت العاقبة لأهل البيت عاجله أو آجله.

وحينما أصيب الضمير الإنساني في الجزيرة العربية بهزة عنيفة، وتفرقت السبل بأبناء الدين الواحد، وتحكمت الشُبهُ متدافعة من هنا وهناك وحامت حول القلوب الواهنة، وتعددت المقالات في الحق والباطل ومذاهبَ شيعاً، وَقَفَ الإمام الحسن عليه السلام خطيباً في الناس، ليضع بصماته بارزة في سنن الطريق الأمثل فقال:

«نَحْنُ حِزبُ الله المُفلِحُون، وعِتْرَةُ رَسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم المُقَرَّبونَ، وَأَهْلُ بيته الطاهرونَ الطَيبّونَ، وأحَدُ الثِقْلَينِ اللَذين خَلَّفهما رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم، والثاني: كِتابُ الله فيه تَفْصِيلُ كلِّ شَيءٍ، لا يَأْتِيهِ الباطلُ مِنْ

(١) المسعودي/ مروج الذهب ٢/ ٣٠٦.

بين يَديهِ وَلا مِنْ خَلفِهِ، وَالمُعوّلُ عَلَيهِ في كُلِّ شَيءٍ، لا يُخْطِئُنا تَأوِيلُهُ، بَلْ نَتيَقنُ حقَائِقَهُ، فأطِيعُونَا فَإطَاعَتُنَا مَفرُوضَةٌ إذْ كانَتْ بِطاعةِ الله وَالرَسُولِ وَأُلي الأمرِ مَقْرونةً:

﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[1] ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾[2] وأُحذِّرُكُمْ الإصْغاءَ لِهِتاف الشَيطانِ إنه لَكُمْ عَدوٌ مبينٌ، فتكونوا كأوليائه الذينَ قال لهمْ:

﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾[3] فيلْقُونَ للرماحِ أزْرَاً، وللسيوفِ جزراً، وللعَمْدِ خطأً، وللسهام غَرَضاً، ثمَّ لا يَنْفَعُ نَفْسَاً إيمانُها ما لم تكُنْ آمَنَتْ قَبْلُ، أَوْ كَسَبَتْ في إيمانِها خَيراً»[4].

وما قرأته آنفاً، يعطيك الفكرة الصالحة في اضطلاع الإمام الحسن عليه السلام بالمسؤولية كاملة، ويكشف لك عن مدى تخطيطه الإيدولوجي في التأكيد على الكتاب والعترة باعتبارهما الثقلين الذين خَلّفهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الناس على روايتين نبويتين:

١ ـ «إني مُخَلِّفٌ فيكُمْ الثِقْلَينِ ما إنْ تَمسَكتُمْ بهمَا لن تَضِلّوا كتاب الله وعِترتي أهلَ بَيْتي»[5].

---

(١) سورة النساء/ ٥٩.

(٢) سورة النساء/ ٨٣.

(٣) سورة الأنفال/ ٤٨.

(٤) باقر شريف القرشي/ حياة الإمام الحسن ١/ ٣٦٣.

(٥) الشيخ الطوسي/ التبيان في تفسير القرآن ١/ ٣.

٢ ـ «إنِّي تركت فِيكم ما إنْ أَخَذتم بِهِ لن تَضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي»[١].

وشأن هذه الخطبة شأن مثيلاتها السابقة: إقامة لدلائل الحق، وبرمجة لحياة المسلمين، استلهام لمسيرة أهل البيت، اعتداد بالوعي الرسالي، الكشف عن معالم الطريق. حتى إذا ذهب أمير المؤمنين شهيد عظمته، أوصى إليه بالإمامة، وعهد إليه الخلافة بإجماع الإمامية وجمهرة من الجمهور، وأشهد على ذلك الإمام الحسين ومحمد ابن الحنفية وجميع ولده وأهل بيته، وزعماء الكوفة، ومن معه من المهاجرين والأنصار، وأوصاه بالوصية الآتية:

«أُوصيكَ ـ أي بُنيّ ـ بِتَقَوىٰ اللهِ، وإقامِ الصلاةِ لوقتِها، وإيتاءِ الزكاةِ عِندَ مَحَلها، وحسُنِ الوُضوءِ، فإنه لا صلاةَ إلا بِطَهُورٍ، وأوصيكَ بِغَفْرِ الذَنبِ، وكَظْمِ الغَيظ، وَصِلَةِ الرَحم، والحِلْم عَن الجاهل، والتفقهِ في الدِينِ، وَالتَثبتِ في الأَمر، والتعَاهُدِ للقرآنِ، وَحُسنِ الجوار، والأمرِ بالمعروفِ، والنهي عن المُنكَرِ، واجتنابِ الفواحشِ»[٢].

بهذه الوصية الجامعة لشؤون الدين وفرائض الإسلام ومكارم الأخلاق، تسلَّمَ الإمام أبو محمد الحسن بن علي عليه السلام قيادة الأمة بعد أبيه.

---

(١) ابن الأثير/ جامع الأصول ١/ ١٨٧.

(٢) ابن الأثير/ الكامل في التاريخ ٣/ ١٧٠.

الإمامَ الحسنُ يَتَسَلَّمُ قِيادَة الأُمَةِ

استشهد أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في الحادي والعشرين من رمضان عام أربعين من الهجرة، وقد أوصى بالخلافة للإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ وقد تمّت له البيعة صبيحة ذلك اليوم الذي استشهد فيه أبوه، وأقبل عليه الناس بالبيعة عن رضا ومعرفة. وشمّر الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ عن ساعديه، وتأهب للأمر عازماً متوكلاً، نافذ البصيرة، ثبت الجنان، ورقي المنبر في الكوفة، خطب الناس قائلاً:

«أيها الناس، مَنْ عَرَفَني فَقَدْ عَرَفَني، وَمَنْ لم يَعرفني فأنا الحَسَنُ بنُ عليّ، وأنا ابنُ النبيِّ، وأنا ابنُ الوَصيِّ، وأنا ابْنُ البَشيرِ النَذير، وأنا ابن الداعي إلى الله بإذنه، وأنا ابن السراج المُنيرِ، وأَنَا مِنْ أَهْلِ البيتِ الذي كَانَ جِبْرَائيلُ يَنْزِلُ إلينا، وَيَصعَدُ مِنْ عِندنا، وأَنَا مِنْ أَهْلِ البَيتِ الذينَ أَذْهَبَ الله عَنْهُمْ الرجْسَ وَطَهّرهُم تَطهِيراً، وأَنَا من أهل بَيتِ افتَرَضَ الله مَوَدّتَهم عَلى كُلِّ مُسْلِم، فَقَال تبارك وتعالى لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾[1] فَاقتراف الحَسَنَةِ مَودّتُنا أَهْلَ البيتِ»[2].

وقد أبان الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ بإيجاز ملامح شخصيته النسبية والدينية والفضائلية، فهو ابن النبي، وهو ابن الوصي، وقد ورث

---

(١) سورة الشورى/ ٢٣.

(٢) باقر شريف القرشي/ حياة الإمام حسن بن علي ٢/ ٣٢.

شمائلهما، ونَهَضَ بخصائصهما، وهو ابن البشير النذير الداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير، وهو على هذا النهج وفي أعماقه، وعلى السبيل ذاته، يهبط عليهم جبرائيل، وقد طهّرهم الله تطهيراً، فأذهب عنهم الرجس، وفرض مودَّتهم، وجعلها من أعظم الحسنات، إذن هو الوريث الشرعي لكل المميزات الخاصة بأهل البيت عليهم السلام وإذا كان الأمر كذلك فهو الجدير بالإمامة دون البدائل الأخرى، يحمل ما لا يستطيع أحد حمله، فلا تصلح الخلافة إلا له، ولا تستقيم إلا به، وهي دعوة إيجابية إلى مبايعته بمنطق الاحتجاج الإيجابي، ضمّنه حمل الناس على بيعته طواعية، فأقبلوا على البيعة زرافات ووحدانا، وقالوا: «ما أحبَّه إلينا، وأوجب حَقِّهِ عَلينا، وأحقَّه بالخلافه»[1] وانثال المسلمون مبايعين له على كتاب الله وسنة نبيه. وكانت بيعة شرعية شارك فيها بقية المهاجرين والأنصار، وممثلو الأقاليم والقصبات، وجماهير العراقيين، فكانت البيعة رضاً للخاصة، وغبطة للعّامة؛ ويقال أن أول من بايعه زعيم الأنصار قيس بن سعد بن عبادة قائلاً:

«ابْسِطْ يَدَكَ أبايعك على كتاب الله وَسُنةِ نَبيهِ وقتال المحلّين».

فَابتدره الإمام الحسن عليه السلام قائلاً:

«عَلى كِتاب الله وَسُنةِ نَبيه، فإنهما يأتيان على كلِّ شَرْطٍ»[2].

وكانت الطبيعة الثورية لقيس بن سعد بن عبادة تدعو إلى هذه اللهجة الصارمة، وكانت حنكة الإمام الحسن عليه السلام تدعو إلى هذه النبرة الحكيمة دون شرط إضافي، فللناس أن تشير على الإمام، وللإمام أن يرى، فيقبل ما يشاء، ويرفض ما يشاء، وليس لها أن تشترط،

---

(١) الأصبهاني/ مقاتل الطالبيين ٣٤.

(٢) ابن الأثير/ الكامل في التاريخ ٣/ ١٧٤.

وكتاب الله وسنة نبيه يغنيان عن الشروط كافة، فهما وحدهما المعيار الإسلامي الحقيقي ليس غير.

وقد وهم أستاذنا العظيم الدكتور طه حسين بقوله:

«ومهما يكن من شيء، فلم يعرض الحسن نفسه على الناس، ولم يتعرض لبيعتهم، وإنما دعا الناس إلى هذه البيعة قيس بن سعد بن عبادة، فلبّى الناس واستجابوا، وأخرج الحسن فأُجلس للبيعة»[١].

وليس هنالك دليل نصيٌّ أو تأريخي على هذا القول، فلم يُكره الإمام الحسن عليه السلام على البيعة، وهي حقه الطبيعي المفروض تكوينياً، وإنما تعرّض لها مجاهراً في معرض بيان خصائصه الكبرى في أول خطاب له بعد دفن أبيه مباشرة، وكان الحسن في المسجد وتمت البيعة له، ولم يُخرج إليها إخراجاً، وكان أول الداعين إليها في كل النصوص التأريخية الموثوقة هو عبد الله بن عباس حبر الأمة، وليس قيس بن سعد، نعم: قيس كان أول من بايع على ما رأيت.

وكلما يقال في هذا الموضوع هو ما ذكره ابن قتيبة، أن الإمام الحسن عليه السلام كان يتوجه إلى المبايعين بقوله: «تبايعون لي على السمع والطاعة، وتحاربون من حاربت، وتسالمون من سالمت»[٢] وليس في هذا التوجه إكراهٌ له على البيعة، وليس فيه إرادة السلم على الحرب، فهو يشتمل عليهما معاً، وإن كان قد يوحي بالسلم، ولا مانع من قبوله في هذه الحدود، فالإمام يتصرف بالأمر في ضوء تكليفه الرسالي.

وتناهت الأخبار إلى معاوية بهذه البيعة، فتملكه القلق وساوره

---

(١) طه حسين/ الفتنة الكبرى ٢/ ١٧٨.

(٢) ابن قتيبة/ الإمامة والسياسة ١/ ١٧٠.

الفزع، فالحسن ابن أبيه، وعسى أن تعود الحرب جذعةً، وكان قد كتب له بها الخذلان في صفين، فأنقذته خدعة رفع المصاحف، وازداد توجسه بعد علمه أن مشرق الدولة قد بايع للحسن، وأن مكة والمدينة قد استجابتا لهذه البيعة، وفيهما ولاة علي من ذي قبل، وأن البصرة قد بعثت بالبيعة، وفي ضوء ذلك بدأ تفكير معاوية مكثفاً يقلّب فيه كل الوجوه الممكنة لقلب ظهر المجّن، واهتدى للعبة شراء الذمم والضمائر، والناس عبيد الدنيا، فما عليه إلا أن يستميل زعماء القبائل في المصرين بالمال عاجلاً، والتلويح بالولاية آجلاً، فتتجاوب معه أصداء المطامع وذو المآرب، توصل إلى ذلك وأتبعه بحملات الفزع والإرهاب، فبث العيون والأرصاد تباكره بالأخبار، وتزوده بأشتات الأنباء، وقد نفّذ كل ذلك بمكر ودهاء عظيمين، فوصلت الأموال والألطاف لطبقة الانتهازيين، ووزعت المناصب الغيبية على وجوه الناس، واستهوت الأماني عشّاق المصالح الأنية، وذهبت العيون في مهماتها التجسسية، وبعثت السرايا تجوس خلال الديار، فقد طرق الكوفة عميل لمعاوية من حميّر يلتقط له الأخبار، ويرغّب الناس به، ويصرف قلوبهم عن الإمام الحسن، ومعه البدر والصرار والأُعطيات، وبدأ بتنفيذ مهمته هذه فألقي عليه القبض، ونال جزاءه، فقد أمر الإمام عليه السلام بقتله فقتل[1].

وكتب الحسن إلى معاوية ينذره ويحذره من هذا المسلك المشين، وينعي عليه شماتته باستشهاد أمير المؤمنين:

«أما بعد فَإنَّكَ دسست الرجال للاحتيال والاختيال، كأنك تُحِبُّ اللقاء، وما أَوْشَكَ ذَلِكَ فَتَوَقَعْهُ إنْ شاءَ الله، وبلغني أنك شَمتّ بما لم

(١) ظ: المفيد/ الإرشاد/ ١٧٠.

يشمت به ذوو الحجى، وإنما مثلك في ذلك كما قال الأول:

فإنّا وَمَنْ قد ماتَ مِنّا لكالذِي يَرُوُحُ ويمُسي في المَبيتِ لِيَغْتَدِي
فَقُلْ لِلذي يَبغي خِلافَ الذي قَضَى تجَهَّزْ لأُخرى مِثلِها فكَأَنْ قدِ[1]

وكما بعث معاوية بعميل إلى الكوفة فقد بعث بعميل آخر إلى البصرة من (بني القين)، فألقي عليه القبض، وجيء به مخفوراً إلى عامل الإمام على البصرة، وهو عبد الله بن عباس، فأمر بقتله فقتل، وكتب إلى معاوية:

«أما بعد: فإنك ودسك أخا بني القين إلى البصرة تلتمس من غفلات قريش بمثل ما ظفرت به من يمانيتك لكما قال أمية بن أبي الصلت:

لَعمرُك إنّي والخزاعي طارقاً كنعجة غادَتْ حَتْفَها تَتَحَفَرُ
أثَارَتْ عَليها شَفْرَةً من كراعِها فَظَلّت بها من آخر اللّيل تُنْحرُ
شَمَتَّ بقَومٍ من صَدِيقك أهلكوا أَصَابَهُمْ يَوْمٌ مِن الدَهّر أصفرُ[2]

وتولى معاوية إجابة الكتابين بجواب مهلهل لا يتسم بالموضوعية، ولا يقوم على أساس متين، مما دعا ابن عباس أن يكتب للإمام الحسن عليه السلام يستنجزه به الحرب، ويحرضه على القتال، ويكشف النقاب عن العوامل المؤدية إلى خذلان الجيش لأمير المؤمنين عليه السلام من ذي قبل، ويشير عليه بآراء سياسية قد تخالف المنهج العام لأهل البيت عليهم السلام إلاّ أن هذه الرسالة بتخطيطها الأولي كانت عاملاً مساعداً دعا إلى استعداد الإمام لخوض الحرب وتهيأة

---

(١) المفيد/ الإرشاد/ ١٧٠.

(٢) الأصبهاني/ الأغاني ٨/ ٦٢.

متطلباتها، قال ابن عباس:

«أما بعد: فإن المسلمين ولّوك أمرهم بعد علي عليه السلام فشمّر للحرب، وجاهد عدوك، وقارب أصحابك، واشترِ من الضنين دينه بما لا يثلم لك دنياه، وولِّ أهل البيوت والشرف تستصلح به عشائرهم، حتى يكون الناس جماعة، فإن بعض ما يكره الناس ما لم يتعد الحق، وكانت عواقبه تؤدي إلى ظهور العدل، وعزّ الدين خيرٌ من كثير مما يحبّه الناس إذا كانت عواقبه تدعوا إلى ظهور الجور وذُلِّ المؤمنين وعزّ الكافرين، واقتدِ بما جاء عن أئمة العدل، فقد جاء عنهم أنه لا يصلح الحرب خدعة، ولك في ذلك سعة إذا كنتَ محارباً ما لم تبطل حقاً.

واعلم ان علياً أباك إنمّا رغب الناس عنه إلى معاوية أنه آسا بينهم في الفيء، وسوّى بينهم في العطاء، فثقل عليهم. واعلم أنك تحارب من حارب الله ورسوله في ابتداء الإسلام حتى ظهر أمر الله، فلما وُحّدَ الربُّ، ومحق الشرك، وعزّ الدين، أظهروا الإيمان، وقرأوا القرآن مستهزئين بآياته، وقاموا إلى الصلاة وهم كسالى، وأدّوا الفرائض وهم لها كارهون، فلمّا رأوا لا يعزّ في الدين إلاّ الأتقياء الأبرار توسموا بسيما الصالحين، ليظّن المسلمون بهم خيراً، فما زالوا بذلك حتى شركوهم في أماناتهم، وقالوا حسابهم على الله، فإن كانوا صادقين فإخواننا في الدين، وإن كانوا كاذبين كانوا بما اقترفوا هم الأخسرين، وقد منيتَ بأولئك وبأبنائهم وأشباههم، والله ما زادهم طول العمر إلاّ غياً، ولا زادهم ذلك لأهل الدين إلا مقتاً، فجاهدهم ولا ترضَ دنية، ولا تقبل خسفاً، فإن علياً أباك لم يجب إلى الحكومة حتى غُلبَ على أمره، فأجاب وإنهم يعلمون أنه أولى بالأمر إن حكموا بالعدل، فلما حكموا بالهوى رجع إلى ما كان عليه حتى أتى عليه أجله، ولا تخرجن من حق

أنت أولى به حتى يحول الموت دون ذلك والسلام»[1].

هذه الرسالة وإن لم تغير من سياسة الإمام الذاتية، إلا أنها أوقفته على رأي أنصاره في خوض الحرب، وشرحت أبعاد السلوك الأموي ما بعد الإسلام، وكشفت عن وجه النفاق المقنّع الذي عليه الأمويون، فقد أظهروا الإيمان رياءً، وقرأوا القرآن استهزاءً، وقاموا إلى الصلاة كسالى، وترسموا سيماء الصالحين ظاهراً ليخدعوا الجمع المسلم، وقد طلبت الرسالة من الإمام عليه السلام جهاد هؤلاء وكلمته هي العليا، فأراد الإمام الاعتذار، واستطلاع كيد معاوية، ومعالجة الموقف معه بالتي هي أحسن أولاً، وهو يقدّم بين يديه الحقائق ناصعةً، ويسوغ الأدلة دامغةً، عسى أن يرعوي أو يستفيق من غفلته، فسلسل له الأحداث تباعاً برسالة مع مبعوثين له، جاء فيها:

«من عبد الله الحسن أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان: أما بعد، فَإِنَّ الله بَعَثَ مُحَمداً صلى الله عليه وآله وسلم رَحْمَةً للعالمين، فَأظهرَ بِهِ الحَقَّ، وَقَمَعَ الشرك، وأعزّ به العَرَبَ، وشرّفَ به قُريشاً خاصة، فَقَالَ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾[2] فلمّا توَفّاه الله تَنازَعَتِ العَرَبُ الأَمْرَ بَعْدَهُ، فَقَالَتْ قريش: نَحْنُ عَشيرَتُهُ وَأَوْلِياؤُهُ فَلاَ تُنازِعُونَا سُلطانَهُ، فَعَرفَتِ العربُ لِقُريش ذَلِكَ، وجاحَدَتنا قُريشٌ ما عَرَفَت لها العَرَبُ، فهيهات ما أَنْصَفَتنا قُريش، وَقَدْ كَانوا ذَوي فَضيلةٍ في الدين، وَسابِقَةٍ في الإِسْلاَم، وَلا غُرو إلاّ مُنَازَعتك إيانّا الأمر بِغير حَقٍّ مَعْروف، ولا أَثَر في الإسلام مَحْمود، فالله المَوعِدُ، نَسألُ الله مَعْرُوفَهُ أَنْ لا يُؤتينَا في هذه الدُنيا شيئاً ينقصُنا عِندَهُ في الآخرة. إنَّ علياً لمّا توَفّاه الله وَلاّني المُسلِمُونَ الأمرَ بَعْدَهُ،

---

(١) ابن أبي الحديد/ شرح نهج البلاغة ٤/ ٨.

(٢) سورة الزخرف/ ٤٤.

فاتَقِ الله يا مُعَاوِيةُ، وأنظرْ لأمَةِ مُحَمدٍ ﷺ ما يحقن به دِماءَها، وتُصْلِحُ بِهِ أمْرَهَا، والسلام»[1].

فما كان من معاوية إلا أن ردّ ذلك بأسلوبه في المكر والنكر والخداع والتضليل، وإظهار اللين مداهنةً، وإيثار الرفق مغالطة، فهو طامع بالخلافة طامحٌ لها عِبَّ ما خططِ له السابقون، ينصب لذلك حبائله، ويوطىء له جانبه، ويستطيل بمميزات لم تكن، ويتعالى بخصائص لم تتهيأ، فموقفه من الحسن موقف أبي بكر وعمر من أمير المؤمنين، ويضيف: «فلو علمت أنك أضبط مني للرعية، وأحوط على هذه الأمة، وأحسن سياسة، وأقوى على جمع الأموال، وأكيد للعدو لأجبتك إلى ما دعوتني إليه، ورأيتك لذلك أهلاً، ولكن قد علمت أني أطول منك ولاية، وأقدم مِنك بهذه الأمة منزلاً، وأكبر منك سناً، فأنت أحق أن تجيبني إلى هذه المنزلة التي سألتني، فأدخل في طاعتي، ولك الأمر من بعدي، ولك ما في بيت مال العراق من مالٍ، بالغاً ما بلغ، تحمله إلى حيث أحببت، ولك خراج أي كور في العراق شئت، معونة لك على نفقتك، يجبيها أمينك، ويحملها لك كل سنة، ولك أن لا يُستولى عليك بالإساءة، ولا تقضى دونك الأمور، ولا تُعصىٰ في أمر أردت به طاعة الله»[2].

لقد أسبغ معاوية على نفسه مؤهلات الخلافة مكابراً، فلم يكن يوماً واحداً أحوط لهذه الأمة، وكيف يحتاط للأمة من لم يحتط لنفسه، ولم يكن أحسن سياسة بل هو أروغ دوراناً وسلطويةً، ولم يتقدم في الأمة منزلاً لا قَدْما ولا قِدما، وإنما هو طليق ابن طليق، ولكنه يداهن

---

(١) ابن أبي الحديد/ شرح نهج البلاغة ٤/ ٩.

(٢) المصدر نفسه ٤/ ١٣.

في الحق، ويخوض في الباطل خوضاً، فدعا الإمام إلى الطاعة، وأن يكون الأمر له من بعده، وهو لا يمتلك ذلك، وأساغ للإمام أن يحمل معه بيتِ مال العراق مهما بلغ، والمال مال المسلمين، وأن يختار خراج ما شاء من الكور استعانة على نفقته، وكل الكور آنذاك بيد الإمام الحسن.

وما استمع الإمام الحسن عليه السلام لشيء من هذه الأماني المعسولة، ولا استلذ هذه الدعوة الكاذبة، فهو يعرف قبل غيره أن معاوية يغدر ويفجر، وما يمنعه أن يمهد لخلافته بهبة ما لا يملك، وأن يستعمل أساليب اللاشرعية في كل ما يعهد، فلمعاوية هدفه المبيّت وهو الانتزاء على هذه الأمة، والاستيلاء على كل مقدراتها، ولا مانع لديه من تسخير التعليل والمواعيد الباطلة بين يدي هذا الهدف، ولا حريجة في الدين أن يعد ولا يفي، فلا دين له وإنما هو المُلكُ والمُلكُ وحده، وحتى إذا آيس من هذا الخداع أخذ بوعيد الحسن وتهديده، وكتب إليه بالتحذير والإنذار، فأجابه الحسن عليه السلام بضرورة اتباعه لأنه مع الحق، والحق أحق أن يتبع، فما رضخ معاوية لذلك وشاء الحرب، وكان الحسن متأهباً لها ضمن ما لديه من جيش أعدَّه أبوه للعودة إلى صفين.

«التجربة العسكرية المترددة»

كان الإمام الحسن عليه السلام جريئاً دون تسّرع، ومبادراً دون تهور، حكيماً في أناةٍ، ومصلحاً في ترو، لا يَخدع ولا ينخدع، اتخذ التعقل ميزاناً لمتابعة الأحداث، واعتمد الحكم حليفاً في تهدئة العواطف.

كانت دراسة البنية الاجتماعية للمجتمع الكوفي، ونقد التركيبة الخلقية للشعب العراقي من أولويات اهتمامات الإمام الحسن السياسية، ونظر الإمام عليه السلام إلى هذا الخليط المتناقض ببصيرة نافذة فرأى الخور والتردد يمتلكان هذا المجتمع بعد استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام، وإذ فقدوا به قائداً فذاً بعد أن ملؤوا قلبه قيحاً وصدره غيظاً، فكان التمزق الداخلي، والتفرق في فلسفة الحياة، والتعثر في المسيرة، والتردد في الموقف، من أبرز الظواهر الاجتماعية القاتلة.

ولحظ الإمام عليه السلام عن كثب طبيعة هذا الشعب في التقلّب الاهتزازي، ولمح ضعف القرار الحاكم في تطلعاته، فلا المناخ العقلي مستقرّ في توجهاته، ولا الإرادة الصادقة حاكمة في قرارته، يركب الموجة فتطفو به على السطح، ويضّيع الفرصة فيرد بها على المهالك، ويتجرع الغصَّة فتقذف به في لهوات الكوارث، يهبُّ في شرارة سرعان ما تخمد، ويغفو على مضض فلا يستيقظ إلا بعد فوات الأوان، ضيّع مجده بيده، وأجهز على تأريخه بمحض إرادته، هذا كله من جهة، ومن جهة اخرى يتطاير شرر الخوارج في قوة متمركزة في قاعدة الخلافة وحواليها، والملحظ الأول يجر إلى القوقعة على الذات والى التبعية في

القرار، والى الإخفاق في الإدارة، والملحظ الثاني يعني التكتل اللامشروع ضد قيادة الإمام، وما يفرزه هذا التكتل من حركات العصيان المسلح ونزعات التحرك المشبوه.

وأدرك الإمام عليه السلام بخبرته التجريبية كراهية الجيش العراقي للحرب، ولمس ميله إلى الدعة والسلم وأبصر وراءه معاوية يستخلص ولاء القادة، ويبتاع ضمائر الزعماء، ويمنيّ بالمناصب المهمّة، ويلوّح بالوظائف القيادية، ويهدد بالإبادة الشاملة، وينذر بالتصفية الجسدية للمعارضين له من أنصار الإمام وأتباع أهل البيت وكان الرتل الخامس من المنافقين والنفعيين في الكوفة يظهر الولاء للإمام، ويمعن بالإخلاص لمعاوية، يزوّده بالأنباء أولاً بأول، ويسرب إليه دقائق المعلومات السرّية، حتى عاد معاوية ذا علم بكل الحيثيات التي تدور حول الإمام قبل أن يختمر قرارها، فيعمد إلى إفسادها بشكل وآخر، هذا ما دعاه إلى استعمال الحرب وهو يحلم بالنصر العسكري، فبادر إلى انتهاز كل المظاهر السلبية التي تحياها الكوفة، وعمد إلى تضخيمها وهو يتوقع الغنم، مضيفاً إليه الإشاعات الكاذبة، والتهويلات المقلقة مما يؤثر به على التوجيه المعنوي للجيش والأمة، فيضعف عندها المناخ النفسي ويجعله في اهتزاز واضطراب متعاقبين.

ولم يشأ معاوية أن يكتم هذا الانشطار السياسي على قيادته، ولم يكن ليخفيه على ولاته وعماله، فأطلعهم عليه متجاوزاً حقيقة الأمر إلى الكذب وإدّعاء ما لم يكن، وقد كتب إليهم:

«أما بعد؛ فالحمد لله الذي كفاكم مؤونة عدوكم، وقَتَلَةَ خليفتكم، إنَّ الله بلطفه أتاح لعلي بن أبي طالب رجلاً من عباده فاغتاله وقتله فترك أصحابه متفرقين مختلفين، وقد جاءتنا كتب أشرافهم

وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم، فأقبلوا إليّ حين يأتيكم كتابي هذا بجهدكم وجندكم، وحسن عدّتكم، فقد أصبتم بحمد الله الثأر، وبلغتم الأمل، وأهلك الله أهل البغي والعدوان»[1].

فما كان من عماله إلا أن استبشروا بهذا الخطاب، وأمدّوا بكل ما تحتاج إليه الحرب من البعوث والعدة والسلاح، فاجتمع إليه من الجيش المقاتل ما أمكنه معه الخروج معلناً الحرب على العراق، واتجه بفصائله وكتائبه نحو الكوفة مرعداً مزبداً.

وتناهت الأخبار إلى الإمام الحسن عليه السلام فأخذ يجيل نظره في واقع الجيش المتفكك، ويطيل التأمل في حقيقة قيادته العسكرية، وكان الانطباع مبدئياً أن الفزع الشامل لدى الناس يقود إلى الخذلان، وأن حرباً فاشلة تنتظره لا تنتهي بنصر، وأن تردداً قاتلاً يدبّ في الهيكل العام للجيش، وأن المطامع تجري مع الكوفيين مجرى الدم في الشرايين، ومع هذا الاقتناع بطبيعة مجمل المناخ القتالي والنفسي لدى القوم، فقد كان الإمام الحسن عليه السلام ابن أبيه حقاً حينما لم يشأ اتخاذ القرار إلا بعد الإعذار، فأراد امتحان الناس بذممهم، واختبار الجيش بصدق عزيمته، واستقرار ضمير الأمة بمدى الولاء والطاعة، وقد تولى ذلك بنفسه، فخطب في مسجد الكوفة قائلاً:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الله كَتَبَ الجِهَادَ عَلى خَلقِهِ، وَسَمّاهُ كُرْهاً ثُمَّ قال لأَهْلِ الجِهاد:

﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ۝٤٦﴾[2].

(١) ابن أبي الحديد/ شرح نهج البلاغة ٤/ ١٣.
(٢) سورة الأنفال/ ٤٦.

فَلَسْتُمْ أيها الناسُ نائِلينَ ما تُحبوّنَ إلاّ بالصَبرِ عَلَى ما تكْرَهُونَ، إنَّهُ بَلَغَني أنَّ معاوية بَلَغَهُ أنّا كُنّا أزْمَعْنَا المَسيرَ إليه فَتَحَرَّكَ لِذَلِكَ، أُخْرَجُوا رَحَمَكم الله إلى مُعَسكَرِكُمْ في النُخَيلَةِ حَتَى نَنْظُرَ وَتَنْظُرونَ وَنَرى وَتَرونَ»[1].

أوجز الإمام البيان في هذا الخطاب، وَحث فيه على الجهاد مع الصبر، وأن الله مع الصابرين، وأبان أن القتال كره للناس، ولكنهم لا ينالون ما يحبّون إلاّ بالصبر على ما يكرهون، وصرّح أنه كان قد أزمع المسير إلى معاوية، فتحرك معاوية لذلك، ودعاهم الإمام إلى الخروج بعد أن وضع النقاط على الحروف، فعدوّهم سائر إليهم، والساحة تنتظر تضحيتهم، والحرب قد أرسلت نذرها، فما كان أمر الناس إلا التلكؤ عن الإجابة، وما كان ردّهم إلا النكوص، وكأن على رؤوسهم الطير، فأهال هذا الموقف الجبان عدي بن حاتم الطائي فانطلق قائلاً:

«أنا عدي بن حاتم، سبحان الله ما أقبح هذا المقام!! ألا تجيبون إمامكم، وابن بنت نبيكم؟ أين خطباء المصر الذين ألسنتهم كالمخاريق في الدِعة، فإذا جدّ الجدّ راوغوا كالثعالب، أَمَا تخافون مقت الله ولا عيبها ولا عارها». ثم التفت إلى الإمام عليه السلام قائلاً:

«أصاب الله بكَ المَراشِدَ، وَجَنّبكَ المَكَارهَ، ووفقك لما يُحْمدُ وِرْدُهُ وصَدرُهُ، قد سمعنا مقالتك، وانتهينا إلى أمرك، وَسَمِعنا لك، وأطعنا فيما قُلتَ ورأيتَ. وخاطب الجمع منتفضاً: «وهذا وجهي إلى معسكرنا، فَمَنْ أحبَّ أن يوافي فليوافِ»[2].

---

(١) ابن أبي الحديد/ شرح نهج البلاغة ٩٤/ ١٣.
(٢) المصدر نفسه ٤/ ١٤.

وكان هذا الخطاب تفجيراً للموقف، وكسراً لحالة التردد والجمود، ومع ذلك فما تحركت الهمم، ولا انتخت العزائم، وخرج عديٌّ إلى النخيلة وعسكر بها وحده، وكان هذا التخاذل من أبرز مؤشرات الخور والفشل، والإمام عليه السلام يقطر قلبه دماً لقعود هذا الجمع عن حقه، وإدّراع عدوه مستلئماً في باطله، في هذا الجو القاتل انتدب الناس ثلاثة من قوّاد الإمام، والغيظ يملأ قلوبهم، والأسى يفت في أعضادهم، وهم: قيس بن سعد بن عبادة، ومعقل بن قيس الرياحي، وزياد بن صعصعة التميمي، فقرعوا الناس تأنيباً وتعنيفاً، وحملوهم على الخروج حملاً، وكأنما يساقون إلى الموت، فقدّر الإمام عليه السلام لقوّاده موقفهم البطولي، وقال: «مَا زِلْتُ أَعْرَفُكمْ بِصِدْقِ النيّة وَالوَفَاءِ والنصيحة، فجزاكم الله خيراً»[1].

ومع هذا التخاذل العريض، والتواكل الفج، فقد أراد الإمام عليه السلام الإمعان في الحجة، فخرج بهذه العدة المتزلزلة، وانتقى من جيشه اثني عشر ألفاً، وقدّمهم طليعة لجيشه، وهو مقيم في (دير عبد الرحمن) وأعطى عبيد الله بن العباس قيادة طلائعه، وأوصاه بالآتي:

«يَا ابْنَ عمٍّ، إنّي باعث مَعَكَ اثني عشر ألفاً من فرسان العرب، وقرّاء المِصرِ، الرَّجُلُ مِنْهُمْ يزيدُ الكتيبةَ، فَسِرْ بِهِمْ، أَلِنْ لَهُمْ جانبك، وابْسِطْ لَهُمْ وَجْهَكَ، وافرش لهم جَناحكَ، و أدنِهم مِنْ مَجلِسِك، فإنَهُمْ بَقية ثقات أمير المؤمنين، وسِرْ بِهِمْ عَلى شطِّ الفُراتِ، ثمَّ امضِ حَتَى تَستقبلَ بِهِمْ معاوية، فَإنّكَ إنْ لَقيتهُ فاحتبسه حتى آتيكَ، فإني عَلَى إثرك وشيكاً، وَليكنْ خَبَرُك عِنْدِي كلَّ يوم، وشاور هذين (يعني: قيس بن

(١) ابن أبي الحديد/ شرح نهج البلاغة ٤/ ١٤.

سعد بن عبادة، وسعيد بن قيس) وإذا لقيتَ معاوية فلا تقاتله حتى يقاتلك، فإن فعلَ فقاتله، وإنْ أُصِبتَ فَقَيسُ بن سَعْدٍ عَلَى النَاسِ، فإنْ أُصِيبَ فَسعيدُ بن قيسٍ عَلَى الناس»[1].

وسار عبيد الله بن عباس في هذه الطلائع، ويبدو أنها من الفرسان الأكفاء والرجال المعدودين وثقات أمير المؤمنين عليه السلام وهي تزكية من الإمام عليه السلام لا تزكية بعدها، وزوده الإمام عليه السلام بعصارة الوصايا العسكرية بفصائل الجيش، ورسم له الخطة القتالية، وعلّمه ما ينبغي له أن يعلمه، وبصّره بالشؤون الحربية المحتملة، وجعل قيادته ثلاثية برئاسته وعضوية كل من: قيس بن سعد بن عبادة، وسعيد بن قيس الهمداني، ليكون القرار جماعياً لا فردياً، وكان جديراً بابن عباس أن يعتز بهذه الثقة الكبرى، وكان حرياً به أن يخلص للإمام إخلاصاً يتناسب مع هذه الثقة، وكان طبيعياً أن يكون عند حسن ظن الإمام عليه السلام لأنه موتور من معاوية بقتل ولديه من قبل بسر بن أرطاة لدى إغارته على اليمن ولكنه تناسى كل ذلك واتبع هواه، وخان الإمام والأمة، وضيّع الأمانة والثقة، واستجاب لدراهم معدودة مهما كثرت، فالرجال لا تبيع الضمير، ولا تتلاعب بالمقدّرات، والموتور يثأر لوتره، ولا يستخذي لواتره، وقد واتته الفرصة، أما أن يطأطىء رأساً للرشوة المحرمة، ويغض طرفاً عن المصلحة العليا، فذلك ما ترفضه طبيعة الرجل القيادي، ومع كل هذا فإن استجابة عبيد الله لمعاوية تبقى لغزاً محيّراً، فهل يصنع المال الزائل هذا الصنيع؟ وهل يتلاشى لديه إكرام أمير المؤمنين عليه السلام له بولاية اليمن؟ وهل يتناسى مصرع ولديه الصغيرين الدارجين؟؟ متى كانت العقيدة المتأصلة منخدعة بالمغريات

---

(١) المصدر نفسه ٤/ ١٦.

الموقتة؟ ومتى كان الغدر محموداً؟ إن ما قام به عبيد الله بن عباس لا مسوّغ له دينياً وأدبياً وإنسانياً، وهو إن كان نتيجة رغبات نفسيه جامحة فهي تنأى بمضمونها ومؤداها عن الدائرة الإسلامية المحددة التي رسمها أهل البيت في الأمانة والإخلاص والتضحية.

ومهما يكن من أمر، فقد ترك عبيد الله الجيش، والتحق بمعاوية ليلاً، ومعه ثمانية آلاف من الجيش[1].

وأصبح الجيش ولا أمير عليه، فصلى بالناس قيس بن سعد بن عبادة، وخطب بالناس منددا بصنيع عبيد الله، وقال: إن هذا وأباه وأخاه لم يأتوا بيوم خيراً قط، إنَّ أباه «عم رسول الله ﷺ خرج يقاتله ببدر، فأسره أبو اليسر كعب بن عمرو الأنصاري، فأتى به رسول الله ﷺ فأخذ فداءه فقسمه بين المسلمين، وإنّ أخاه ولاّه عليٌّ عليه السلام على البصرة، فسرق ماله ومال المسلمين فاشترى به الجواري، وزعم أن ذلك له حلال، وإنّ هذا ولاّه عليٌّ عليه السلام على اليمن فهرب من بسر بن أرطاة، وترك ولده حتى قتلوا، وصنع الآن هذا الذي صنع».

فالتفت إليه الجيش قائلاً:

«الحمد لله الذي أخرجه من بيننا»[2].

وكتب قيس بن سعد إلى الإمام الحسن عليه السلام يخبره:

«إن معاوية أرسل إلى عبيد الله بن العباس يرغبه بالمصير إليه، وضمن له ألف ألف درهم، يعجل له منها النصف، ويعطيه النصف الآخر عند دخوله الكوفة، فانسل عبيد الله في الليل إلى معسكر معاوية

(١) ظ: اليعقوبي/ تاريخ اليعقوبي ٢/ ١٩١.
(٢) الأصبهاني/ مقاتل الطالبيين ٣٥.

في خاصته، وأصبح الناس قد فقدوا أميرهم، فصلى بهم قيس بن سعد، ونظر في أمورهم. . . »[1].

يقول أستاذنا الدكتور طه حسين:

«كان عبيد الله بن عباس يتعجل السلم لنفسه، ويترك الجيش إلى معاوية دون أن يستخلف عليه أحداً، رشاه معاوية بالمال، فلم يستطع أن يعصي المال، وكذلك انحرف عبد الله بن عباس عن علي، وانحرف عبيد الله بن عباس عن الحسن، كلاهما ينحرف عن صاحبه في أشدّ الأوقات حرجاً وأعسرها عسراً»[2].

وحينما بلغ النبأ الحسن عليه السلام وجم له وجوماً ظاهراً، وازداد بصيرة في أمر الناس، فهذا ابن عمه يخونه خيانة فاضحة، وهذا جيشه تمزقه الإشاعات الباطلة، وكان قد خرج في أربعين ألفاً في أقلّ الروايات، وخرج معاوية في ستين ألفاً في أقلّها أيضاً. ولا دليل على ما رآه الدكتور طه حسين بقوله:

«وقد مكث الحسن بعد البيعة شهرين أو قريباً من شهرين لا يذكر الحرب، ولا يظهر لها استعداداً، حتى ألحّ عليه قيس بن سعد، وعبد الله بن عباس، وكتب إليه عبيد الله بن عباس من مكة يحرضه على الحرب، ويلحّ عليه في أن ينهض فيما كان ينهض فيه أبوه»[3].

فقد أعدّ الإمام الحسن عليه السلام نفسه للحرب إعداداً، وفكّر بها جادّاً، وهيأ أسبابها ومالها وسلاحها، وعيّن قوادها، وسار إليها بنفسه،

---

(١) الشيخ المفيد/ الإرشاد/ ١٧٠.
(٢) طه حسين/ الفتنة الكبرى ٢/ ١٧٩.
(٣) المرجع نفسه ٢/ ١٧٨.

ولكن الأقدار داهمته بظروفها الصعبة ومضاعفاتها الخطيرة، فهو يريد أن يحمل الناس على منهج أبيه، وقد ابتعد الناس عن هذا المنهج، فلم يكره أحداً على الحرب، ولم يعلن الجبروت في الأرض، وإنما سلك في الأحداث بما لله فيه رضا وللمسلمين فيه صلاح، والناس لا تريد هذا، بل تريد سياسة القهر والغلبة والاستبداد، ومعاوية يضيف إلى هذا كله الوسائل الدنيئة والأساليب الرخيصة: التجسس، الرصد، الرشوة، الخداع، التضليل، المناورة، الإمارة المرتقبة، الترويج بأحدى بناته، الولاية المزعومة، القيادة المتوقعة، ويعجّل بالمال والأعطيات، ويعد بالوظائف والمناصب كان ذلك أو لم يكن، يضاف إلى هذا أن جيش معاوية يطيعه وهو يعصي الله، وجيش الإمام عليه السلام يعصيه وهو يطيع الله، فالمخلصون فيه قلة، وأصحاب المآرب كثيرون: الخوارج، المنافقون، الانتهازيون، رؤساء الأسباع، الهمج الرعاع الذين ينعقون مع كل ناعق، زيادة على ضعف الوازع الديني وسيطرة سلطان الهوى، وفقدان الوعي السياسي، وانعدام الالتزام الأخلاقي..

يقول الشيخ المفيد (ت: ٤١٣ هـ)

«واستنفر الإمام الحسن عليه السلام الناس للجهاد فتثاقلوا عنه، ثم خفّوا وخفّ معه أخلاط من الناس؛ بعضهم شيعة له ولأبيه، وبعضهم محكمّة يؤثرون قتال معاوية بكل حيلة، وبعضهم أصحاب فتن وطمع بالغنائم، وبعضهم أصحاب عصبية اتبعوا رؤساء قبائلهم لا يرجعون إلى دين، وبعضهم شكّاك»[١].

وكان هذا التقويم للجيش العراقي دقيقاً في تصنيفه هذه الأخلاط، وإرجاع كل صنف إلى طبيعته السياسية.

---

(١) الشيخ المفيد/ الإرشاد ١٧١.

وينبغي في الردّ على أستاذنا الدكتور طه حسين رحمه الله ذكر ما أثبته المؤرخ اليعقوبي أن الإمام الحسن عليه السلام قد تجهز لحرب معاوية بعد ثمانية عشر يوماً من وفاة أبيه[1]. وهذا ما نميل إليه، وهو وحده يفيد عدم تباطىء الإمام في قتال المحلّين.

ومهما يكن من أمر، فقد اتضحت للإمام نية جيشه في كره القتال، وخبر إرادة أفراده في الموادعة، ولمس إغراق بعض قيادته في الخيانة، مما جَرَأ قوّاد معاوية أن يكتبوا لقادة الجيش العراقي بهذا السطر الواحد:

«إنّ الحسن يكاتب معاوية على الصلح، فَلِمَ تَقتِلونَ أنفسكم»[2].

وما كان الإمام الحسن ليكتب شيئاً من هذا، ولكنها الإشاعات المنضّمة التي سبقت الأحداث في التمهيد والتضليل.

وأضاف معاوية إلى ذلك أن أذاع أن قيس بن سعد بن عبادة قد صالح معاوية، والتحق به[3].

ولم يكتف معاوية بهذا التمهيد حتى نشر هو وأتباعه في بيداء العراق ولدى كل سرية في الجيش العراقي: أن الحسن قد صالح معاوية[4].

وكان لا بد لهذا الزخم الهائل من الإشاعات أن تعطي ثمارها

(١) ظ: اليعقوبي/ تاريخ اليعقوبي ٢/ ١٩١.
(٢) ابن كثير/ البداية والنهاية ٨/ ١٤.
(٣) المصدر نفسه والصفحة.
(٤) ظ: اليعقوبي/ تاريخ اليعقوبي ٢/ ١٩١.

المضادة لمسيرة الإمام الحسن عليه السلام، فإذا أضافت إليها نشر الأرصاد والعيون وهي تثير الرعب والهلع، وتسخير الأموال والأعطيات في شراء الضمائر، واستهواء النفوس والرغبات في الولايات الموعودة.

تجلّى لك ما كان ينبغي للحسن عليه السلام أن يفعله بحزم وجديّة دون تردد، وأن يعيد نظره في الموقف الحربي الهشّ، وأن يتدارك الأمر ويتدارسه لصالح الإسلام، فإذا تركت هذا كله، ولم يقنعك سيل هذه الدلائل، فهلّم الخطب فيما رواه الشيخ الصدوق:

«وبعث معاوية لكلٍ من عمرو بن حريث، والأشعث بن قيس، وحجار بن أبجر، عيناً من عيونه يمنيّ كل واحد منهم بقيادة جند من جنوده، أو بتزويج إحدى بناته، أو بمائة ألف درهم: إن قتلوا الحسن، وقد بلغ الحسن ذلك فاستلم ولبس درعاً، فكان لا يتقدم للصلاة إلا وعليه وقايةً»[1]. وكان الأدهى من هذا كله «أن كتب جماعة من رؤساء القبائل إلى معاوية بالسمع والطاعة له بالسر، واستحثوه على المسير نحوهم، وضمنوا له تسليم الحسن عليه السلام إليه عند دنوّهم من عسكره، أو الفتك به»[2].

وقد بلغ الحسن كل ذلك وأكثر من ذلك مما لم يذكره التأريخ لنا، ومما لم نطلع عليه نحن، فما ترى الحسن صانعاً؟ وهذا سؤال يدور في الأذهان، والإجابة عليه ليست مبتسرة دون تمهيد، ولا هينة دون تمحيص، يسبقها أذن استقصاء الظرف العسكري، ودراسة الهاجس النفسي، وإرادة التخطيط الرسالي، والعمل من أجل الإسلام

(١) الشيخ الصدوق/ علل الشرائع ٨٤.
(٢) الشيخ المفيد/ الإرشاد ١٧٢.

لنصر مستقبلي ينهد به الإمام بكل أصالة و منهجية، بعيداً عن الخور والطيش بوقت واحد، قريباً من الحق والصواب، ذلك ما يقرره خطه الرسالي الواضح، وبعده الإنساني المتميز، وهو ما يتحدث به الفصل الآتي بإذنه تعالى..



الفصل الثاني

«التخطيط الرسالي الرائد وانتهاكات الحكم الأموي»

١ ـ الإمام وطبيعة المجتمع الكوفي المتناقض

٢ ـ الإمام يرفض الخذلان والاستسلام

٣ ـ الصلح الاستراتيجي المشروط

٤ ـ المعارضة ومنهجية الحكم الاموي:

أ ـ إثارة العصبية القبلية

ب ـ تسخير بيت المال

٥ ـ الجديد في برنامج معاوية السلطوي:

أ ـ ملاحقة أتباع أهل البيت

ب ـ سياسة الإرهاب الدموي

٦ ـ الإمام الحسن ينتصر عقائدياً:

أ ـ التنظيم السرّي الجديد

ب ـ التخطيط السياسي الرائد

ج ـ الحسين يتابع الحسن



الإمام وطبيعة المجتمع الكوفي المتناقض

ارتسمت في الأفق السياسي تناقضات المجتمع الكوفي طمعاً وانتهازية ونفاقاً، فهؤلاء القادة في رشاوى معاوية يتهافتون عليه، وأولاد الزعماء في وعود الولاية يلتجأون إليه، وتلكم القبائل تنفض ما على دثارها ما تبقى من شمم وإباء، وهاتيكم الرعاع في فوضى من الولاء المتقلّب، وأولاء الخوارج يشيعون الفتنة ويعون الحق ولا يدركونه، وثمت جيل من الأخلاط من المرتابين والمنافقين لا إيمان لهم بالمثل العليا، وأولئك الثقات المختارون ـ وهم القلة النادرة على تعاقب التأريخ ـ بين هذا المزيج العجيب في حيرة من الأمر ودوامة من التفكير، وتلك الصفوة من الهداة لا أمر لها يطاع، ولا رأي يتبّع، وهذا الجيش المقاتل يستسلم للدعة والتخاذل.

حقاً لقد ملّت النفوس المتهرأة الحرب، وسئمت حياة القتال والنضال، فنزعت إلى العافية، وجنحت إلى السلم الرخيص، فتركت الجهاد ـ وهو عِز لها ـ إلى التحفظ وهو ذلٌ لها، وكانت في ذلك بين عاملين: الرغبة والطمع، إنها لحياة واهنة الأوصال، وتركيبة ظاهرة الارتجاج، وكان طبيعياً في المنطق السياسي المهترب عن الواقع أن تنتهي الأدوار إلى هذه الهوة السحيقة من الخور والجبن والاستسلام، فلا الأحلام صادقة، ولا العزائم جادّة، ولا الأهواء موحّدة، والإمام في مثل هذا المناخ الغريب التناقضي يريد أن يدبّر أمر الدين والدنيا ويحمل الناس على المحجة البيضاء، وليس معه دنياً مغرية، ولا حياة رخيصة،

ولا مطامع سائلة، إنما هو الكفاح المرير والنضال المستميت، والاستنان بما قرره أمير المؤمنين عليه السلام من ذي قبل.

ومعاوية يريد ملكاً عضوضاً وحياة ارستقراطية، ومعه المال الباطل، والجاه العريض والبذخ الكثير والإسراف المستمر والإغراء العابث وبكل شيء، أسوة بما عرف عن القياصرة والأكاسرة، ولا يمنع نفساً عن الهوى، ولا يدعو أحداً إلى هدى، ولا يقّر مجتمعاً على حقّ يراد، ولا ينهى تابعاً عن باطل متبّع، وما الخلافة لديه إلا وسيلة توصله إلى غاياته في الأثرة والتحكم والسلطان، وهو لا يخفي ذلك، ولا يدفعه متأثماً أو متحرجاً، بل يقول مجاهراً: «رضينا بها ملكاً»[1].

وشتان بين دين محمد وملك قيصر، وهيهات أن يلتقي الحق والباطل فهما خطّان متوازيان ولا يلتقيان.

وفوق هذا كله أن لاحت في الأفق علائم الغدر والخيانة، لا من الجيش العراقي فحسب بل منه وممن يسمى بعلية القوم وأشراف البلد، «ويكفي أن نلاحظ بعد ذلك أن الحسن لم يكد يفرغ من البيعة حتى فرغ جماعة من الأشراف الذين تابعوه إلى معاوية، منهم من سار إليه فبايعه، وأقام معه حتى عادوا في صحبته إلى العراق، ومنهم من أرسل إليه الكتب ينبئونه عن الحسن وانتشار أمره، واختلاف الناس عليه، ويتعجلون قدومه إلى العراق، حتى لم يتحرج معاوية من أن يتأذن في أصحابه من أهل الشام: إن كتب أهل العراق قد تواترت إليه يدعونه فيها أن يسير إليهم، وإن أشراف أهل العراق قد جعلوا يقبلون عليه ليبايعوه»[2].

(١) ابن الأثير/ الكامل في التاريخ ٦/ ٢٢٠.
(٢) طه حسين/ الفتنة الكبرى ٢/ ١٨١.

هذا ونظائره من الاضطراب الاجتماعي يحدثك عن البنية التحتية للشعب العراقي، ويوقفك على اهتزاز الضمائر سعياً وراء المصالح الذاتية دون الشعور بوعي سياسي عميق، أو التطلع إلى احترام المسؤولية الرسالية في الأعناق.

والأنكى من هذا أن معاوية كان يبعث برسائل العراقيين هذه إلى الإمام الحسن عليه السلام يريد غدر شعبه، وخيانة جيشه، وشغب قومه، مما ازداد معه الحسن عليه السلام بصيرة في القوم، وازداد معه أيضاً أسفاً ولوعة على هذا التخلف في النزعات، وتحققت لديه من خلال ذلك وسواه الرؤية في انقاذ ما لديه من خطط سليمة، عسى أن لا يتدهور الحال إلى الأكثر والأشنع.

ومع هذا فلم يتعجل الإمام الحسن عليه السلام القرار، ولم يبادر إلى أي مشروع مرتقب دون أن يخضع الناس إلى التجربة الميدانية الكاشفة، وما استعان على ذلك بأحد بل تولى ذلك بنفسه. يقول الشيخ المفيد (ت٤١٣هـ).

«وأراد الحسن عليه السلام أن يمتحن أصحابه، ويستبرىء أحوالهم في الطاعة له، ليتميز بذلك أولياؤه من أعدائه، ويكون على بصيرة من لقاء معاوية وأهل الشام، فأمر بهم أن ينادى: بالصلاة جامعة، فاجتمعوا، فخطبهم فقال:

«الحمدُ لله كُلّما حَمَدَهُ حَامِدٌ، وأَشْهَدُ أَنْ لا إله إلاّ الله كُلّما شَهِدَ لَه شاهِدٌ، وأَشْهَدُ أن مُحَمَّداً عَبْدُهُ، أرسَلَهُ بِالحقِّ وائتَمَنَهُ عَلَى الوَحي صلى الله عليه وآله وسلم؛ أمّا بَعْدُ:

فَوَالله إنّي لأَرْجُو أَنْ أكُونَ قَدْ أَصْبَحْتُ بِحَمْدِ الله وَمَنِّهِ وَأَنَا أَنْصَحُ

خَلقِ اللهِ لخَلْقِهِ، وَمَا أَصْبَحْتُ مُحْتَمِلاً عَلى مُسْلِم ضَغِينَةً، وَلاَ مُرِيداً لَهُ بِسُوءٍ وَلا غَائِلَةٍ، ألا وإنّ ما تكرهونَ في الجَمَاعَةِ خَيرٌ لَكُمْ مِمَا تُحِبّونَ في الفُرْقَةِ، ألا وإنّي نَاظرٌ لَكُمْ خَيراً مِنْ نَظَرِكُمْ أَنْفُسِكُمْ فَلاَ تُخالِفُوا أَمرِي، ولا تَردّوا عَليَّ رَأيي، غَفَرَ الله لِي ولَكُمْ، وَأَرْشَدَني وإيّاكُمْ لِمَا فِيهِ المَحبّةُ والرضَا».

قال: فنظر الناس بعضهم إلى بعض، وقالوا ما ترونه يريد بما قال؟ قالوا: نظنه والله يريد أن يصالح معاوية ويسلم الأمر إليه. قالوا: كفر والله الرجل. ثم شدوا على فسطاطه وانتهبوا، حَتى أخذوا مصلاّة من تحته، وما اكتفوا بهذا حتى شدّ عليه عبد الرحمن بن عبد الله بن جعال الأزدي فنزع مِطرفه عن عاتقه، فبقي جالساً متقلداً السيف بغير رداء، ثم دعا بفرسه فركبه، وأحدق به طوائف من خاصته وشيعته، ومنعوا منه من أراده.

فقال الإمام: ادعوا إلي ربيعة وهمدان، فدعوا، فأطافوا به، ودفعوا الناس عنه، وسار الإمام ومعه شوب من غير شيعته، فلمّا مرّ في «مظلم ساباط» بَدَر إليه رجل من بني أسد يقال له: الجرّاح بن سنان، فأخذ بلجام بغلته، وبيده مِغول، وقال: الله أكبر، أشركت يا حسن كما أشرك أبوك من قبل. ثم طعنه في فخذه فشقه حتى بلغ العظم، ثم اعتنقه الحسن عليه السلام، وخرّا جميعاً إلى الأرض، فوثب إليه رجل من شيعة الحسن عليه السلام يقال له: عبد الله بن خطل الطائي، فانتزع المِغول من يده، وخضخض به جوفه، وأكبّ عليه آخر يقال له: ظبيان بن عمارة، فقطع أنفه، فهلك من ذلك. وحمل الحسن عليه السلام على سرير إلى المدائن يعالج جرحه»[١].

---

(١) الشيخ المفيد/ الإرشاد ١٧١/ ١٧٢.

وأنت ترى أن خطاب الإمام الحسن عليه السلام لم يكن اعتباطياً فيما أشار إليه من نيّة، ولا كان مرتجلاً لو لم تكن الظروف السياسية والاجتماعية والنفسية لفصائل الشعب العراقي قد أملته عليه، إن اختبار الطبيعة الحاكمة على النفوس الطائرة فزعاً، أو الجامحة طمعاً، مما يقتضيه حسن التأتي للأمور عند الإمام الحسن عليه السلام أما أن الناس قد انحدر بهم المستوى الأخلاقي إلى الحضيض، وذهب بكرامتهم وادراكهم على حد سواء، فهذا ذنب الناس لا ذنب الحسن، وما قولهم: كفر والله الرجل، وما انتها بهم لفسطاطه، وما أخذ مصلاه من تحته، وما نزع مطرفه عن عاتقه، وما طعنه بالمغول إلا أمارات فاضحة تحكي صلافة هذا المجتمع البائس، وتعبر عن مكنون انحلاله العقائدي، فليس من الدين ولا من الأدب ولا من الخلق العربي الأصيل التجاوز على الإمام بأدنى عبارة أو أقل عادية، فكيف بهذا السيل من التجاوزات اللامسؤولة والاعتداءات الأثيمة، وما وقف الانتهاك عند هذا الحدّ، بل توالت المؤامرات اللئيمة عليه بقصد قتله غيلة، فقد كان يصلي ذات يوم «فرماه شخص بسهم فلم يؤثر به، ومرة أخرى هجم عليه من هجم في الصلاة وطعنه بخنجر، وهكذا»[1].

ونحن ننظر إلى الإمام الحسن عليه السلام وهو يعاني هذا الواقع المرير، متئداً بحذر، ومتأنياً بمثالية، لا يريد اتخاذ القرار جزافاً، ولا يحاول إلقاء الحبل على الغارب استسلاماً، وإنما أعذر كل الإعذار في حالات شتى، وجابه الجيش بحقيقة أمره، وفلل جنده، وعدم المبالاة في تواكله، منتظراً الإجابة الصريحة ليتخذ في ضوئها قرار السلم أو الحرب، فأمر من نادى بالصلاة جامعة، وخطب الناس: «وَالله مَا يُثْنِينَا

(١) باقر شريف القرشي/ حياة الإمام الحسن ٢/ ١٠٦.

عَنْ أَهْلِ الشَام شَكٌّ وَلاَ نَدَمٌ، وإنَّما كُنّا نُقاتِلُ أَهْلَ الشام بِالسَلامَةِ وَ الصَبْرِ، فَشِيبَتْ السَلاَمَةُ بالعَداوَةِ، وَالصَبْرَ بِالجَزَعِ، وَكُنْتُمْ في مَسِيرِكُمْ إلى صِفّينَ وَدِينُكُمْ أمامَ دُنْياكُمْ، وأَصْبَحتُمْ اليَومَ وَدُنياكُمْ أَمَامَ دِينِكُمْ، أَلا وَقَدْ أصْبَحْتُمْ بَينَ قَتِيلَينِ: قتيلٍ بصفّينَ تَبكُونَ عَلَيهِ، وَقتيلٍ بالنهروانِ تَطْلِبُونَ بِثأره، وأَمّا البَاقِي فَخَاذِلٌ وَثَائِرٌ.

ألا وإنّ مُعاوية دَعَانَا لأَمْرٍ لَيْسَ فيه عِزٌّ وَلاَ نَصَفَةٌ، فإنْ أَرَدْتُمْ المَوْتَ رَدَدْنَاهُ عَلَيهِ، وَحاكمناهُ بظُبّاتِ السِيُوفِ، وإنْ أَرَدْتُمْ الحَياةَ قَبِلناهُ وَأَخَذْنَاهُ بالرِضا...

فلمّا انتهى الإمام عليه السلام من خطابه قالوا: البقية البقيةَ»[1].

ولقد أوضح الإمام عليه السلام أن دين الناس كان أمام دنياهم، وعادوا ودنياهم أمام دينهم، فهم يذّبون عن الدنيا، وأصبحت القبائل بين قتيلين بصفين يبكون عليه أو بالنهروان يطلبون بثأره، وباقي الناس متخاذل هائج، وأبان أن ما دعا إليه معاوية لا عزّ فيه ولا انتصاف، والأمر إلى الناس فيهم يصول وبهم يقاتل، فإن أرادوا الموت ردّ ما دعا له معاوية، وإن أرادوا العيش قبله، ولكن الناس أرادت البقيا، فكيف يخوض بهم الحرب المرتقبة، ولمس الإمام أيضاً أن الوفاق لم يكن قائماً في جيشه بقسميه الكوفي والبصري، بل تتحكم به العصبية القبلية بأبرز مظاهرها، فربيعة الكوفة تضطهد ربيعة البصرة، ومضر البصرة تناوىء مضر الكوفة، ويمن الكوفة تقاتل عن البصرة، فالفرقة متحكمة في ظل القبلية الواحدة، والدماء تراق لأتفه الأسباب، والفتن تتطاير بأدنى إغراء، لقد صور ابن أبي الحديد هذه الظاهرة تصويراً دقيقاً، فقال:

«إن أهل الكوفة في آخر عهد علي كانوا قبائل، فكان الرجل

(١) ابن دريد/ المجتبى ٣٦.

يخرج من منازل قبيلته فيمرّ بمنازل قبيلة أخرى، فينادي باسم قبيلته: يالنَّخع، أو يالِكندة، فيتألب عليه فتيان القبيلة التي مرّ بها، فينادون يالتميم ويالربيعة، ويقبلون إلى ذلك الصائح فيضربونه، فيفضي إلى قبيلته فيستصرخها، فتسلّ السيوف، وتثور الفتنة»[1].

هذا النص وغيره كثير متطاير في كتب التأريخ، يعيد إلى الذاكرة مَعْلَم الجاهلية الأولى في نخوتها وأنفها وحميتها، ويصور لك بما لا يقبل الشك سيطرة العرف القبلي على الأذهان، وإذا ثبتت هذه المقدمات، فالنتائج تشير إلى غياب الوعي الديني جملة وتفصيلاً وتنمّر الصراع العشائري بضراوة هائجة.

ونظر الإمام الحسن عليه السلام نظرة أخرى، فرأى الجيش البصري يساق إلى الحرب دون عقيدة، فهو عثماني الهوى، أموي النزعة، وكيف يُحارب بنو أمية بأتباعهم وأشياعهم، فأسقط من حسابه هذه القلة من البصريين، فهم ليسوا أهل حرب، ولا يرتجى بهم النصر، وعسى أن يكونوا أول المنهزمين لو قامت الحرب.

ولفت نظر الإمام عليه السلام أن في الكوفة مزيجاً غريباً من أهل الريب والبدع والانتهازيين، وقد عمد معاوية إلى إثارة الفتنة ما بينهم، فجعلهم طرائد وطرائق، فهم على شطرين: اليمنيين والنزاريين، فَألّبَ بينهم فكانوا أعداء مما أدّى إلى انهيار الجبهة الداخلية في ركنيها الأساسين. واليمن نفسها دخلها هذا الصراع، فكان رؤساء قبيلة ربيعة وسوادها من أنصار أمير المؤمنين عليه السلام فأغرى معاوية الرؤساء بالمال، فانحازوا إليه، وبايعه خالد بن معمّر عن ربيعة كلها، ولمّا رأت القبائل ذلك طفق كلٌ منهم يبايع معاوية سراً وجهراً، حتى عمد

(١) ابن أبي الحديد/ شرح نهج البلاغة ٣/ ٣.

عثمان بن شرحبيل زعيم بني تميم، فبايع معاوية سراً[١].

وهناك ما هو أفظع من هذا جرحاً، وأشد وقعاً على الإمام نفسه، فقد حاولوا قتله غير مرة، وهم يدّعون بأنهم شيعته وشيعة أبيه، وكما حاولوا قتله، فقد انتهبوا متاعه، واستباحوا ماله، سادرين في الغيّ والضلالة والسقوط، حتى اضطر الإمام عليه السلام أن يقول لبعض أصحابه: «وَالله أَرَى معَاويةَ خَيراً لِي، هَؤُلاءِ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ لي شِيعةٌ ابْتَغَوْا قَتْلِي، وَانتَهَبوا ثِقْلي، وَأَخَذُوا مَالِي، والله لَئِنْ آخذَ مِنْ مُعاوية عَهْدَاً أَحْقُنُ بِهِ دَمي، وآمِنُ به أَهْلِي وشِيعَتي خَيرٌ لي مِنْ أَنْ يَقتلوني فَيَضيعَ أَهْلُ بَيتي، لَوْ قَاتَلْتُ مُعاويةَ لأَخَذُوا بِعُنقِي حَتى يَدفَعُوني إليهِ سِلماً، والله لَئِنْ أسالِمَهُ وأنا عَزيزٌ أَحَبُّ إلي مِنْ أَنْ يَقتلني وأنا أَسِيرٌ، أَوْ يَمّنَ عَلَيَّ فَتَكونَ سُبَّةٌ عَلَى بني هَاشِم إلى آخِر الدَهر، ومعاوية لا يَزالُ يَمّنُ بِهَا وَعقبُهُ عَلَى الحيّ مِنّا والميّتِ»[٢].

وما يدرينا، فلو أن الإمام الحسن عليه السلام حارب معاوية بهذا الفلل من جنده، لأسلمه عند اشتباك الأسنّة، وكان الإمام وخلّص أصحابه هدفاً لأول السهام، وغرضاً لمرامي القوم، ولأسره معاوية وأسر بني هاشم ومشايخ شيعته، فيكون ذلك الأسر عاراً على الهاشميين أبد الدهر، هذا إذا عفّ عنه المجتمع الكوفي فلم يسلمه أسير حرب لمعاوية، وفي مثل هذه الحالة أيديولوجياً لئن سالم الحسن عليه السلام معاوية وهو عزيز متمكن، خيرٌ من أن يقتله وهو أسير ذليل.

هذه الظروف الطائشة التي كابد الإمام عليه السلام إفرازاتها بمرارة،

---

(١) ظ: البلاذري/ أنساب الأشراف ١/ ٢٢٣.

(٢) باقر شريف القرشي/ حياة الإمام الحسن ٢/ ١١٠ وانظر مصدره.

أدت به إلى التفكير بإطّراح الحرب، واضطرته إلى الصلح المشروط، فقد تجلى له الخذلان بألف دليل ودليل، بل هو يحاذر من الفتك به، أو الغيلة له بأية لحظة، وهو يتوقع الإجهاز عليه وتسليمه إلى معاوية أسيراً يرى رأيه فيه، فأين هو من بشائر النصر مع هذا الإحباط المزدوج في كل خياراته المهينة؟

وإني لأستغرب حقاً من أستاذنا الدكتور يوسف خليف رحمه الله، أن يرى الإمام الحسن عليه السلام:

«يؤثر العافية مع الذلّة، على القتل مَعَ العزّ»[1].

ولو تأمل في الموضوع جيداً ـ وهو العالم الحصيف ـ لأدرك بما لا يقبل الشك أن الإمام الحسن عليه السلام يؤثر الصلح مع العزّة على الاستسلام مع الذلّة، فكل الدلائل تشير إلى أن الإمام الحسن كان محكوماً من قبل مجتمعه المتناقض، لا حاكماً يستطيع التصرف بحرية عسكرية أو إرادية، إنه المنطق الديني الرسالي، والإمام يتصرف في ضوئه، وقليل أتباع هذا المنطق، والناس لها الظاهر، والإمام ينظر إلى حقائق الأشياء.

(١) يوسف خليف/ حياة الشعر في الكوفة/ ٦٢.

«الإمام يرفض الخذلان والاستسلام»

لم يكن الإمام الحسن عليه السلام متعجلاً للصلح، ولا متلهفاً عليه، وإنما ألحت عليه في هذا القرار الأحداث المتراكمة الآثار، فتدارك الخرق قبل أن يتسع وكان عليه أن يصل بالسفينة الهائمة بهدير الأمواج الصاخبة إلى الميناء، وقد استطاع بدرايته النادرة أن يفعل ذلك.

يقول أستاذنا العميد الدكتور طه حسين رحمه الله:

«ولم يكن قعود الحسن عن الحرب جبناً أو فرقاً، وإنما كان كراهية لسفك الدماء من جهة، وشكاً في أصحابه من جهة أخرى، وقد تبيّن له بعد مسيره، وما كان من أمره مع الناس حين بلغ المدائن: أنه لم يكن مخطئاً، ولا سيما بعد أن عرف وفود الأشراف من أهل العراق على معاوية، وأن الذين لم يفدوا عليه قد كتبوا إليه، فكان يقول لأهل العراق: أنتم أكرهتم أبي على الحرب وأكرهتموه على التحكيم، ثم اختلفتم عليه وخذلتموه، وهؤلاء وجوهكم وأشرافكم يغدون على معاوية، أو يكتبون إليه مبايعين، فلا تغرّوني عن ديني»[1].

والحق ـ كما رأيت من ذي قبل ـ أن الإمام الحسن عليه السلام لم يقعد عن الحرب، بل الحرب هي التي قعدت عنه، لمجموعة العوامل التي تقدم ذكرها، والإمام الحسن عليه السلام لم يكره أحداً على الحرب، ولم يحمل عليها أحداً قط، وهكذا فعل أبوه أمير المؤمنين عليه السلام من

(١) طه حسين/ الفتنة الكبرى ٢/ ١٨٢.

ذي قبل، إذ لم يكره أحداً عليها، حتى إذا قامت أكرهوه على التحكيم والحرب لا يساق إليها الناس سوقاً، بل يجب أن تنطلق دوافعها من الأعماق، لأن الحرب الإكراهية لا تفي بمتطلبات النصر، ولا تأتي ثمارها بالظفر، ولو حدث ذلك فسيحدث مهزوزاً هزيلاً لا يحقق البعد الرسالي في أهداف الحرب العقائدية، فهي يجب أن تقوم على أساس من قناعات نفسية راسخة، وتعبر عن سخط روحي متأصل، فليست الحرب الشرعية مجرد حركة طائشة حققت غايتها أو لم تحقق، بل هي حرب طوعية تخضع لمواصفات إيمانية لا تشوبها أية أخلاط أخرى، لأنها حرب مقدسة، والحرب المقدسة عادة ما تكون خالصة من الشوائب.

الإمام الحسن عليه السلام بعبقريته الفذّة وقف مترصداً بعمق وحذر، يراقب ما يدور في الساحة، فرأى جيشه عاجزاً تماماً عن خوض الحرب، ورأى عدّوه متذرعاً لها بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة، ومتأهباً لخوضها في ظل المناورات والأساليب اللاإنسانية، فهو يحاور ويساوم، ويبيع، ويشتري، يحاور المتزعمين، ويساوم على ما يصح وما لا يصح، يبيع الولايات ويهبها. ويشتري الولاء ويأسره، هذا المناخ بمفارقاته الواسعة العريضة لا يسمح للإمام الحسن عليه السلام بالتفاؤل في نصر مرتقب، بل هو داعية للخذلان والاستسلام، وعلى الإمام أن يرفض هذا الخذلان وذلك الاستسلام، وعليه إذن أن لا يفكر في حرب فاشلة تنتظره على الأعتاب للتطويح به وبالصفوة المختارة من أهل بيته وأشياعه ومحبيه.

ولا خيار أمام الإمام في هذا الضوء إلا الموافقة على صلح مشروط، وفى به معاوية أو لم يفِ، رضي عنه الناس أم سخطوا، فهذا

وحده هو تكليفه الشرعي المتعين، وقدره الرسالي المفروض.

ولعل الأستاذ الشيخ مهدي شمس الدين من أبرع مَنْ سبق إلى كشف طائفة من هذه الحقائق المهمة، يقول:

«ونحن حين نسمح لأنفسنا أن نندفع وراء العاطفة، نحسب أنه كان على الأمام الحسن عليه السلام أن يحارب معاوية وأن لا يهادنه، وأن ما حدث لم يكن إلا استسلاماً مذلاً مَكّنَ معاوية أن يستولي على الحكم بسهولة ما كان يحلم بها... ولكن علينا أن نفكر بمقاييس أخرى إذا شئنا فهم موقف الإمام الحسن عليه السلام الذي يبدو محيّراً لأول وهلة، فلا شك أن الإمام الحسن عليه السلام لم يكن مغامراً، ولا طالب ملك، ولا زعيماً قبليّاً يفكر ويعمل بالعقلية القبلية، وإنّما كان صاحب رسالة، وحامل دعوة، وعليه أن يتصرف على هذا الأساس. ولقد كان الموقف الذي اتخذه هو الموقف الملائم لأهدافه كصاحب رسالة، وإن كان ثقيلاً في نفسه، مؤلماً لمشاعره الشخصية. لقد كان من الممكن بالنسبة لقائد محاط بنفس الظروف السيئة التي كان الإمام الحسن عليه السلام محاطاً بها أن يتخذ من الأحداث أحد ثلاثة مواقف:

الأول: أن يحارب معاوية رغم الظروف السيئة، ورغم النتائج المؤلمة التي تترتب على هذا الموقف.

الثاني: أن يسلم السلطة إلى معاوية ، وينفض يده من الأمر، ويتخلى عن أهدافه، ويقنع بالغنائم الشخصية.

الثالث: أن يخضع للظروف المعاكسة، فيتخلى موقتاً عن الصراع الفعلي المسلح، لكن لا ليرقب الأحداث فقط وإنما ليكافح على صعيد آخر، فيوجه الأحداث في صالحه وصالح أهدافه.

«وما كان للحسن باعتباره صاحب رسالة أن يتخذ الموقف الأول، لأنه لو حارب معاوية في ظروفه التي عرضناها، وبقواه المفككة المتخاذلة لكانت نتيجة ذلك أن يقتل ويُستأصل المخلصون من أتباعه، ولا شك أنه حينئذٍ كان يحاط بهالة من الإكبار والإعجاب لبسالته وصموده، ولكن النتيجة بالنسبة إلى الدعوة الإسلامية ستكون سيئة إلى أبعد حَدٍ، فإنها كانت ستفقد فريقاً من أخلص حماتها دون أن تحصل على شيء سوى أسماء جديدة تضاف إلى قائمة شهدائها.

كذلك ما كان باعتباره صاحب رسالة أن ينفض يده من كل شيء، ويسترسل في حياة الدعة والرغد، والخلو من هموم القيادة والتنظيم.

ولقد كان الموقف الثالث ـ وهو الموقف الذي اتخذه الإمام الحسن ـ هو الموقف الوحيد الصحيح بالنسبة إليه، وذلك أن يعقد مع معاوية هدنة يعّد فيها المجتمع للثورة.

وذلك لأننا نسمح لأنفسنا أن نقع في خطأ كبير حين نساق إلى الاعتقاد بأن الإمام الحسن قد اعتبر الصلح خاتمة مريحة لمتاعبه، فما صالح الإمام الحسن ليستريح، وإنما ليكافح من جديد، ولكن على صعيد جديد. فإذا كان الناس قد كرهوا الحرب لطول معاناتهم لها، ورغبوا في السلم انخداعاً بجملة الدعاية التي بثّها فيهم عملاء معاوية، إذ منوهم بالرخاء والأُعطيات الضخمة، والدعة والسكينة، وطاعة لرغبات زعمائهم القبليين، فإن عليهم أن يكتشفوا بأنفسهم مدى الخطأ الذي وقعوا فيه حين ضعفوا عن القيام بتبعات القتال، وسمحوا للأماني أن تخدعهم، ولزعمائهم أن يضللوهم، ولا يمكن أن يكتشفوا ذلك إلا إذا عانوا هذا الحكم بأنفسهم. عليهم أن يكتشفوا هذا الحكم ودوافعه، وما يقوم عليه من اضطهاد وحرمان ومطاردة مستمرة، وخنق للحريّات،

وعلى الإمام الحسن عليه السلام وأتباعه المخلصين أن يفتحوا أعين الناس على هذا الواقع، وأن يهيئوا عقولهم وقلوبهم لاكتشافه، والثورة عليه، والإحاطة به»[1].

إن التجربة المريرة التي عايشها الإمام الحسن عليه السلام بأبعادها الباهتة لا يمكن لها أن تتمخض بأكثر من الرضوخ للأمر الواقع الذي لا يمكن تجاوزه في أي حال من الأحوال، أما ارادة كل شيء من الإمام عليه السلام دون إعطاء أي شيء له فهو ضربٌ من الهذيان ونسيج من الثرثرة لا يقوم على أساس من المنطق السليم، وسترى في الصفحات المقبلة أصالة هذا العرض، وستجد عند مسيرة الصلح الاستراتيجي الدقيق حقيقة ما اكتشفه العراقيون أنفسهم، وظواهر ما فضح به النظام الأموي نفسه غدراً وإباحة واستهانة، وما تبع ذلك من خنق الأنفاس، ومصادرة الحريات، واحتجان الأموال، وقتل الأبرياء، وهدم البيوت، وتشريد الأحرار، وسوق أهل العراق سَوق العبيد والإماء، وضرب القبائل العربية بعضها ببعض، وتصفية المعارضة جسدياً، وقمع التحرك الداخلي بقسوة لا مثيل لها في التأريخ، ذلك ليصفوا الحكم خالصاً لمعاوية وعمّالِه وولاته.

وسترى فيما بعد جوهر التخطيط الرسالي الهادىء للإمام الحسن عليه السلام وهو يثبت قواعد الثورة للإطاحة بالحكم الأموي، فما خلق الإمام الحسن ليريح أو يستريح، بل ليناضل ويكافح في معركة البناء والتغيير.

وما كان الإمام لينخدع بالإنفعالات الطائشة في صنع القرار، بل عليه وهو يتمتع بعقلية القائد الرسالي أن يتصرف في ضوء الأسس الثابتة

---

(١) محمد مهدي شمس الدين/ ثورة الحسين ١٠٩ ـ ١١١.

فيما يؤسس ويقرر، وكما تستأثر الحياة الثورية بتغيير الواقع السياسي أحياناً، فقد تستأثر الحياة الرسالية الهادفة بتغيير الواقع الاجتماعي، وكلتا الحالتين تتكفلان بالانفجار الجماعي الذي يُعنى بشكل من أشكال الحسم الثوري لفرض الإرادة الإصلاحية في كيان الأمة ووجودها[1].

ومن خلال هذا المنظور الاستراتيجي المحدد، وجدنا الإمام الحسن عليه السلام يستأثر بالحياة الرسالية لتغيير الواقع، فيضطر إلى الصلح المشروط.

---

(١) ظ: المؤلف/ الإمام زين العابدين: القائد، الداعية، الإنسان/ ٣٦.

«الصلح الاستراتيجي المشروط»

وكما رأيت فقد انتهى تخاذل الجيش العراقي، وتناقض المجتمع الكوفي، بالإمام الحسن عليه السلام إلى زاوية حادة، فأما أن يباشر الحرب بنفسه وبفئة واعية من أصحابه، وقليلٌ ما هم، وهو لا يأمن الغيلة، ولا يسلم من الهزيمة، لأنه يخوض حرباً خاسرة بأدق معاني هذه الكلمة، فقد وصل مع خيانة الأشراف، وعقلية الهمج الرعاع، إلى طريق ذات شعبٍ محددةٍ: الأسر المحتمل، الاغتيال المبيَّت، الاستسلام المشين. وإما أن يلقي الحبل على الغارب ويغادر الميدان هارباً دون أن يكسب شيئاً، أو ينكر منكراً، أو يغيّر باطلاً، أو يحقق غاية. وإما أن يشترط شروطاً في هدنة عسى أن لا تكون دائمية. وكان الخيار الأخير قدره في الحياة، لأنه الموقف الرسالي الذي تحتمه طبيعة الملابسات القائمة بشتى صنوفها، فسعى إليه بحكمة وتؤدة بعد أن أعيت به كل السبل، ليمهد إلى عمل سري حثيث يقطف ثماره ولو بعد حين،لجأ الإمام الحسن ـ وهو يتجرع السم ـ إلى الصلح المشروط وكان ذلك آخر الدواء، ولكنه لم يتعجله بادىء ذي بدء، ولم يدعُ إليه متسرعاً، وإنما تعجّله معاوية فيما يبدو، وجنّد لذلك حملة إعلامية واسعة النطاق، تشمل العراق والجزيرة والشام، لئلا تتعسر عليه الظروف، وخشية أن تستجد طوارىء مفاجئة ليست بالحسبان.

يقول الأستاذ باقر شريف القرشي:

«وأكبر الظن أن معاوية هو الذي استعجل الصلح وبادر إليه، وذلك خوفاً من العراقيين أن ترجع إليهم أحلامهم، ويثوب إليهم رشدهم، وذلك لما عرفوا به من سرعة الانقلاب، وعدم الاستقامة على الرأي»[1].

وفي هذا القول كثير من الدقة التأريخية، فقد خبر معاوية أهواء العراقيين، ووقف عند الداء الدفين، فعمل على الصلح بتمهيد رتيق، وكاتب الإمام الحسن عليه السلام بذلك رفيقاً به، ووعده ما شاء في تسويغ ما في بيت مال العراق له بالغَ ما بلغ، وخراج ما يريد من أية كورة من كور فارس، وفي ذلك خبث ودهاء، وكأن القضية مسأل أموال تجبى، أو كور تستصفى، ولكن معاوية تدارك هذا وأضاف إليه: الاستئمان لشيعة الحسن وشيعة أبيه، وأن تكون ولاية العهد له، وكان ذلك في كتاب بدأه بتقديم الحسن، وتأخير نفسه.

قال أستاذنا الدكتور طه حسين: «وقد عرض معاوية على الحسن ثلاثة أشياء: أن يجعله ولي عهده، وأن يحصل له مرتباً سنوياً من بيت المال ألف ألف درهم، وأن يترك له كورتين من فارس يرسل إليهما عماله، ويصنع بهما ما يشاء. ثم أعطى على نفسه العهد المشدّد المؤكد أن يؤمن الحسن من كل غائلة. ولم يكتفِ بهذه الشروط، لأن فيها شيئاً لا يملكه معاوية في رأيه، وهو ولاية العهد. ولأن ما عدا هذا من الشروط المالية نوع من الإغراء، وليس بذي خطر عند الحسن، فبيت مال العراق في يده، وكور فارس كلها في يده أيضاً. وقد أهمل معاوية في كتابه شيئاً هو أخطر من كل ما ذكره، وهو تأمين أصحاب الحسن الذين حاربوا مع عليّ، وهمّوا بالحرب مع الحسن نفسه... فاحتفظ

---

(١) باقر شريف القرشي/ حياة الإمام الحسن ٢/ ٢٣١.

الحسن بشروط معاوية، وطلب إلى معاوية مزيداً هو تأمين الناس. ولكن معاوية كان أدهى من ذلك وأبرع كيداً. فقد أعطى ابن أخيه طوماراً ختم في أسفله، وقال للحسن: «أكتب ما شئت»[1].

وتسلم الإمام الحسن الكتاب، وردّ عليه إملاءً بكتاب مثله، وتختلف الروايات فيما أملاه الإمام في صحيفة الكتاب الذي أرسله إلى معاوية، ونميل منها إلى ما رواه ابن عبد البّر في الاستيعاب، قال: «إن الإمام كتب إلى معاوية يخبره أنه يصير الأمر إليه على أن يشترط عليه أن لا يطلب أحداً من أهل المدينة والحجاز ولا أهل العراق بشيء كان في أيام أبيه، فأجابه معاوية إلى ذلك، إلاّ أنه قال: أمّا عشرة أنفسٍ فلا أؤمنهم. . فراجعه الحسن فيهم، فكتب إليه يقول: إني آليت متى ظفرت بقيس بن سعد أن أقطع لسانه ويده، فراجعه الحسن إني لا أبايعك أبداً وأنت تطلب قيساً أو غيره بتبعة قلّت أو كثرت، فبعث إليه معاوية حينئذ برقٍّ أبيض، وقال: أكتب ما شئت فيه وأنا ألتزمه، فاصطلحا على ذلك وإشترط عليه الحسن: أن يكون له الأمر بعده، فالتزم ذلك كلَّه معاوية[2] وهذه الرواية أقرب إلى واقع الأحداث، وما ذكر فيها مقارب لصميم الموضوع الذي يحدب الإمام الحسن عليه السلام إلى تأمينه تأميناً مطلقاً، فقد شجرت بين أهل البيت عليهم السلام والحزب الأموي شجون وشؤون، وقد حاذر الإمام عليه السلام أن يقتص منها معاوية لو استأمر، فأكد الإمام عليه السلام على استئمان أولئك النفر من شيعة أبيه، واشترط أن يكون الأمر له من بعد معاوية، وإن كان معاوية لا يملك ذلك لنفسه ولا لغيره في تقدير الدين الحنيف، ولكنه خاطبه بمنطقه السياسي الذي عليه

(١) طه حسين/ الفتنة الكبرى ٢/ ١٨٣.
(٢) ابن عبد البر/ الاستيعاب ١/ ٣٧٠.

القوم، بشتى الطرق الوجيهة.

ولم يكتفِ الإمام الحسن عليه السلام بهذا، وإنما عمد إلى صياغة معاهدة دقيقة نشر فيها الإمام عليه السلام شروط الصلح في ضوء ما عليه القيادة الرائدة للأمة، مؤكداً على نقاط من أوثق المصادر العربية الأساسية:

١ ـ اشترط الإمام الحسن عليه السلام على معاوية: العمل بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفاء الصالحين، وأن لا يعهد لأحد من بعده عهداً[١].

٢ ـ أن يكون الأمر من بعده للحسن بن علي وبعده للحسين بن علي[٢].

٣ ـ أن لا يسميه الإمام الحسن أمير المؤمنين[٣].

٤ ـ أن يترك معاوية سبَّ أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام[٤].

٥ ـ أن يؤمن معاوية الناس جميعاً[٥].

٦ ـ أن يستوفي كلّ من قتل مع أمير المؤمنين في الجمل وصفين جميع حقوقهم المالية بما يعادل ألف ألف درهم[٦].

٧ ـ أن لا يبغي معاوية الغوائل لأهل البيت سراً وجهراً[٧].

---

(١) ظ: ابن الصبّاغ المالكي/ الفصول المهمّة/ ١٤٥.
(٢) ظ: جمال الحسني/ عمدة الطالب/ ٥٢.
(٣) ظ: ابن الجوزي/ تذكرة الخواص/ ٢٠٦.
(٤) ظ: الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ ٤٣.
(٥) ظ: الأصبهاني/ مقاتل الطالبيين/ ٢٦.
(٦) ظ: ابن قتيبة/ الإمامة والسياسة/ ٢٠٠.
(٧) ظ: المجلسي/ بحار الأنوار/ ١٠/ ١١٥.

هذه بعض فقرات المعاهدة لا بنصوصها كاملة، ولعل شروطاً وحيثيات أخرى لم نطلع عليها؛ ومقتضى كتابي معاوية السابقين فقد أقرّها معاوية جميعاً، وأَظهر الالتزام ببنودها كافة، وأشهد الإمام الحسن عليه السلام عليها جمهرة من الحاضرين.

فماذا ـ يا ترى ـ يصنع الإمام الحسن عليه السلام أكثر من هذا، وهو بالمناخ السياسي والعسكري كما رأيت، والرجال مواقف، وهذا موقف الإمام الحسن عليه السلام في سلامة من دينه، وثقةٍ من أمره، أخذ الإقرار من معاوية على نفسه تعهداً، وأبرم العقد بشروطه حيطة، وأشهد الناس عليه تثبيتاً، وهو موقف واضح لا لفّ فيه ولا دوران، وإنما جاء على سجيته في ضوء تعليمات الإسلام. تم الصلح على جملة هذه الفقرات الدقيقة، ودخل معاوية الكوفة فاتحاً لم يرزء بشيء، ودخلها الإمام الحسن أيضاً صابراً محتسباً حتى يبلغ الكتاب أجله، وكان عندها في المدائن يعالج جرحه حتى شفي منه، وتقدم الإمام الحسن عليه السلام إلى المنبر خاطباً:

«أَيها الناسُ، إنَّ أَكيسَ الكيسِ التُقى، وأَحمقَ الحمق الفجورُ، إنَّ معاويةَ نازعني حقاً هُوَ لِي دونَهَ، فنظرتُ لصلاح الأمةِ، وقطعِ الفتنةِ، وَقَدْ كُنتمْ بايعتموني على أَنْ تُسالموا من سالمتُ، وتُحاربوا من حارَبتُ، فرأيتُ أَنْ أسالمَ معاويةً، وأضعَ الحربَ بيني وبينَهُ، وقد بايعتُهُ، وقد رأيت أن حقنَ الدماء خيرٌ من سفكها، ولم أرد بذلك إلا صلاحَكُم وبقاءُكُم، وإن أدري لعله فتنةٌ لكم ومتاعٌ إلى حينٍ»[1].

وعلا الاستنكار من جهة، والاحتجاج من جهة أخرى، وبدأ

(١) الأربلي/ كشف الغمة/ ١٧٠.

التأسف والتعبير عن الألم الشديد، وكان أول نصر سجله التاريخ للإمام الحسن عليه السلام وهو ومعاوية في مسجد الكوفة، فقد خطب معاوية:

«يا أهل الكوفة: إني والله ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا ولا لتحجوا ولا لتزكوا، وإنكم لتفعلون ذلك، ولكني قاتلتكم لأتأمر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون.

ألا وإني قد منيت الإمام الحسن بن علي أشياء، وأعطيته أشياء وجميعها تحت قدمي، لا أفي بشيء منها»[1].

في مجلس معاوية هذا، ظهرت للناس حقيقة ربما كانت مغلّفة من ذي قبل، وذلك أن معاوية رجل ملك لا صاحب دين، وأن قتاله لهم من أجل الأمرة لا أكثر ولا أقلّ، وأن غدره بشروط الصلح مع الإمام الحسن عليه السلام وقد أخذ عليه المواثيق والأيمان لا يمت إلى الإسلام بصلة لا من قريب ولا من بعيد، وكان هذا بحدّ ذاته نصراً مبيناً للإمام الحسن عليه السلام في المستوى الأخلاقي والديني، أفاق معه المغرّرون على حقيقة المعركة القائمة بين الحق والباطل، فاندفع قيس بن سعد بن عبادة إلى القول:

«لقد اعتضتم الشر من الخير، واستبدلتم الذّل من العِزّ، والكفر من الإيمان، فاصبحتم بعد ولاية أمير المؤمنين وسيد المسلمين، وابن عم رسول ربّ العالمين، وقد وليكم الطليق ابن الطليق، يسومكم الخسف، ويسير فيكم بالسيف، فكيف تجهل ذلك أنفسكم، أم طبع الله على قلوبكم وأنتم لا تعقلون»[2].

---

(١) الشيخ المفيد/ الإرشاد/ ١٧٣.

(٢) اليعقوبي/ تاريخ اليعقوبي ٢/ ١٩٢.

قال قيس قوله هذا، بمسمع وبمشهد من معاوية، وبمنتدى ومجمع من الكوفيين، فقام معاوية وأكبّ على قيس ومسح يده، وقيس لم يرفع يداً، ولم يخفض رأساً، واستسلم للمقادير موقتاً، ولا يخالف نهج الإمام، بل ليتخذ مع الإمام عليه السلام موقفاً جديداً في واقع جديد.

وكان طبيعياً أن يجابه موقف الإمام عليه السلام بشيء من المعارضة العلنية أو الخفية، وأن يقابل بشيء من السخط وعدم الرضا، قد يدفع به الولاء للإمام حيناً، وقد يتأتى من التفكير المضاد في المصير المؤلم، وكلاهما ينبعان من مصدر الإخلاص للمبادىء، ولكن ذلك كان من قبيل الاندفاع اللاشعوري حتى ليتجاوز حدود الأدب واللياقة، والناس قد تنجرُ وراء الأحاسيس دون تعقل وتفكير، ومهما يكن من أمر فقد طفحت ضفتا الكاس دون تحفظ، وخرج الأسى بأصحابه عن الاتزان، والثأر للكرامة قد يتعدى المعقول وينفجر كالبركان الهائج، والإمام يضع كل ذلك في ميزان الصبر تارة، ويقابله بإيضاح الدواعي تارة أخرى، وليس كل الناس يستجيب، ولا كل الناس يقتنع، والفورة على أشدّها، فقد يدفع الحماس بعضهم فيدع الحسن إلى الحسين عليه السلام، مطالباً إياه بالثورة قبل إبانها:

«دَعِ الحسن وما رأى من هذا الصلح، واجمع إليك شيعتك من أهل الكوفة وغيرها، وولني وصاحبي هذه المقدمة، فلا يشعر ابن هند، إلاّ ونحن نقارعه بالسيوف»[1].

وقد حصل هذا المعنى للصحابي الجليل عدي بن حاتم الطائي،

---

(١) الدينوري/ الأخبار الطوال/ ٢٠٣.

وهو يطمح فيه أن يستجيب له الإمام الحسين عليه السلام في منابذة معاوية ومقارعته بالسيوف.

وقد تستولي على بعضهم المشاعر الجياشة فيهتف بالإمام صارخاً:

«أما والله، لو وددت أنك ميت في ذلك اليوم، ومتنا معك، ولم نر هذا اليوم، فإنا رجعنا راغبين بما كرهنا، ورجعوا مسرورين بما أحبّوا»(١).

والإمام يجيب عن كل هذه الانفعالات والتساؤلات إجابات إقناعية يطيّب بها خواطر الناس، وقد يغضب معاوية أيضاً فيما يقول الرواة. فقد خطب الإمام الحسن عليه السلام في مسجد الكوفة قائلاً:

«إن هذا الأمر الذي سلمته لمعاوية إمّا أن يكون حق رجل كان أحق به مني فأخذ حقّه، وإما أن يكون حقي فتركته لصلاح أمة محمد وحقن دمائهم، فالحمد لله الذي أكرم بنا أوّلكم وحقن دماءَ آخركم»(٢).

وكان الإمام عظيم الحلم حينما يستمع إلى الكلام القارص، وهو لا يحفل به، بل يقابله بالإغضاء حيناً، وباستئناف الحرب حيناً آخر، لقد استمع الإمام إلى من يقول له: السلام عليك يا مذلّ المؤمنين، واستمع إلى من يقول: السلام عليك يا مذّل العرب، ولكنه قابل ذلك كله بالصدر الرحيب، وبمنطق الصدق السليم، فقد قال مرةً:

«إني رأيت هوى معظم الناس في الصلح، وكرهوا الحرب، فلم أحبّ أن أحملهم على ما يكرهون، فرأيت دفع هذه الحروب إلى يوم

---

(١) ابن شهراشوب/ المناقب ٢/ ١٦٩.

(٢) ظ: طه حسين/ الفتنة الكبرى ٢/ ١٨٥.

ما، فإن الله كل يوم هو في شأن»[1].

استطال هذا الاحتجاج عليه، وهو لا يعبأ به، وجمع أهل بيته وعيالات أبيه، وغادر الكوفة إلى المدينة، بعد أن أعذر في الخطاب، وصرّح بدقة متناهية في البيان، فقال بالحرف الواحد:

«والله ما سلّمت الأمر إلا لأني لم أجد أنصاراً، ولو وجدت أنصاراً لقاتلته ليلي ونهاري حتى يحكم الله بيني وبينه، ولكن عرفت أهل الكوفة وبلوتهم، ولا يصلح لي منهم من كان فاسداً، وإنهم لا وفاء لهم، ولا ذمة في قول ولا فعل، إنهم لمختلفون، ويقولون لنا: إن قلوبهم معنا، وإن سيوفهم لمشهورة علينا»[2].

وبهذه الإضاءة السريعة والمعبّرة ختم الإمام الحسن عليه السلام القول في الكوفة، وحسم مادة النزاع، ودخلها معاوية منتصراً فيما يزعم، ولكن الأمر ينتقض عليه من بعض جوانبه فجأة، ويثور عليه الخوارج، فيكتب إلى الإمام الحسن عليه السلام وهو في طريقه إلى المدينة؛ أن يعود إلى الكوفة ليتولى قيادة الجيش في حرب الخوارج، وبذلك يتخلص من الفريقين، فكتب إليه الإمام:

«لو آثرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ أَحَداً مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ لَبَدأتُ بِقِتالِكَ، فإنّي تَرَكتُكَ لِصلاحِ الأُمَةِ وَحَقْنِ دِمَائِها»[3].

وألقى الإمام الحسن عليه السلام رحله في المدينة المنوّرة لا ليهدأ ويستقر، بل ليعمل جاهداً في ضوء واجبه الرسالي، وساعده على هذا العمل بحدود ما، تنبه أهل الكوفة لسيرة معاوية، فقد رأوا من الأحكام

(١) الدينوري/ الأخبار الطوال/ ٢٠٣.
(٢) باقر شريف القرشي/ حياة الإمام الحسن ٢/ ٢٨٢.
(٣) ابن الأثير/ الكامل في التاريخ ٣/ ٢٠٨.

الجائرة ما لم يروه، ولمسوا من الذل والهوان ما لم يتوقعوه، وإذا بمعاوية يمثل الطاغوت في الأرض، وإذا بولاته يتمثلون الجبارين، وإذا بهم فريسة العذاب والاضطهاد والحرمان، فحنّوا حنين الإبل الهيم إلى حياتهم الأولى أيام علي عليه السلام ، وندموا على ما فرّطوا في جنب أهل البيت ندماً شديداً، سامهم معاوية كأساً مصبّرة من الابتزاز.

وانهار بنيان دولتهم وعاصمتهم الكوفة، وانتقلت القيادة إلى الشام، ونقلتْ بيت المال إلى دمشق، وانتهت أيام العزّ والرخاء، وأَقبلت الفتن السوداء تصبحهم وتماسيهم، فعادوا تابعين أذلاء بعد أن كانوا متبوعين أعزاء، وأصبحوا رعية يساسون بعد أن كانوا قادة يسوسون، ورأوْا في معاوية غولاً يلتهم كل شيء، ولا يمنحهم أي شيء.

«المعارضة ومنهجية الحكم الأموي»

كانت سنة إحدى وأربعين من الهجرة عام الجماعة فيما يزعمون، لأن الناس قد اجتمعوا فيه على أمير واحد[1].

هذا العام في حقيقته هو عام الفرقة الكبرى بين أبناء الدين الواحد، فقد صفا فيه الملك لمعاوية دون منازع، استأثر بالسلطة فتسلط على الرقاب بأثرة لا نظير لها، وعضّ بناجذه على السلطان بقوة ضارية لا يقف بطريقها أحدٌ، واستصفى الحقوق والأموال بنهم وشراهة، وقرّب زمر الحقد والغدر والخيانة، وأنعم عليهم بالولايات المترفة، وأسبغ على أبناء الطلقاء بالمناصب الفخمة، واحتكر لنفسه القرار بكبريات الأمور وصغرياتها، فكان دكتاتورياً سفاكاً بأدق معاني هذه الكلمة لابتداعه من الأحكام العرفية ما ضجّ معه الناس، واتبع من سبل الظلم كلّما هو جديد على المسلمين، السواد يدفعون ضريبة الدم ولا ينعمون بأي امتياز يذكر، والأبرار في شظف من العيش وجفوة من الولاة، والأتقياء تتحكم بهم الفجرة والداعرون، لا يسلم من القتل إلا المتملّق، ولا ينجو من الهلاك إلا المتزلّف، ولم يفِ للإمام الحسن عليه السلام بأيّ مما اشترط على نفسه، وما وفى للمسلمين بعدل في حكمه، ولا وسع الناس بحلمه المزعوم، وإنما استبدّ استبداداً مطلقاً لا عهد للحياة السياسية به، وقلب الموازين رأساً على عقب، فجأر الشعب

(١) ظ: ابن كثير/ البداية والنهاية ٨/ ٢١.

المسلم فأغاثهم السيف يحصدهم حصداً، وأنكر بعض من انكر فاخمدت الأنفاس بالإرهاب الدموي، وتنادى الثائرون فسالت الدماء كل مسيل.

على أن الأمر لم يستوسق لمعاوية على وجهه المراد، فلم تخضع له أقاليم الدولة الإسلامية أجمع، فهنالك الشيعة في العراق وفي اليمن وولاؤهم لآل علي عليه السلام معروف وإن تقلبت بهم الأهواء، وهنالك الخوارج الذين يجمعهم مع الشيعة العداء المشترك لمعاوية، وهناك المحافظون الذين نفروا من سياسة الحيف والاضطهاد، وسئموا من حياة العبث واللهو والبذخ، وهنالك الثائرون من المحرومين والضعفاء ممن لا يجمعهم ولاء معين، ولكن قد يوحدهم عداء معين للحكم، وهناك القبائل المتنافرة بين التأييد والتفنيد، وهناك القلة الصامدة بوجه الطغيان لا تأخذها في الحق لومة لائم. وهناك وهناك. . .

وكان المناخ السلبي الذي يواجه معاوية، وهو أكثر تعقيداً وأشد خطورة عليه متمثلاً في المسلمين الحقيقيين من هؤلاء وسواهم ممن رأى أن استبداد معاوية بالسلطة يعني اختفاء مبادىء الإسلام، كما يعني انتصار القيم الجاهلية، وهذا ما كان يثير في نفس معاوية الشكوك فلا يقرّ له قرار، وهو في ضوئه لا يأمن تضافر الجهود المضادة لحكمه، ولا يستبعد التقاء الأنماط الشاجبة لسلوكه، فبدأ مخططاً إجرامياً يبدد به هذه المخاوف، ويقضي به على كل العقبات في وجه سلطانه، فعمل على تمزيق الوحدة المعادية له، وسعى إلى إشغالها بمشاكلها الداخلية عن التفكير بمساوىء الحكم وعداء السلطة.

يقول الأستاذ الشيخ محمد مهدي شمس الدين:

«ولقد واجه معاوية هذه الموجة العارمة من البغضاء التي قوبل بها

حكمه، بأنماط جديدة من السلوك كان منها ـ ولعله أهمها ـ ضرب القوى العقائدية المعادية للحكم الأموي بعضها ببعض، وإثارة الروح القبلية على نطاق واسع يكفل له انشقاق القبائل بتأثير أحقادها الصغيرة، ويخلق بينها حالة من التوتر، تجعل من المتعذر عليها أن تتوحد، وأن تنظر إلى الحكم الأموي نظرة موضوعية، وبذلك فاز معاوية بتفتيت المعارضة بعوامل داخلية تنبع من صميم المعارضة نفسها»[1].

لقد لجأ معاوية بخبث ومكر إلى اتباع منهجين جديدين للقضاء على المعارضة الداخلية، وهذان المنهجان المبرمجان يتمثلان في إثارة العصبية القبلية حيناً، وتسخير بيت المال حيناً آخر، فهو يشغل القبائل فيما بينها فيصفو له الملك، وهو يسخّر أموال المسلمين في اجتذاذ الألسن، واستمالة القلوب، واتخام المقربين، بينما يقطع عوائد المحرومين، ويمنع من رفد المعارضين، ويمعن في إذلال الجميع وادقاعهم، فبيت المال في سياسته ذو حدين قاطعين:

الأول: هبة الأُعطيات الضخمة للأتباع والمتملقين والأولياء.

والثاني: حرمان المعارضة والمستضعفين من حقوقهم المشروعة.

ولإلقاء الضوء على هذين المنهجين لا بد من استيفاء البحث عنهما بشيء من التفصيل، نظراً لأهميتهما في مسيرة الأحداث.

أ ـ إثارة العصبية القبلية: كانت الكوفة مزيجاً من أجناس مختلفة، وخليطاً من عصبيات متناحرة، فيها العربي المسلم والعربي غير المسلم من نصارى الحيرة، وفيها الفارسي المستعرب والديلمي المولى، وفيها

(١) محمد مهدي شمس الدين/ ثورة الحسين/ ٦٧.

الذميّ الذي احتفظ لنفسه بدينه مقابل جزية يدفعها للحماية، وفيها من أسلم من هؤلاء وبقيت رواسب دينه القديم تطغى على معتقداته في دينه الجديد، فهي لم تنقشع كلها، ولم تترسخ كلّها، فكان بين من يغترف من هذا ويغترف من ذاك، وكان في الكوفة أسرى وسبي قتال، قذفت بهم الفتوح، منهم من أسلم فعاد حراً طليقاً، ومنهم من تأرجح بين الحرية والمولوية، ومنهم من استُرِقَّ فعاد مولىً مملوكاً، وكل هؤلاء في حمى الإسلام ورجال دولته الفتية، إلا أنهم أثّروا في حياة المسلمين تأثيراً بالغاً، وكثروا بشكل يلفت النظر حتى عادوا يضاهون العرب، أو يفوقونهم عدة وعدداً.

وكان العرب يعتقون المماليك حيناً، وتبقى الرابطة قائمة بالولاء، وقد يبيعون الولاء مع بقاء الرّق حيناً آخر، ويسلم طوعاً أو كرهاً من يعتنق الإسلام من الأرّقاء على يد بعض المسلمين فيكون ولاؤه لهم، وبهذا تداخل العرب بغير العرب، وامتزج الدم العربي بسواه من الدماء الأجنبية، فلم يعد عربياً محضاً، وإنما كان خليطاً من دماء أخرى تسربت إليه بالسراري والجواري فارسية ورومية وديلمية، وكان من جرّاء هذا الاختلاط أن تغلب الموالي الجدد على السكان العرب القدامى، ولمّا كان الموالي تبعاً لساداتهم في كثير من الأعراف القبلية فهم في حمايتهم أولاً، وهم أتباعهم ثانياً، وهم دروعهم في الأزمات ثالثاً، وكان العربي يخوض الحرب بأهله ومواليه، ويفرض السلم أحياناً بكثرة الموالي، وهذا يعني تأثير هذه العناصر في أنظمة الحياة العقلية والحربية وحتى المالية إذ تمرس أولاء الموالي في شتى الحرف والصناعات حتى عادوا حرفيين حذقة، وبرزوا في التجارة حتى كانوا مضاربين في الأسواق، وأحكموا مداخل البيع والشراء والمعاوضة حين أشير إليهم بالبنان، واستخدموا في الزراعة ومنتجات المواشي والألبان

وما أنفوا منها، وكان كل هذا يصّب في رافد التأثير السياسي العام في مناخ السلطان القائم، حتى لقد تَخَوفَهم الحاكمون، وحسبوا لهم الحساب الدقيق، وطالما فكّروا بالبطش بهم، فهذا معاوية يقول:

«إني رأيت هذه الحمراء قد كثرت، وكأني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان، فقد رأيت أن أقتل شطراً، وأدع شطراً لإقامة السوق وعمارة الطريق»[1].

وقد لوحظ في هذه الأثناء تضاؤل العنصر العربي حيوية، وميله إلى الدعة والخمول والتواكل، بينما تطاول العنصر الأعجمي نشاطاً وقوة.

وكان هذا الجو متألباً في الكوفة أكثر من سواها من الحواضر الإسلامية لقربها من دارة الفتوح أولاً، ولاستمرارية الصراع الداخلي فيها ثانياً، وهذا لا يعني انخفاض النسبة في بقية الأقاليم، فالموالي منتشرون في كل من مكة والمدينة واليمن والشام، إلا أن ظاهرتهم في العراق هي الأكثر تواجداً، ومعاوية إنما يهمّه اخضاع العراق وبسط النفوذ فيه، وكان العرب يضطهدون هؤلاء الموالي، فهم مواطنون من الدرجة الثانية، وهم المسلمون هامشياً في نظرهم القبلي، ولا يرتضونهم شركاء لهم في المجالات العامة والخاصة إلا لماماً، فكأن حياتهم كانت أقرب إلى الإمتهان منها إلى الكرامة، وقد عمل معاوية بوسعه على إقرار هذا الهوان للموالي لأغراض سياسية بعيدة المدى، فقد تنبه إلى هذا الخطر الداهم في حسابه السكّاني، فعسى أن يستجيب هؤلاء إلى نداء محرّر ما في يوم ما، وعسى أن يتجمعوا حول ثائر في محاولة لإعادة الاعتبار وصيانة الحقوق المهدورة، وهناك هدف مشترك

---

(١) ابن عبد ربه/ العقد الفريد ٢/ ٩٠.

جذري في امتهان الموالي، هذا الهدف يجمعهم في وحدة سياسية مع الشيعة والخوارج، فهؤلاء وسواهم يشكلّون خطر المعارضة الحقيقي ضد السلطان الأموي، فلجّ معاوية إلحاحاً في إثارة العصبية القبلية بين القبائل العربية نفسها، وسعى جاهداً إلى إحياء النعرة العنصرية بين العرب والموالي، فكانت الحصيلة التخلص من أعداء الحكم حيناً، والإيقاع بالشيعة والخوارج والموالي على حد سواء حيناً آخر، ليخلص له الحكم وحده، وهكذا كان.

لقد استطاع معاوية بمكره وغدره أن يضرب قبائل الشعب المسلم بعضها ببعض، وقد أيد العرب تأييداً مطلقاً على الموالي، وقد شق القبيلة الواحدة على نفسها انشقاقاً خطيراً، وقد مهّد السبيل إلى المنافرات والمناقضات بأصولها الفنية فيما بعد، وهو يدعم هؤلاء على هؤلاء، وينتصر لأولاء على أولئك، حتى عاد الناس في سلطانه في تيه لا أول له ولا آخر، وإنه ليصعب على الثائر المصلح آنذاك استدراك الحال وتصحيح الأخطاء.

يقول الدكتور أحمد أمين: «ولمّا ولي الأمويون الخلافة عادت العصبية إلى حالها كما كانت في الجاهلية... وعاد النزاع في الإسلام بين القحطانية والعدنانية، فكان في كل قطر عداء وحروب بين النوعين، وإتخذوا في كل صقع أسامي مختلفة، ففي خراسان كانت الحرب بين الأزد وتميم، والأولون يمنيون والآخرون عدنانيون، وفي الشام كانت الحرب بين كلب وقيس، والأولون يمنيون والآخرون عدنانيون»[1].

وفي الكوفة كان الصراع على أشدّه بين عرب الجنوب وعرب الشمال، وقد تقدم أن الدماء كانت تسيل بينهما لأتفه الأسباب. ولقد

(١) أحمد أمين/ فجر الإسلام/ ٧٩.

تنبأ الإمام علي عليه السلام وأدرك بحكمته الثاقبة أن معاوية سيلجأ من بعده إلى العصبية فحذّر الناس من شرورها، ودعا إلى مناجزتها، بما رواه الطبري:

«وإذا رَأَيْتُمْ الناسَ بَينَهم النائرةُ، وقد تَواعَدوا إلى العَشائرِ والقَبائلِ فأقصدوا لِهامَتِهم ووجوهِهم بالسيف حتى يَفزَعوا إلى الله، وإلى كِتابِهِ وسنةِ نبيِهِ، فأمّا تِلكَ الحَمِيّةُ فإنّهَا مِنْ خَطَراتِ الشياطينِ فأنتَهُوا عَنْهَا لا أباً لَكُمْ تُفْلِحُوا وَتَنْجَحُوا»[1].

ولم تكن هذه السياسةُ هي اللونُ المُفَضّلُ عند معاوية بالنسبة إلى سائر القبائل فحسب، بل كانت بهذه الصفة عنده حتى بالنسبة لأسرته الأموية ذاتها، فقد كان كما يقول فلها وزن يسعى إلى أن يدخل القطيعة بين مختلف فروع الأسرة الأموية بالمدينة ليقضي بذلك على شوكتهم.[2]

أما في العراق فكان ادراك معاوية لولاء اليمن لأمير المؤمنين عليه السلام في قبائلها مذحج وكنده وهمدان وسواها مما يقضّ عليه مضجعه، وقد حاول النفوذ إلى دواخل هذه القبائل فاستطاع اختراق بعض أفرادها وجعلهم عملاءَ لَهُ، إلاّ أنه لم ينتفع بذلك تماماً ورأى الأولى أن يتعصب لمضر العراق ضد اليمن، وهكذا كان.

«أما في الشام فتراه يتعصب لليمن على مضر، فقد تقرب إلى قبيلة كلب اليمانية، فتزوج ميسون أم يزيد، وهي ابنة بجدل الكلبي زعيم قبيلة كلب، وزوج ابنه يزيد من هذه القبيلة أيضاً، وقد اعتمد في

---

(١) الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٤/ ٨٤.

(٢) ظ: محمد مهدي شمس الدين/ ثورة الحسين/ ٦٧ وانظر مصدره.

حروبه ومؤامراته على هذه القبيلة، وعلى قبائل اليمن الأخرى: عك، والسكاسك، والسكون، وغسان، وغيرها، واضطهد مضر الشام، فلم يفرض عطاء لقيس، وهي من مضر، لثقته العظيمة بكفاءة أنصاره اليمانيين»[1].

وأنت ترى في هذا المنحى دقة معاوية في التماس مظّان التعصب القبلي، فهو يبرمجه بحسب ما تمليه عائدية آثاره في استصفاء السلطان، فتارة يستّغل شعراء بلاطه لإثارة التمايز العرقي، وأخرى يدعو ولاة أقاليمه إلى إحياء النزعة الجاهلية في القبيلة القديمة، وأحياناً يلجأ إلى ذرائع أخرى توغر بين القبائل الصدور فتتدافع الأحقاد كالموج الطاغي في متاهة من التنافس الباطل الذي قضى عليه الدين الجديد، وإشغالهم في معارك هامشية ما أنزل الله بها من سلطان، كالذي حاوله وحققه بين الأوس والخزرج، وهما حيّان مواليان لأهل البيت في الجملة، فألقى بينهما شرارة ما تهاجياً به في الجاهلية من الشعر، وطرحه في ساحة الغناء السياسي، فأكبّ عليه المغنّون ولحنّوه«وكان طويس ولعاً بالشعر الذي قالته الأوس والخزرج في حروبهم، وكان يريد بذلك الإغراء، فَقَلَّ مجلس اجتمع فيه هذان الحيّان فغنّى طويس، إلا وقع فيه شيء، فكان يبدي السرائر، ويخرج الضغائن»[2].

وما اكتفى بهذا حتى حاول إيقاد الفتنة والشر بين قريش والأنصار، واتكأ في هذه المرّة على الأخطل التغلبي شاعر البلاط الأموي، وحرضّه على الأنصار في هدف مزدوج، فالأنصار بعامة مع أمير المؤمنين عليه السلام، والأنصار في قبال المهاجرين من قريش، فهجا

---

(١) محمد مهدي شمس الدين/ ثورة الحسين/ ٧٠.
(٢) الأصبهاني/ الأغاني ٢/ ١٧٠.

الأخطل الأنصار هجاءً مرّاً في قوله: [1]

ذَهَبَتْ قُرَيشٌ بالمَكَارمِ كلِّها وَاللؤمُ تَحتَ عَمائِم الأَنصَارِ

مما أحدث شرخاً بيّناً بين المهاجرين والأنصار بلغ فيه معاوية البعد الاستراتيجي في الأهداف، وهذا غيض من فيض ما استغله معاوية في إثارة العصبية القبلية التي وأدها الإسلام، فأعادها جذعة، ودأب على إحيائها من جديد.

ب ـ **تسخير بيت المال**: وحينما دخل معاوية الكوفة بعد الصلح، وتمّ له امتلاك العراق بموارده ومصادره، كان أول عمل قام به أن نقل بيت المال من الكوفة إلى دمشق، وزاد في جرايات أهل الشام وحطّ من جرايات أهل العراق[2].

وكان معاوية يستصفي لنفسه الذهب والفضة، ويوفر على بيت ماله العملة الصعبة، ويحتجن كل ذلك لأغراضه السياسية، فهو يبتاع الضمائر، ويهيىء الرجال، ويستخلص الولاء السياسي.

وقد لخص سياسته المالية بقوله: «الأرضُ للهِ، وأنا خليفةُ اللهِ، فما آخذ من مال الله فهو لي، وما تركته كان جائزاً لي»[3].

واستبد الحرمان بالطبقات الفقيرة عامة، وبالكوفيين خاصة، وبشيعة أمير المؤمنين بوجه أخصّ، فقد كتب معاوية إلى عمّاله كافةً:

«انظروا إلى من قامت عليه البينّة أنه يحبّ علياً وأهل بيته فأمحوه من الديوان، وأسقطوا عطاءه ورزقه، ومن اتهمتموه بمولاة هؤلاء القوم

(١) أحمد الشايب/ تاريخ الشعر السياسي/ ٣٠٩.
(٢) ظ: فلهاوزن/ الدولة العربية وسقوطها/ ١٥٨.
(٣) ابن أبي الحديد/ شرح نهج البلاغة / ١١/ ٤٤.

فنكّلوا به وإهدموا داره»[1].

وعمد معاوية أيضاً الى حرمان بني هاشم جميعاً من العطاء بعد وفاة الامام الحسن عليه السلام حتى يبايع الحسين عليه السلام ليزيد فيما يزعم[2].

وفي الجانب المقابل جعل معاوية أهل الشام في بحبوحة من الرخاء والعيش المترف الباذخ، شمل بذلك الجيش والقادة، حتى أنه كان ينفق على جيشه في الشام ستين مليون درهم في السنة، وكان جيشه مكوناً من ستين ألف جندي، أي بمعدل ألف درهم للجندي الواحد[3].

وكان هذا العطاء مبلغاً ضخماً آنذاك يوفر الرخاء والترف والعيش الرغيد.

كان هذا العطاء المرتّب شيئاً، وهباته التي لا تخضع لحساب شيئاً آخر، فقد وهب عمرو بن العاص مصر طعمة له بخراجها وخيراتها ومعادنها، حتى استبدّ بابن العاص خزن الأموال السائلة والجامدة من حلّها ومشتبهها لحد الإسراف.

والأغرب من هذا أن يمعن معاوية بامتصاص عيون الأموال، واصطفاء كريم المعادن، لتنفيذ الخطط السياسية في انتعاش القبائل الموالية له في الشام، والترفيه عن الأسباط والأصهار وبني أمية، والسيطرة على موارد الدولة في أعزّ ما تملك، وتجريد المضطهدين من كلّ حقّ يجوز لهم، وحرمان المستضعفين في الأرض من أبسط حرياتهم الحقوقية، ليكون ذلك كله له وحده، وطعمة لمن يدور في فلكه

---

(١) المصدر نفسه ١١/ ٤٤ وما بعدها.

(٢) ظ: ابن قتيبة/ الإمامة والسياسة ١/ ٢٠٠.

(٣) حسن إبراهيم حسن/ تاريخ الإسلام السياسي ١/ ٤٧٥.

السائر، فقد كتب إلى زياد ابن سمية عامله على العراق يقول له:

«اصطفِ لي الصفراء والبيضاء، فكتب بذلك إلى عماله، وأمرهم أن لا يقسموا بين المسلمين ذهباً ولا فضة»[1].

وليت معاوية اكتفى بهذا، وسدّ نهمه بالكثير مما شرع زوراً وافكاً وطغياناً، ولكنه أمعن فاضحاً في هذا الملحط، لا يراقب فيه أحداً، ولا يشاور فيه عاملاً، ولا يجد حرجاً في كل ما يفرض من بدع واختراعات، فقد ذكر الأستاذ جرجي زيدان: أن صاحب «أخنا» بمصر سأله أن يخبره عن مقدار ما عليه من الجزية، فأجابه معاوية مراسلاً:

«لو أعطيتني من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ما عليك، إنّما أنتم خَزَنَة لنا، إن كثر علينا كثّر عليكم، وإن خفف عنا خففّنا عنكم»[2].

وهذا الكتاب كما يعبر عن النهم الفاحش، فإنه يعبّر عن الغطرسة والاستيلاء باعتبار الولاة خزنة للحاكم لا للأمة. وهكذا كان ديدن معاوية في معاملته اللاإنسانية في استباحة الأموال، فقد سلط على الكوفة المغيرة بن شعبة، يجبي له الخراج، ويضمن له السواد ويستصفي له ما لذّ وطاب، مكتفياً بالنفقات المجزية على الحزب الأموي في الكوفة وهو ضئيل العدد نسبياً، ومؤكداً على حرمان الموالي والشيعة والخوارج من العطاء، وغادرت الخزائن الكوفة إلى دمشق تلبّي رغبات معاوية.

وكتب معاوية إلى عامله على مصر:

---

(١) جرجي زيدان/ التمدن الإسلامي ٤/ ٧٩.

(٢) المصدر نفسه ٤/ ٧٩.

«أن زدْ على كل امرىء من القبط قيراطاً، ولكن وردان كان أعدل من معاوية، فكتب إليه: كيف أزيد عليهم؟ وفي عهدك أن لا يزاد عليهم»[1].

وهكذا حرم المسلمون من أموالهم، لتنفق هذه الأموال على الزعماء القبليين والقادة العسكريين، وزمر الكذّابين على الله ورسوله[2].

فقد جنّد معاوية طائفة من ذوي الضمائر المنزوعة، وأمدّهم بالأموال الطائلة من أجل اختلاق الأخبار ونحل الروايات ضد أمير المؤمنين وأهل البيت عليهم السلام قال ابن أبي الحديد: «ذكر شيخنا أبو جعفر الإسكافي أن معاوية وضع قوماً من الصحابة، وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي عليه السلام، تقتضي الطعن فيه، والبراءة منه، وجعل لهم على ذلك جُعلاً يرغب في مثله، فاختلقوا ما أرضاه، منهم: أبو هريرة، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، ومن التابعين عروة بن الزبير»[3].

وكانت الهِبات الطائلة تعطى بسخاء منقطع النظير لهذه الفئات واضرابها، افتراءً على رسول الله بما لم يقل، من أجل توطيد أصول الحكم الأموي بصبغة دينية من جهة، ولغرض النيل من منزلة أمير المؤمنين من جهة أخرى. فقد أعطى معاوية سمرة بن جندب أربعمائة ألف درهم على أن يروي أن هذه الآية﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى

---

(١) حسن ابراهيم حسن/ تاريخ الإسلام السياسي ١/ ٤٧٤.

(٢) ظ: محمد مهدي شمس الدين/ ثورة الحسين/ ٥٩.

(٣) ابن أبي الحديد/ شرح نهج البلاغة ٤/ ٦١.

﴿الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[1] أنها نزلت في الإمام علي بن أبي طالب.

وإن الآية الثانية نزلت في عبد الرحمن بن ملجم، وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[2] فروى ذلك.[3]

وهذا باب واسع جداً لا يمكننا استقصاؤه لأنه يخرج البحث عن صميم خطته الإشارية، ولكننا نستطيع القول بأمانة أن معاوية قد أطلق العنان لنفسه في اغتصاب أموال الرعية، فأعطى من شاء، ومنع من شاء، تبعاً لرغبات سياسية دقيقة، ونزولاً عند هوى جامح وشح متبّع، فقد بنى القصور الفارهة تجلب لها المعازف والقيان والجواري، وقد أولم المآدب الفخمة تستطاب بها الألوان، وقد أغدق على وعّاظ السلاطين والفقهاء الرسميين ممن ابتدعوا له فتاوى الضلال، وقد أتخم الكَذَبَةَ من الرواة والمنتحلين ممن سيروا النصوص الباطلة بالمال الحرام، حتى لقد استشرى به هذا الداء الوبيل، وابتدع في الإسلام ما لم يكن في هذا الاتجاه، وابتكر ما لا عهد للمسلمين به من ذي قبل، فقد:

«فرض ضريبة على الأهالي تقدّم إليه يوم النوروز، فكان يجني منها عشرة ملايين درهم، وهو أول من استصفى أموال الرعية»[4].

وفي ظل هذه السياسة المالية الهزيلة، أفاق المسلمون عامة،

---

(١) سورة البقرة/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٢) سورة البقرة/ ٢٠٧.

(٣) ابن أبي الحديد/ شرح نهج البلاغة ٤/ ٧٣.

(٤) جرجي زيدان/ التمدن الإسلامي ٢/ ١٩.

والعراقيون خاصة على أساليب تبتدع، ومقاييس تستحدث، فيها الإسراف الجائر والاستغلال الفظيع، فلا تصان لهم حقوق مفروضة، ولا تستنزل لهم أرزاق معلومة، فقدوا كل شيء، ولم يحصلوا أي شيء، فشيّعوا حقوقهم بالدموع، وودّعوا متطلباتهم بالحسرات.

وقد أجمل الأستاذ فلهاوزن هذه الحال بقوله:

«لقد غُلِبَ أهل العراق في صراعهم مع أهل الشام... وضاع منهم دخل الأراضي التي استولوا عليها، وصار عليهم أن يقبلوا بأجور هي فتات موائد أسيادهم، وكانوا مغلوبين على أمرهم، تغلبهم عليه تلك الصدقات التي هم محتاجون إليها، والتي في أيدي الأمويين تخفيفها أو إلغاؤها، فلا عجب أن يروا في حكم أهل الشام نيراً ثقيلاً، وأن يتأهبوا لدفعة متى سنحت الفرصة لهم بذلك... عمال يسيئون استعمال سلطانهم، وأموال الدولة تذهب إلى جيوب عدد قليل من الناس، بينما لا يحصل غيرهم على شيء»(١).

والشيء المهم الذي أدركته القلة النادرة وجهله الكثيرون: أن هذه الأموال قد جندت تجنيداً رسمياً دقيقاً، فلا تصرف إلا بحساب، ولا تعطى لأحد إلا بحساب، فهي تستعمل في اتساع النفوذ السياسي لمعاوية، وهي تسخر لاغتيال أعدائه، وهي تنعش صفوف المرتزقة من أتباعه، تحرم من تشاء بلا منكر، وتتخم من تشاء بلا رادع، حتى برزت في الساحة طبقتان: طبقة عليا من المتمولين سحتاً وابتزازاً، وطبقة دنيا من المحرومين ظلماً وعدواناً.

---

(١) فلهاوزن/ الدولة العربية وسقوطها/ ١٥ وما بعدها.

«الجديد في برنامج معاوية السلطوي»

وما اكتفى معاوية بسياسته الدكتاتورية المتسلطة عند العصبية القبلية في افرازاتها الجاهلية المريرة، ولا وقف عند تسخير بيت المال لابتياع الضمائر واستخلاص الولاء، حتى عمد إلى برنامج جديد صارم سوّى به الحساب مع معارضيه وأعدائه في مظاهر الإبادة الجماعية.

الأول: ملاحقته أتباع أهل البيت عليهم السلام تحت كل حجر ومدر.

الثاني: سياسة الإرهاب الدموي في خصومه على الظنة والتهمة.

وبتنفيذ هذا البرنامج الخطر يكون معاوية قد نزع يده عن جوهر الشروط التي اشترطها على نفسه للإمام الحسن عليه السلام في الصلح.

ولا بد للبحث من الوقوف استدلالياً عند هذين المظهرين الطائشين.

أ ـ ملاحقة أتباع أهل البيت عليهم السلام

تتبع معاوية أتباع أهل البيت عليهم السلام وأشياعهم بشكل فظيع لم يتحدث تاريخ الطغاة بأبشع منه صورة، فقد تعقب هؤلاء الأبرار بكل قسوة وقوة، وجنّد لذلك إمكاناته وعماله وولاته، حتى ضعف شيعة أهل البيت من شدة البطش، وضعفوا من قوة الملاحقة، حتى أن الرجل

ليفضل أن يقال له: أنه زنديق أو كافر، ولا يقال عنه أنه من شيعة علي عليه السلام[1].

وكان الهيكل الدرامي في متابعة هؤلاء يمثل في إعلان الأحكام العرفية، وهي تحمل في طياتها صنوفاً جديدة من العقوبات المبيدة والهائلة، ومن مفردات هذه العقوبات:

١ ـ حزّ الرؤوس وفصلها عن الأجساد وتسييرها في البلاد.

٢ ـ خلع الأكتاف وقطع الأطراف وإبانتها عن الأجسام تشفياً ونكاية.

٣ ـ القتل صبراً تارة، وغيلة تارة أُخرى.

٤ ـ سمل العيون بالمسامير، وحرق الأبدان بالنيران.

وفي القضاء الإداري أضاف إلى التعذيب والتنكيل بعض المفردات:

١ ـ مصادرة الممتلكات المالية والعقارية.

٢ ـ حرث الأراضي الزراعية وإغراقها بالمياه.

٣ ـ إحراق البيوت وهدم الدور.

وفي الجانب العدلي والمالي، قوض الكيان الاجتماعي لأهل الشرف في الإسلام متبعاً ما يأتي:

١ ـ منع الأرزاق والمرتبات عمن له أدنى علاقة بأهل البيت.

٢ ـ إسقاط الشهادة أنى كانت صفتها لشيعة أمير المؤمنين.

---

(١) ظ: ابن أبي الحديد/ شرح نهج البلاغة ١١/ ٤٤.

فقد كتب إلى عمّاله في الآفاق: ألا يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة، وعممَّ على ولاته في جميع البلدان بنسخة واحدة:

«أنظروا من قامت عليه البينة أنه يحب علياً وأهل بيته، فامحوه من الديوان، وأسقطوا عطاءه ورزقه، ومن اتهمتموه بمولاة هؤلاء القوم فنكّلوا به واهدموا داره... فلم يكن البلاء أشد ولا أكثر منه بالعراق، ولاسيما بالكوفة، حتى أن الرجل من شيعة علي عليه السلام ليأتيه من يثق به، فيدخل بيته، فيلقي إليه سرَّه ويخاف من خادمه ومملوكه ولا يحدثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ليكتمنَّ عليه... فلم يزل الأمر كذلك حتى مات الحسن بن علي عليه السلام فازداد البلاء والفتنة، فلم يبق أحد من هذا القبيل إلا وهو خائف على دمه، أو طريد في الأرض»[١].

وقد أشرك معاوية في هذا العقاب الأنصار والمعارضين كافة، فقد أورد جرجي زيدان: أن الأنصار كثيراً ما يمكثون بلا عطاء، ولا ذنب لهم إلاّ أنهم ينصرون أهل البيت، وكانوا إذا عصاهم أحد من المسلمين قطعوا عطاءه ولو كان العاصون بلداً برمتها[٢].

ولم يكن هذا سبيل معاوية وحده، بل كان شياطين ولاته يقتفون أثره بما هو أفظع نكالاً، وأشد عقاباً، وأكثر تفنناً، فقد قطع زياد ابن أبيه أيدي ثمانين رجلاً من أهل الكوفة.[٣]

وكان يجمع الناس بباب قصره جهاراً يحرضهم على سب أمير المؤمنين عليه السلام فمن أبى ذلك عرضه على السيف[٤].

---

(١) ابن أبي الحديد/ شرح نهج البلاغة ١١/ ٤٤ وما بعدها.

(٢) ظ: جرجي زيدان/ التمدن الإسلامي ٤/ ٧٦.

(٣) ظ: ابن الأثير/ الكامل في التاريخ ٣/ ٧٣.

(٤) ظ: المسعودي/ مروج الذهب ٣/ ٣٥.

ولك أن تحصي الأعداد الهائلة التي استأصلها زياد ابن سمية من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام فقد كان يوماً ما منهم، وهوت به الهاوية واستلحقه معاوية، فلاحقهم وهو أدرى بمخابئهم دون رحمة، وأذاقهم من الهوان والويلات وأصناف العذاب ما يعلمه الله وحده.

وكان سمرة بن جندب مديراً لشرطة زياد على البصرة، وقد استخلفه عليها حينما جمع له معاوية البصرة والكوفة، فقتل سمرة هذا ثمانية آلاف من الناس فترة استخلافه عليها، وحينما رجع زياد إليها، وتناهى إليه هذا النبأ استنطقه ظاهراً، وقال لسمرة: هل تخاف أن تكون قتلت أحداً بريئاً؟ فقال سمرة: لو قتلت مثلهم ما خشيت[1].

وتجرأ سمرة على هتك الحرمات بما لا سابقة له في الإسلام، فسبى نساء همدان ـ وهمدان شيعة لأمير المؤمنين عليه السلام ـ وأقامهن في الأسواق للبيع، فكن أول مسلمات أشترين في الإسلام[2].

واستهتر سمرة هذا في سفك الدماء بغير الحق، وترويع الناس بالباطل، والجرأة على الله تعالى من أجل تثبيت سلطان معاوية حتى قال:

«لعن الله معاوية، والله لو أطعت الله كما أطعت معاوية ما عذّبني أبداً»[3].

وكان آخر ما توصل إليه السفاك الدموي زياد ابن سمية من ملاحقة

---

(١) ظ: الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٦/ ١٣٢.
(٢) ظ: ابن عبد البر/ الاستيعاب ١/ ١٦٥.
(٣) ابن الأثير/ الكامل في التاريخ ٣/ ٢١٢.

شيعة أمير المؤمنين عليه السلام: أن رحلّ من الكوفة خمسين ألفاً، وأنزلهم في خراسان[1].

وبذلك يكون قد شرّد بأعداء الحكم عن العراق، وأشغل الناس بعضهم ببعض بخراسان بعصبيات ما أنزل الله بها من سلطان.

إن حديث ملاحقة شيعة علي عليه السلام في برنامج الحكم الأموي السلطوي لا تمثله هذه النماذج بل هي تمثل جزءاً يستدّل به على طول الجنايات وعرضها، ولعل المظهر الثاني الذي ينهد به البحث الآتي يمثل الجزء الآخر لهذا التدهور الإنساني في البطش والتشفي والانتقام.

ب ـ سياسة الإرهاب الدموي:

يقول الأستاذ أحمد أمين:

«إن حكم الأمويين بني على الضغط والقهر»[2].

وهذا القول يلخص بدقة الركائز التي استند إليها الحكم في بناء هيكله العام، وكان من أبرز مظاهر هذا الضغط، ومن ابشع صور ذلك القهر: سياسة الإرهاب الدموي التي استنها معاوية للأجيال فيما بعد وحتى العصر الحاضر، فما إن تسلم معاوية السلطة بعد الصلح حتى نفذّ مخططه الدموي الرهيب، يساعده في ذلك ظلمة الولاة وعتاة الآفاق، فتتبع أعداءه فرداً فرداً، وأحصاهم إحصاءً دقيقاً، وأمعن فيهم قتلاً وتشريداً ونفياً وتغريباً، وكان مساعده في هذا المضمار المأساوي: زياد ابن أبيه، وبسر بن أرطاة، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، والضحّاك بن قيس الفهري، وعبد الله بن عامر بن كريز، وأمثالهم من

---

(١) ظ: بروكلمان/ تاريخ الشعوب الإسلامية ١/ ١٢٨.

(٢) أحمد أمين/ فجر الإسلام/ ١٦٤.

الطواغيت وسفكة الدماء، فشمل الخوف العراق واستولى على اليمن، واستطال الحجاز، وبقي الشام وحده في مأمن من الغوائل لأنهم رجاله الأشدّاء.

تصاعد هذا الضغط في الأقاليم التي تنجم فيها أمارة من معارضة، أو تبدو في أجوائها لمحة من مقاومة، أو تبدر من أفواه أبنائها عارضة من احتجاج؛ وكان الإرهاب الدموي الشنيع هو السلاح الفتّاك الذي أشاعه معاوية في تلك الأقاليم، ولا نريد أن نطيل عليك بذكر الغارات الإرهابية التي أرسلها معاوية مع قواده العسكريين، وهي تغير على حدود العراق، وأطراف الجزيرة، وقلب اليمن، وأرض الحجاز، وهي تزخر بالقطع العسكرية السورية المدججة بالسلاح، تخرّب الديار، وتفتك بالأبرياء، وتحرق الأخضر واليابس من المحاصيل، وتسوق قطع المواشي نهباً وغنائم، وهي تستهدف أولاً وبالذات شيعة أمير المؤمنين بما يصوره الإمام محمد الباقر بن علي عليه السلام، وهو يتحدث عن هذه الحقبة السوداء من تاريخ معاوية:

«وقُتِلَتْ شيعتنا بكل بلدة، وقُطِعتْ الأيدي والأرجل على الظّنة، وكان من يذكر بحبّنا والانقطاع إلينا سجن، أو نهب ماله، أو هدمت داره»[1].

وحسبك أن معاوية قد سيّر بسر بن أرطاة إلى الحجاز واليمن، وأوصاه بهذا المخطط الإجرامي: «لا تنزل على بلد أهله على طاعة عليٍّ إلا بسطت عليهم لسانك حتى يروا أنهم لا نجاء لهم، وإنك محيطٌ بهم، ثم أكفف عنهم، وادعهم إلى البيعة لي، فمن أبى فاقتله، واقتل شيعة علي حيث كانوا».

---

(١) ابن أبي الحديد/ شرح نهج البلاغة ١١/ ٤٣.

فسار وأغار على المدينة، فقتل ثلاثين ألفاً، عدا من أحرق بالنار»[1].

ولا تسل عما جرى في اليمن في بعث بسرٍ هذا، فهناك من الفظائع المخزية والجرائم النكراء ما شحن أمهات الكتب التاريخية بالعار الذي يتابع معاوية حتى يوم حشره ونشره.

وكانت سياسة الغارات المنظمة التي يشنها معاوية على أطراف الجزيرة وحدود العراق وقصبات المدن المتاخمة للشام، أمراً مقصوداً إليه في حد ذاته، إذ تجعل هذه الغارات الناس في إنذار مستمر، وتحيل حياتهم الخاصة والعامة إلى جحيم، فهم جميعاً في توقع واستنفار وهلع، وذلك وحده ما يقضي على الحياة المستقرة الآمنة التي يتطلع إليها الناس في ظل أوطانهم، فإذا أضفت إليها حقيقة النهب والسلب المستمرة، وظاهرة القتل والفتك المستديمة، تبين لك مدى الاضطراب في هذا المنحى الخطر.

ولا أريد الاسترسال في البعد الخانق لهذه الغارات، ولكنني أريد أن أوقفك معها على تمرس النظام الأموي من خلال مؤسسه الوضيع في انتهاك كل المقدسات واستباحة كل المحرمات، وفي طليعتها الاستزادة من سفك دماء الأبرار والصالحين من أمة محمد ﷺ في نماذج تقيس عليها سواها من الجرائر اللاإنسانية.

أشير هنا بكثير من الإيجاز والاختصار إلى مقتل حجر بن عدي الكندي، وهو صحابي جليل، ومن قادة الفتح الإسلامي، أجمع معاصروه أنه: صلب العقيدة، ثبت الإيمان، صريح العبارة، لا تأخذه

---

(١) ابن أبي الحديد/ شرح نهج البلاغة ٦/٢ وما بعدها.

في الحق لومة لائم، وقد أنكر على ولاة معاوية الجور، وعلى معاوية نفسه الاِعتساف، وعلى شباب بني أمية استخفافهم بالإسلام.
وما استطال به النكير حتى مهّد له زياد ابن أبيه مبررات قتله، فأصدر أمره بإلقاء القبض عليه، فامتنع حجر بعشيرته وقومه، فلم يتمكن منه زياد حيناً، فأغرى به سفهاء قومه من كنده، وكان الذي تولى ذلك ـ بعد التهديد ـ محمد بن الأشعث بن قيس الكندي. فقبض على حجر في كوكبة من صالحي أصحابه، وألقي بهم في السجن، وجمع زياد الفقهاء الرسميين، وفسقه الشهود، واستصدر منهم الشهادات الظالمة بحق حجر وأصحابه، وتم له ذلك على أساس أن حجراً:

«خلع الطاعة، وفارق الجماعة، ولعن الخليفة، ودعا إلى الحرب، وكفر بالله كفرة صلعاء». فسيّر زياد ذلك إلى معاوية، فأمر معاوية بإشخاص حجر وأصحابه إلى الشام، وسيّروا جهاراً حتى انتهى بهم المسير إلى مرج عذراء، وكان حجر قد افتتحها، فقال:

«والله إني لأول مسلم نبحته كلابُها، وأول مسلم كبّر في واديها»[1].

وانتهى الخبر إلى معاوية، فأمر بقتل كلّ من لم يتبرأ من علي عليه السلام، فرفض ذلك جماعة، وفعله آخرون، فقتل الرافضون جميعاً، وقالوا بصوت واحد:

«إن الصبر على حدّ السيف لأيسر علينا مما تدعونا إليه، ثم القدوم على الله ونبيه وعلى وصيه أحبّ إلينا من دخول النار»[2].

---

(١) ابن الأثير/ الكامل في التاريخ ٣/ ١٩٢.
(٢) باقر شريف القرسي/ حياة الإمام الحسن ٢/ ٣٦٥.

وقدّم حجر في ستة من أصحابه فخروا صرعى إلى الأرض، وقبورهم محفورة أمام أعينهم، وفيهم: صيفي بن فسيل، وقبيصة بن ربيعة، وشريك بن شدّاد الحضرمي، ومحرز بن شهاب التميمي وكدام بن حباب العنزي وكان من بينهم عبد الرحمن بن حسّان العنزي، فطلب أن يقابل معاوية وأنه يفعل ما يأمره به، فأعطي ذلك، وأدخل على معاوية، فسبّه وأثني على أمير المؤمنين، فأمر معاوية بأن يرسل إلى زياد في الكوفة، وأمره بقتله شرّ قتله، فدفنه زيادٌ حيّاً»[1].

واهتز العالم الإسلامي للمجزرة الجديدة التي ارتكبها معاوية، وعلا الإستنكار والإستهجان، فهؤلاء الضحايا معروفون بالتقى والصلاح، ولعلَّ فيهم من فتح الشام، وإذا بأمير الشام يستبيح دمه، واستنكر ذلك الإمام الحسين بن علي عليه السلام وأنكرت عليه عائشة أم المؤمنين، وأنكر ذلك الربيع بن زياد علناً، وكان عامل معاوية على خراسان، فجمع الناس، وصلى بهم الجمعة، وخطب قائلاً:

«أيها الناس؛ إني قد مللت الحياة، وإني داعٍ فأَمّنوا؛ فقال: اللهّم إن كان للربيع عندك خيرٌ فاقبضه إليك وعجّل».

فاستجاب الله دعاءه، فلّما فارق المجلس وافاه الأجل»[2].

وأنكر مقتل حجر كل من: عبد الله بن عمر بن الخطاب، ومعاوية بن خديج، والحسن البصري، وآخرون من الصحابة والتابعين.

وقد بقي شبح حجر وأصحاب حجر يلاحق معاوية في يقظته

---

(١) ظ: الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٦/ ١٥٥.

(٢) ظ: ابن الأثير/ الكامل في التاريخ ٣/ ١٩٥.

ونومه، حتى كان ليقول: «ويلي منك يا حجر»[1].

وأغلب الظن أن هذا القول منه كان مكراً وخداعاً وسياسة، وإذ ضجّ الناس جميعاً، فأظهر هذا الأسى المغلّف، وهو شبيه تماماً لما ترويه كتب التاريخ: أن معاوية قد أظهر الندم على قتل حجر وأصحابه، وقال إن زياداً قد أعجله على ذلك، والمقطوع به أن معاوية كان يتظاهر بذلك من أجل امتصاص نقمة العالم الإسلامي الذي روّعه هذا الخطب الجلل، وللتضليل على السذج من السواد فإذا كان زياد قد أعجله على ذلك فيما يزعم، فعليه في الأقل أن يغضب على زياد أو ينفر منه، أو ينعى عليه تعجله القتل بينما الذي نجده كان على العكس تماماً إذ أثاب زياداً على ذلك، وأدناه وقرّبه، وزادت منزلته إثرةً لديه، فما نقل عنه أنه وبّخه على ذلك أو أسمعه ما يكره، أو عاتبه عتاباً يسيراً في الأقل، بل الذي شاهدناه، أنه عاد أثيراً عنده وجيهاً في كل تصرفاته، محمود السيرة والسريرة في مقياسه، حتى أطلق يديه في الفتك والقتل، وأرخى له العنان في الظلم والجور، وأغراه على متابعة الأعيان من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام فتناولهم الأمثل فالأمثل ينكل بهم، ويعرضهم على السيف، بمرأى ومسمع من معاوية، يؤيده حيناً، ويجيزه حيناً آخر، والكل من أوامره التي لا تردّ

وكان المشهد الدموي الآخر يتمثل بالقتل صبراً، وله شواهده المفجعة في تأريخ هؤلاء القتلة السفاكين، وأضع بين يدي القارىء عيّنات من ذلك:

١ ـ كان في طليعة المقتولين صبراً، بلا ذنب ولا جريرة ولا خلاف، العبد الصالح: رُشيد الهجري، وهو من خيار صحابة أمير

(١) ظ: الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٦/ ١٥٦.

المؤمنين علماً وتقوى وورعاً، استدعاه زياد ابن سمية على حين غِرّة، وأمر بقطع يديه ورجليه، وصلبه على جذع نخلة معيّنة أخبره أمير المؤمنين عليه السلام أنه سيصلب عليها، وأخبره بأنه سيقطع لسانه بعد الصلب، فأمر زياد بقطع لسانه فقطع[1].

٢ ـ وكان أوفى بن حصن من كبار صحابة أمير المؤمنين، وكان ينكر سياسة الجور والإرهاب، ووصلت إلى زياد أوامر سرية وأخرى علنية باستئصال عليّة القوم من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام فقدّم زيادٌ أوفى بن حصن وقتله صبراً، وأزهق روحه غدراً[2].

٣ ـ وأمر زياد بجويرية بن مسهر العبدي، وهو من قوّاد أمير المؤمنين عليه السلام في حروبه، ومن أبرز مناصريه ضد الطغيان والباطل، وكان مستودع أسرار أمير المؤمنين، وممن عرف بالتقوى والثورية والنضال، أمر به زياد ابن سمية فقطعت يداه ورجلاه، وصلبه على جذع قصير، وكان أمير المؤمنين عليه السلام قد أخبره بذلك، فكان الأمر كما أخبر[3].

٤ ـ وكان عبد الله بن يحيى الحضرمي، قد اعتزل الناس بعد استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام وطال حزنه وجزعه عليه، فاتخذ له صومعة في طائفة من أصحابه يعبد بها الله، وبلغ ذلك معاوية، فأمر بإحضارهم لديه، فأحضروا جميعاً، فأمر بقتلهم صبراً فقتلوا، ولا ذنب لهم إلا علاقتهم الروحية بأمير المؤمنين[4].

---

(١) ظ: تفصيل حادثته المروّعة في سفينة البحار ١/ ٥٢٢/ عباس محمد رضا القمي.

(٢) ظ: ابن الأثير/ الكامل في التاريخ ٣/ ١٨٣.

(٣) ظ: باقر شريف القرشي/ حياة الإمام الحسن ٢/ ٣٨٤ وانظر مصادره.

(٤) ظ: المجلسي/ بحار الأنوار ١٠/ ١٠٢.

٥ ـ وتتبع معاوية أصحاب عليّ عليه السلام ولا سيما أصحاب البلاء منهم، فانتزى على عبد الله بن هاشم المرقال، وكتب إلى زياد ابن سمية أن يشّد يده إلى عنقه، ويبعث به إليه، فانتهى الخبر إلى ابن المرقال فهرب واختفى في بني مخزوم، فاستخرجه زياد وأرسل به إلى معاوية، وجرت بينهما خطوب ومحاججات، وعمرو بن العاص حاضر فافحمه ابن المرقال فحرّض عمرو معاوية عليه، فقيل عفا عنه، وقيل أودعه في السجن[١].

٦ ـ وكانت هذه المجازر الدموية ترتكب علانية بلا رادع ولا وازع، فتذرع جمع من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام بالصبر تارة، وبالاختفاء تارة أخرى، وكان في طليعتهم: عمرو بن الحمق الخزاعي، ورفاعة بن شدّاد البجلي، وهما من أعيان صحابة أمير المؤمنين عليه السلام فأدركهما طلب زياد ابن أبيه، فاختفيا مدة عنه، وهربا إلى الموصل بعد أن مكثا مدة في المدائن، وحين وصولهما الموصل حاصرهما عامل معاوية عليها، وجرت بينهما مناوشات خفيفة، فهرب رفاعة بن شدّاد، وقبض على عمرو بن الحمق الخزاعي، فاستنطقه العامل فما عرف خبره، وسأله عن اسمه ونسبه فاخفاه، وارتاب العامل منه، فأرسله مخفوراً إلى عبد الرحمن بن عبد الله الثقفي حاكم الموصل، فعرفه وأرسل بخبره إلى معاوية، فأمره بطعنه تسع طعنات بمشاقص، ففعل العامل، ومات عمرو في الأولى والثانية، وكان شيخاً صحابياً ورعاً قد انهكته العبادة، ثم احتز رأسه بامر من معاوية وبعث به إليه، فأمر معاوية أن يطاف به في الشام، فكان أول رأس طيف به في الإسلام[٢].

---

(١) ظ: باقر شريف القرشي/ حياة الإمام الحسن ٢/ ٣٩٠.

(٢) ظ: ابن عبد البر/ الاستيعاب ٢/ ٥١٧.

وأمعن معاوية في جريمته النكراء بقتل عمرو بن الحمق الخزاعي، فما اكتفى بها ولا وقف عندها، وإنما حمله الطغيان والتشفي أن يأخذ رأسه بعد التطواف به، وبعث به إلى زوجته، وكانت في ظلمات سجون معاوية في الشام، فقالت المرأة: «نفيتموه عني طويلاً، وأهديتموه اليّ قتيلاً، فأهلاً وسهلاً بمن كنتُ له غير قالية، وأنا له اليوم غير ناسية»[١].

٧ ـ وكان هذا دأب معاوية في أصحاب علي عليه السلام فما إن يقتل أحداً حتى يستدعي الآخر للقتل أيضاً، وملأ السجون بأعيان الشيعة، وكان في مقدمتهم اثنان من الأعيان هما: صعصعة بن صوحان العبدي، ومحمد بن أبي حذيفة، ومحمد هذا ابن خال معاوية، ولكنه من أصحاب علي عليه السلام تركه في السجن حتى مات، بل قيل إنه قتله[٢].

هذه نماذج قد تكون عابرة في مسلسل سياسة الإرهاب الدموي الذي انتهجه معاوية، نفذّها مع سبق الإصرار ونفّذ ما هو أكبر منها فظاعة ووحشية، والطريف أن يكون كل هذا بعد أن أمضى الصلح مع الإمام الحسن عليه السلام والذي اشترط فيه الكفّ عن شيعة أمير المؤمنين قضيةً أساسية لا مناص عنها.

وأخيراً انتصر الإمام الحسن عقائدياً وإن انتصر معاوية آنياً فيما يقال.

---

(١) ظ: باقر شريف القرشي/ حياة الإمام الحسن ٢/ ٣٨٠ وانظر مصادره.

(٢) ظ: الكشي/ رجال الكشي/ ٤٧.

«الإمام الحسن ينتصر عقائدياً»

وقد يقال بأن الإمام الحسن عليه السلام لم يحتط لنفسه، ولم يحتط لشيعة أبيه، ولم يستوثق شروطه من معاوية.

وهذا الكلام لا أساس له من نصّ صحيح أو سندٍ معتبر، وإنما هو مجرد تخيّلات طائشة لم تلتجأ إلى ركن وثيق، فالإمام عليه السلام قد أحكم عهده، وقد أبرم عقدة، ولكن معاوية يغدر ويفجر، وهو بموقع القوة والسلطان، وسواء على معاوية إحكام الشروط وإبرامها، أو تركها على طبيعتها وسجيتها، فإنه لا يفي بشيء يعطيه أبداً، فلا وازع يمنعه عن الخلف، ولا ضمير يردعه عن الضرر، فهو يريد أن يمتلك السلطة، وهو يسخّر لذلك شتى الأساليب كذباً ودجلاً، فأين هو من الوفاء وإمضاء العهود.

وليس الأمر جديداً على معاوية، فهو قديم قدم تشكيكه في الإسلام، وهو متأصل لديه أصالة الجاهلية في تكوينه البدوي الجاف، وهو عريق معه يجرى منه جريان الدم في الأوردة، ولم يكن ـ كما يقال ـ داهية، بل هو ماكر متطاول مغالط، ولو كان داهية لاعتمد الوفاء منهجاً لئلا يظل سبة وعاراً مدى الأجيال ولم يكن أيضاً حليماً، بل هو لئيم فاجر قد يتحالم، ولو كان حليماً لأحترز لنفسه، وقدّم أمر دينه على دنياه لئلا يوصم بالمروق من الدين، وهو ما حدث، فقد وضع كل شرط اشترطه للإمام الحسن عليه السلام تحت قدميه، أعلن ذلك متجاهراً دون

إسرار، وإنما أراد أن يتأمر فحسب، فكان له ذلك كما يقول هو نفسه.

وكان هذا المنهج الذي اختطه معاوية بالغدر والخيانة وعدم الوفاء قد شكل عنصراً أساسياً في مسيرة الأحداث السياسية في الإسلام، فنظر الناس بمنظور دقيق وقارنوا بين الرجلين، فأدركوا التزام الإمام الحسن عليه السلام بكل مواثيق الإيمان، واعتبر هذا الالتزام الحرفي بالعهود انتصاراً عقائدياً للإمام الحسن عليه السلام وكان هذا الانتصار عظيم الأثر في نفوس المسلمين، فقد داخل ضمائرهم، وتسلل إلى أعماقهم بكل حفاوة واعتزاز، بينما ادركوا في الوقت نفسه انفصال معاوية عن أدنى عرى الإسلام، فقد تجرد لهم على حقيقته الذاتية، وكشف غدره بالالتزامات عن ذلك الغطاء الرقيق الذي تستّر به وهو يظهر الحرص على القانون والنظام والشريعة، وإذا به في سوأة من غايته الوحيدة وهي تسلمه السلطة ليس غير، ولا مانع والحالة هذه أن يتذرع لذلك بكل الأسباب غير المشروعة، حتى صرح بأنه الحاكم المطلق المستبد الذي لا يلتزم بشورى ولا دستور، ولا تحده قيود احترازية عن اتخاذ أي قرار مفضوح النتائج في عقلية يسيطر عليها الغباء السياسي، إذ ألب عليه الجماهير الغاضبة، فانكرت واستغاثت وتمردت، ولكنه أخرسها بالسيف، وغيّبَ أقطابها وشبابها في غياهب السجون، وقطعت عنها الأرزاق ومصادر العيش، فانطلق العمل السريّ للإطاحة بحكمه الأموي لبنةً لبنةً.

وكان هذا المصير المحتوم الذي لا بد للحكم الأموي أن يواجهه غائباً عن جملة من الأذهان المعاصرة للإمام الحسن عليه السلام مما عرضه لهجمات غير مؤدبة، وأسلمه إلى احتجاجات غير واعية، انساقت وراء العواطف الجياشة التي لا تعي متطلبات المرحلة الراهنة، إلا أن

الإمام عليه السلام قابلها بالصفح حيناً، وبإيضاح الخط الثوري السري حيناً آخر.

وكان لا بد لنا من وقفة قصيرة عند هذه الموجة من الغضب الجامح لدىٰ الصفوة الخيرة من أصحاب الإمام عليه السلام فقد كان الدافع لها تلك الأحاسيس النفسية المفعمة بين اليأس والرجاء، وذلك الضغط اللاشعوري في العقل الباطن الذي يطغى على المشاعر فلا تجد بداً من إظهاره تلقائياً، وقد يتطاول هذا الغضب إلى ذروة من الانفعال الهائج، وقد يصل إلى حد الشدّة التي لا تطاق، وقد يتراوح ـ نسبياً ـ بين هذا وذاك، مما غمس معه الوعي السياسي في لجة ضبابية تنعدم معها الرؤية.

وكان لا بد للإمام مع تصاعد الاِحتجاج إلى قمته من بيان منهجه الجديد في مقاومة الحكم الظالم، وإيضاح معالم هذا المنهج: ـ

٢ ـ **التنظيم السريّ الجديد**: أعلن الإمام مقاومة النظام الأموي في ظل العمل السري المنظّم، ولما كان هذا القرار جديداً بالنسبة لأنصاره وأشياعه، فما عليه إلا تهيأة الأذهان إيدولوجياً لتقبل هذه الخطوة الجريئة، وكان عليه دفع الصفوة من مواليه المخلصين إلى الخط الثوري في التنظيم المرتقب بجدية وإصرار، والى التنظير له بذكاء وحيوية، وهو بذلك يخترق كل الحواجز السلبية وبلورتها إلى عمل إيجابي يستثمر الشعور الغاضب والثورة النفسية ويحولها إلى صيغة تنظيمية مبرمجة للعمل الثوري الجاد بتكتم وتلبث وتريث ريثما ينفتح عطاؤه عند هلاك معاوية، فيستريح برّ، ويستراح من فاجر.

إن طبيعة هذا الاِنفتاح الثوري الوليد تستدعي السرية التامة، ولكنها تستدعي أن لا تكون هذه السرية على حساب الثورة فتحجب

الخطط عن القادة الذين يمتلكون ناصية الجماهير وقيادة الأمة.

لقد كان الإمام الحسن عليه السلام حريصاً كل الحرص على الكتمان بدرجة متناهية، ولكنه كان تواقاً إلى بيان الأمر بأصالته لذوي الحلّ والعقد من أتباعه، فقد قصده سليمان بن صرد الخزاعي إلى المدينة في جملة أوليائه، فخاطب الإمام:

«إن تعجبنا لا ينقضي من بيعتك لمعاوية، ومعك مائة ألف مقاتل من أهل العراق، وكلهم يأخذ العطاء مع مثلهم من أبنائهم ومواليهم سوى شيعتك من أهل البصرة وأهل الحجاز، ثم لم تأخذ لنفسك ثقة في العهد، ولاحظاً من القضية، فلو كنت إذ فعلت ما فعلت، وأعطاك ما أعطاك بينك وبينه من العهد والميثاق كنت كتبت بذلك كتاباً، وأشهدت عليه شهوداً من أهل المشرق والمغرب، إن هذا الأمر لك من بعده، كان الأمر علينا أيسر، ولكنه أعطاك هذا فرضيت به من قوله، ثم قال وزعم على رؤوس الناس ما قد سمعت: إني شرطت لقوم شروطاً، ووعدتهم عدات، ومنيتهم أماني إرادة إطفاء نار الحرب، ومداراة لهذه الفتنة، إذ جمع الله لنا كلمتنا وأُلفتنا، فإن كل ما هنالك تحت قدميّ هاتين، والله ما عنى بذلك إلا نقض ما بينك وبينه، فأعد الحرب جذعة، وأذن لي أن أشخص إلى الكوفة، فأخرج عامله منها، وأظهر فيها خلعه، وأنبذ إليه على سواء، إن الله لا يهدي كيد الخائنين»[1].

وحديث سليمان هذا كان متطرفاً من جهة، وثورياً من جهة أخرى، ويمكننا أن نعتبر سليمان قد سمح لعاطفته أن تتحكم في حديثه، فلم يكن مع الإمام مائة ألف مقاتل كما زعم، بل كان جيشه مفككاً كما رأيت، وكانت الخيانة متفشية فيه إلى أبعد الحدود. وكان

---

(١) البيهقي/ المحاسن والمساوىء ١/ ٦٠ وما بعدها.

الزعماء قد ملئت غرائرهم ذهباً، وأذهانهم وعوداً براقّة، ونفوسهم تواكلاً مقيتاً، ولا يستطيع الإمام أن يصول بيد جذّاء، ولم يكن الإمام ليترك الأمر هملاً، فقد أخذ المواثيق والعهود على معاوية فما وفى بذلك، ولنفرض أن الإمام لم يأخذ كتاباً وقد رأيت أن معاوية قد أرسل له طوماراً وقال: أكتب ما شئت، فكتب الإمام ما شاء، ولنفترض أن الإمام لم يكتب، فما جدوى الكتابة فضلاً عن عدمها عند معاوية ان إراد الغدر، ولا يؤمن معاوية إلا بالقوة، والقوة معه كُتب كتاب أو لم يكتب، وإن كتب الإمام فإلى من يحتكم؟ ومن هو القادر على منازلة معاوية وهو في عدة وعديد، وسواه في بيداء من الأحلام الوادعة الهشّة.

لقد دعا سليمان إلى الحرب وإعلان الثورة، ولكن الإمام عليه السلام هدّأه وخفف من غلوائه، ووعده ووعد الموفدين معه بالتحرك عند إبانه، ووضع بين يديهم البرنامج المستقبلي في ضوء العمل والتوعية، وقال:

«أما بعد: فَإنكُمْ شِعَتُنَا، وأهْلُ مَودّتنا، وَمَنْ نَعْرِفُهُ بالنَصِيحةِ وَالصُحبةِ والاستقامَةِ لنَا وَقَدْ فَهمتُ مَا ذَكَرْتُمْ، وَلَو كُنْتُ بالحزم في أمر الدُنيا، وللدنيا أَعْمَلُ وأنْصبُ، مَا كان مُعاويةُ بأبأس منّي بَأسَاً، وأشدّ شكيمةً، ولكان رَأيي غيرَ ما رَأيتمُ، وَلَكنّي أشْهَدُ وإياكم أني لم أردْ بما رَأيتُمْ إلاّ حَقْنَ دِمَائكُمْ، وإصلاحَ ذاتِ بينِكُمْ، فاتقّوا الله، وسَلّموا الأمْرَ لله، والزموا بيوتَكُمْ، وكُفّوا أيَديَكُمْ، حَتى يَستَريح بَرٌ، أوْ يُستراحُ مِنْ فاجر، مَعَ أنّ أبي كَانَ يُحَدثني أنّ مُعاوية سَيلي الأمرَ، فَوَالله لو سِرنا إليه بالجبالِ والشَجَر ما شككت أنَّهُ سَيَظْهَرُ، إنّ الله لا مُعَقّبَ لِحُكْمِهِ ولا رادّ لقَضَائِهِ. . . فَلْيَكن كُلُّ رَجُلٍ مِنكُم حِلساً من أحْلاسِ بَيْتِهِ ما دَامَ معَاويةُ

حياً، فإن يَهلَك وَنَحْنُ وأنتمْ أحياءٌ سألنا الله العزيمة على رشدنا، والمَعُونةَ على أمرنا، وأن لاَ يكلنا إلى أنْفسِنا، فإنَّ الله مع الذين اتقّوا والذين هم مُحْسِنونَ»[1].

ب ـ التخطيط السياسي الرائد

في صلب حديث الإمام عليه السلام ترى الحجة الناطقة، والوضوح البياني التلقائي، وتنظر إلى التخطيط في مستقبل الأيام، في الحديث مرونة طيبت الخواطر، وفيه آمال أطفأت النائرة، فهو يمتدح الكوفيين بما هم أهله، ويبجلهم بما يرفع معنوياتهم، ويلمح إلى قضاء الله وقدره في استيلاء معاوية على الحكم، ويشير إلى ما حدّثه به أمير المؤمنين في هذا المنظور، ثم دعاهم إلى التلبث والترصد ما دام معاوية حياً، ووعدهم بالعمل بمعونة الله إن كانوا أحياء، بما يعتبر بمجموعه بعداً جديداً من التأمل والتربص حتى حين، وأدعُ التعقيب على حديث الإمام الحسن عليه السلام لأستاذنا الدكتور طه حسين وهو يقول:

«فقد أعطاهم الحسن ـ كما ترى ـ الرضا حين أعلن إليهم أنهم شيعة أهل البيت، وذوو مودّتهم، واذن فمن الحق أن يسمعوا له ويأتمروا بأمره، ويكونوا عند ما يريد منهم، ثم بيّن لهم أنه لم يصالح معاوية عن ضعف ولا عن عجز، وإنما أراد حقن الدماء. ولو قد أراد الحرب لما كان معاوية أشد منه قوة، ولا أعسر مراساً. ثم طلب اليهم أن يرضوا بقضاء الله ويطيعوا السلطان، ويكفّوا أيديهم عنه، وأنبأهم بأنهم لن يفعلوا ذلك آخر الدهر، ولن يستسلموا لعدوهم في غير مقاومة، وإنّما هو انتظار إلى حين، هو انتظار إلى أن يستريح الأبرار من

---

(١) البيهقي/ المحاسن والمساوىء ١/ ٦٢ وما بعدها.

أهل الحق، ويريح الله من الفجار أهل الباطل، فهو إذن يهيؤهم للحرب حين يأتي إبّانها ويحين حينها، ويأمرهم بالسلم المؤقت حتى يستريحوا ويحسنوا الإستعداد ومن يدري لعل معاوية أن يريح الله منه فتستقبل الأمة أمرها على ما يحبّ لها صالحو المؤمنين.

«وأعتقد ـ أنا ـ أن اليوم الذي لقى الحسن فيه هؤلاء الوفد من أهل الكوفة، فسمع منهم ما سمع، وقال لهم ما قال، ورسم لهم خطتهم، هو اليوم الذي أُنشىء فيه الحزب السياسي المنظّم لشيعة علي وبنيه. نظّم الحزب في المدينة في ذلك المجلس، وأصبح الحسن رئيساً له، وعاد أشراف أهل الكوفة إلى مَنْ وراءهم ينبئونهم بالنظام الجديد والخطة المرسومة، ويهيئونهم لهذا السلم الموقوت، ولحرب يمكن أن تثار حين يأني الأمر بإثارتها من الإمام المقيم في يثرب.

وكان برنامج الحزب من أول نشأته ـ كما ترى ـ واضحاً يسيراً لا عسر فيه ولا تعقيد، طاعة الإمام من بني علي، والإنتظار في سلم ودعة حتى يؤمروا بالحرب فيثيروها. ومضى أمر الحزب على ذلك، فجعل الشيعة يلقى بعضهم بعضاً يتذاكرون أُمورهم، ويسجّلون على معاوية وولاته ما يتجاوزون به حدود الحق والعدل، وينتظرون أن يأمرهم الإمام بالخروج»[1].

وهذا الرأي جدير بالأهمية البالغة، فهو ينيط بالإمام الحسن عليه السلام رئاسة حزب سياسي جديد يؤمن بالعمل السري إلى حين سنوح الفرصة لإعلان الحرب، ويهيىء أنصاره ومؤيديه للتداول الحثيث في أمر الشؤون العامة، ويأمرهم بالاستعداد للتحرك المرتقب،

---

(١) طه حسين/ الفتنة الكبرى ٢/ ١٨٩ وما بعدها.

ويصطفي لجنة عليا لإدارة سياسة الحزب، ويعتبر الإمام الحسن عليه السلام رئيساً فعلياً لهذا الحزب.

ولا مانع من قبول حيثيات هذا الرأي في التماس الإعداد والتحرك والإنتظار لليوم الموعود، إلاّ أننا نناقش في بعض جزئياته فيما يتعلق بنشأة التشيع، فالتشيع بإعتباره عقيدةً شيءٌ ونشوء حزب سياسي في ظله شيء آخر، فقد عرف التشيع زمن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم خاصاً بولاية أمير المؤمنين عليه السلام وقد ورد في ذلك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أحاديث متواترة وأخرى معتبرة اشتملت عليها كتب الحديث والصحاح، وهي متوافرة النصوص في مظانِّ الرواية من المطولات ويعني التشيع في دلالته الأولى: أن علياً وصي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنه خليفته من بعده، حتى عرف به جماعة من المسلمين الأوائل كان من أعلامهم: أبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، وعمار بن ياسر، وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، والمقداد بن عمرو، وابن التيّهان وجابر بن عبد الله الأنصاري، وخالد بن سعيد بن العاص المخزومي، وأُبي بن كعب، والبرّاء بن عازب وأضرابهم.

وقد قال بأن التشيع نشأ عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما يرى ذلك الدكتور أحمد أمين «وكانت البذرة الأولى للشيعة: الجماعة الذين رأوا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن أهل بيته أولى الناس أن يخلفوه، وأولى أهل البيت العباس عم النبي، وعليٌ ابن عمه، وعليٌ أولى من العباس، والعباس نفسه لم ينازع علياً في أولويته للخلافة»[1].

والشق الأول من قول أحمد أمين معارض بما تقدم وهو المشهور والمقطوع به، أما الثاني فلا أعلم أحداً موثوقاً قال بشمول العباس بن

---

(١) أحمد أمين/ فجر الإسلام/ ٢٦٦.

عبد المطلب بعموم أهل البيت، وقد نشأ هذا القول في العصر العباسي أيام المنصور الدوانيقي دون نص شرعي أو سند تاريخي، وإنما كان يقال في كل العصور شيعة أمير المؤمنين ويعنون علياً عليه السلام.

ومهما يكن من أمر، فإن هذا الحدث الذي خطط له الإمام الحسن عليه السلام دليل اليقظة السياسية المبكرة، فإنه لم يستجب للعواطف الآنية المرتجلة، ولم يحفل بأولئك الذين رأوا في صلحه تسليماً لمعاوية، وإنما عمل مخططاً لما هو أبعد شأواً، وأجدى لمستقبل الأمة نفعاً، وأكثر على المسلمين عائدية.

وقد أدرك العراقيون بخاصة هدف الإمام الحسن عليه السلام بعد حين، إذ وجدوا الظروف القائمة لا تسمح لهم بأمثل مما قرره الإمام الحسن عليه السلام فنشطوا للعمل السري ضد الحكم الأموي، وجمعوا شتاتهم، ووحدوا كلمتهم، وحصّنوا نفوسهم بالأمل المنشود، وأخذوا يترددون على الإمام الحسن عليه السلام مرةً بعد مرة، يستمعون له، ويعرضون عليه ما يستجدّ من أمورهم، حتى اختمرت الفكرة ناضجة، وتم بموجبها العمل، وإن تطرف بهم الحرص على القضية أن يتلاوموا فيما بينهم، «جعلوا كلمّا لقي بعضهم بعضاً تلاوموا فيما كان، وأجالوا الرأي فيما يمكن أن يكون، ولم تكد تمضي أعوام قليلة حتى جعلت وفودهم تفد إلى المدينة للقاء الحسن، والقول له، والاستماع منه»[1].

ولم يكن شيعة أهل البيت عليهم السلام في العراق وحده، بل كانوا فيه الأغلبية العظمى، وكانوا متفرقين في عرض البلاد الإسلامية وطولها، وقد فهم المنظّرون الرساليون منهم نظرية الإمام الحسن الجديدة في

---

(١) طه حسين/ الفتنة الكبرى ٢/ ١٨٨.

التجمع، وترصد الأمر، وتحيّن المرحلة، فكانت الدعوة سرّية في كل متطلباتها، كما كانت حرجة في مراحلها الأولى.

ج ـ الحسين يتابع الحسن:

قد يقال اعتباطياً أن الإمام الحسين عليه السلام كان بمنأى عن هذا المناخ الذي خططه الإمام الحسن عليه السلام أو كان بمعزل عن الصلح المشروط الذي عقده الإمام الحسن عليه السلام ولكن التتبع التأريخي للأحداث يثبت خلاف هذا الرأي، إذ طالما تعجل بعض الشيعة الثورة على الحكم زمن معاوية، ففاتح بذلك الإمام الحسين عليه السلام ولكن الحسين لم يكن ليعدو رأي أخيه الحسن، بل ويصوّب ما توصل اليه أولاً بأول، كان ذلك نتيجة خبرة سياسية متطوّرة بطبيعة الظروف الاِجتماعية والنفسية والعسكرية التي تقضي عليه وعلى الحسن المهادنة الموقوتة والمواعدة الآنية.

فقد سفر إلى الحسين عليه السلام: علي بن محمد بن بشير الهمداني ـ وكان أحد المتحمسين للكفاح المسلح ـ يستطلع رأي الحسين في الثورة بل يحثه عليها، وكان قد اخفق في اقناع الإمام الحسن عليه السلام عليها، فقال له الإمام الحسين عليه السلام نصاً:

«صدق أبو محمد (يعني الإمام الحسن) فليكن كل رجل منكم حلساً من أحلاس بيته، ما دام هذا الإنسان حياً». يعني معاوية[١].

ولم يكن رأي الإمام الحسين عليه السلام هذا أيام أخيه الحسن فحسب، بل ظلّ عليه طيلة حكم معاوية متابعاً فيه نظرية الإمام الحسن عليه السلام

(١) الدينوري/ الأخبار الطوال/ ٢٢١.

حتى بعد استشهاد الحسن نفسه، فقد فاتحه العراقيون بعامة، وأهل الكوفة بخاصة، يحرضونه على الثورة زمن معاوية، فكتب إليهم:

«أمّا أخي فارجو أن يكون الله قد وفقّه وسدده فيما يأتي، وأما أنا فليس رأيي اليوم ذلك، فالصقوا رحمكم الله بالأرض واكمنوا في البيوت، واحترسوا من الظنة ما دام معاوية حياً»[1].

فالحسين بهذا صوب رأي أخيه وسدّده، وأوضح لهم أن فترة الإعداد للثورة توشك أن تتكامل، وأن رأيه اليوم غير رأي أخيه بالأمس، ولكنه تابعه من حيث المحذور السياسي، فأوصاهم أن لا يحدثوا حدثاً الآن، وأن يكمنوا في البيوت حذرين يقظين متأهبين ما دام معاوية حياً، فهو يَعِدَ بالثورة بعد حين، ومعنى هذا أنه يستمد التخطيط الانتظاري من ذات الملحظ الذي انتهجه الإمام الحسن، وإن الثمار وشيكاً ما تُقطف، ولكن بعد وفاة معاوية، وهذا ما حدث بالفعل.

وكان الإمام الحسين تبعاً للإمام الحسن عليه السلام حريصاً كل الحرص أن لا تسفك الدماء دون عائدية، ولا أن تكون الثورة تضحية بلا قضية، وإن كانت هنالك قضية فامكانات الحكم الصارمة تبددها وتقضي عليها وهي في مهدها، فكأنها لم تكن.

ولم يكن الإمام الحسن عليه السلام ليستعجل الظروف الاستراتيجية، ولا ليخرج بالآلاف في حرب مدمّرة، ولا ليضيف للشهداء قافلة جديدة من الشهداء إلا وهو على بصيرة من أمره، فقد استقبل حجر بن عدي الكندي ـ وهو يدعو إلى الحرب ـ بقوله:

«إني رأيت هوى عظم الناس في الصلح، وكرهوا الحرب، فلم

(١) المصدر نفسه/ ٢٢٢.

أحبّ أن أحملهم على ما يكرهون، فصالحت بُقياً على شيعتنا خاصة من القتل، ورأيت دفع هذه الحرب إلى يوم ما، فإن الله كل يوم هو في شأن»[1].

إن هذا النمط من الإجابة المنظمّة، ليس قولاً اعتباطياً، وإنما هو نهج تخطيطي مدروس بكل تفصيلاته قلّت أو كثرت، فالرغبة العارمة للناس في الصلح، والناس تكره الحرب، والإمام لا يريد أن يحملهم على ما يكرهون، وعليه والحالة هذه أن لا يتخلى عن الحرب بل يدفع بها إلى يوم ما، فهو ـ اذن ـ يحمي النفوس من القتل اليوم، ليحملها غداً على الثورة التي تحقق الأغراض المستقبلية.

ولم يجعل الإمام الحسن عليه السلام هذا الأمل المنشود نهاية لمتاعبه القيادية، بل حشد كل طاقاته ومعه الإمام الحسين بكل تطلعاته، إلى العمل في فترة الإعداد للثورة بما ينبغي أن يسبقها من المؤشرات البارزة التي تدعو إليها، وتمهّدُ لها السبيل، فكان الاضطلاع بتعرية النظام الأموي وتسليط الأضواء على تجاوزاته من ابرع المهمات القيادية والتعبوية التي نهض بها الإمام الحسن عليه السلام فقد وفق توفيقاً ريادياً متميزاً في فضح النظام الأموي في مختلف الاتجاهات الفكرية والعقائدية والسياسية والاقتصادية، فأشار إلى التغيرات الكبرى في هذه المجالات ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وفي ضوء هذا العمل الجادّ تكشّفت سوءة الحكم، وتجلت سقطاته المتابعة، فأفاق الناس على حكم ينحدر في متاهات الانحراف المستديم، ولا يؤمن بالإسلام مبدأ، بل يتمثل الجاهلية بكل مفاهيمها الضيّقة، فهو يفرّق قبائلها، ويسفك دماءهم، ويستلب أموالهم، ويبتز مقدراتهم، ويستهين بأشرافهم،

---

(١) المصدر نفسه/ ٢٢٠.

ويستأمر النساء، ويشاور الصبية، ويولي الطغاة، ويستعين بالجبابرة.

هذه السمات التي فضحها الإمام الحسن عليه السلام هيأت المناخ النفسي لدى الشعب المسلم للانتقام من النظام، فتّألب عليه أولاً، وتجمهر ضده ثانياً، وحمل بوجهه السلاح أخيراً حتى الإِنهيار.



الفصل الثالث

«التخطيط الرسالي عند الحسن يمهد لثورة الحسين»

١ ـ ريادة التخطيط الرسالي من موقع الأحداث

٢ ـ القرار السياسي في ضوء المسؤولية:

أ ـ يقظة الإمام لا الانفعال الثوري

ب ـ تهيأة الرأي العام

ج ـ صحوة الضمير الإنساني في العراق

٣ ـ ظواهر الثورة المضادّة:

أ ـ وضوح الرؤية السياسية في الصراع

ب ـ تنظيم قوى الثورة

ج ـ التنظير الرسالي الموحّد

٤ ـ الدعوة الى الإطاحة بالحكم الأموي:

أ ـ التمهيد للكفاح المسلّح

ب ـ استلحاق زياد

ج ـ استخلاف يزيد

د ـ مؤتمر المدينة وقرار مكة

٥ ـ الإمام الحسين يهيىء مناخ الثورة:

أ ـ مؤثرات سلبت روح النضال

ب ـ المناخ الكلامي يحمي النظام الأموي

ج ـ الحسين يضع اللمسات الأولى للثورة

د ـ المجابهة بين الحسين ومعاوية



«ريادة التخطيط الرسالي من موقع الأحداث»

لم تكن ريادة الإمام الحسن بن علي عليه السلام لأزمة الأمور اعتباطية المنشأ، ولا كفايته في إدارة الشؤون العامة عارضة، فقد سبق هذا ـ كما رأيت ـ إعداد خاص أهّله لخوض غمار الحياة السياسة بأمثل صورها، فقد نشأ في ظلال النبوة، ودرج في أحضان الإمامة، أدرك شطراً من حياة رسول الله وهو في ميعة الصبا، وواكب حياة أبيه وهو في عنفوان الشباب، فكان موضع رعاية جدّه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعناية أمير المؤمنين عليه السلام، وكان لهذه الرعاية وتلك العناية الأثر الإيجابي في خلق الإمام عملاقاً في مواجهة الأحداث.

لا نريد هنا أن نتكلم عن سيرة الإمام الحسن عليه السلام منهجاً وسلوكاً وإفاضات، ولا نريد أن نتحدث عن كرمه ونبله وكمالاته النفسية، فتلك صفحات مشرقة لا إبهام فيها ولا إيهام، وقد زخرت بها كتب السيرة، ولكننا نريد أن نتحدث عن الإمام الحسن عليه السلام فكراً إنسانياً ونموذجاً رسالياً أعدّه أبوه في حياته ليتولى قيادة الأمة بعد وفاته ممهداً للثورة الكبرى في ثرى الطف، تلك هي ثورة أخيه سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام، فكيف خطط لها؟ وكيف عمل على تنظيم الأمة لاستقبالها؟ وما هو دوره فيها؟ وهل كان يمكن أن تحدث ثورة كربلاء لولا فكر الإمام الحسن؟ الإجابة عن هذه التساؤلات قد تجدها في هذا

الفصل من الكتاب، وذلك باستدراج تحليلي نافذ للدور التاريخي البارز الذي نهد به الإمام الحسن منذ البداية الأولى.

أراد أمير المؤمنين عليه السلام أن يعود بالإسلام الى جوهره الحقيقي نافضاً صدأ السنين عن ردائه، وكاشفاً عن وجهه الناصع وكان ساعده الأيمن بهذه العودة الميمونة ولده الإمام الحسن عليه السلام. وما إن تسلم عليٌ عليه السلام قيادة الأمة حتى نَجَمَ قرن الناكثين متجهين الى البصرة لقتال الإمام، فأوفد ولده الحسن الى الكوفة ـ وهي جمجمة العرب وحاضرة الإسلام ـ يهيىء الناس لقتال الناكثين، فنجح ـ بما سبق تفصيله ـ بمهمته نجاحاً باهراً، يعضده فيها عمار بن ياسر (رض) وكانت معركة الجمل، فضنَّ به أبوه عن القتل، وانتهت المعركة بالنصر المؤزر لأمير المؤمنين، وكان دور الإمام الحسن عليه السلام فيها دوراً قيادياً بارزاً، فهو أحد أركان حرب الإمام، وعاد برفقة أبيه الى الكوفة يستدرج واقعها الاجتماعي، ويستقرىء مناخها السياسي، والكوفيون حتى اليوم يبادلون علياً عليه السلام حباً بحب، ويقفون الى جنبه في اللحظات الحرجة، باستثناء الرتل الخامس من المنافقين والوصوليين والنفعيين والانتهازيين ومن بركابهم من المؤلفة قلوبهم، وأنصار الطلقاء في سرائرهم، وهؤلاء في كل زمان ومكان ومنذ عهد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم إلى اليوم، أتباع كل ناعق، لا رادع لهم من دين، ولا وازع من ضمير، هم بلاء القيادة الرسالية، وهم عناء القادة الرساليين.

في الكوفة كان الإمام الحسن عليه السلام من كبار مستشاري أبيه، وفي طليعة منفذي اوامره جزئيةً، جزئيةً وكان أمير المؤمنين ـ بحق ـ بطل الاستقلال السياسي للعراق، إذ أعاد الاعتبار العسكري للكوفيين والبصريين وهما أصل العراق الإداري، وجذوة شرارته النضالية، وإن

كان المحور الطلائعي لأبطال الجهاد الإسلامي بالكوفة ألصق، ومن أبنائها المكافحين أقرب، وفي ظل حياتهم العقلية المتفتحة أكثر صلة ووضوحاً، ونهض علي بالكوفيين لقتال القاسطين في صفين، فكان موقع الإمام الحسن عليه السلام متميزاً، وانتهت المعركة بغدر الحكمين الضالين، واحتج بالمنطق السياسي تارة، وبالمنطق الديني تارة أخرى على تصرفهما المخزي، وخطب بالكوفيين وبصّرهم حقيقة الحال. وانفجرت فتنة المارقين، فكان الحسن من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وسار الى معركة النهروان بقيادة أبيه جنباً الى جنب، وانتهت المعركة بالنصر الحاسم لأمير المؤمنين عليه السلام ضمن إخباره الغيبي، فلم يفلت من الخوارج عشرة، ولم يقتل من أصحابه عشرة. واضطلع الإمام الحسن عليه السلام بمسؤولية قيادية زمن أبيه، فقد أمره بأن يصلي الجمعة بأهل الكوفة، فصلى وَخَطبَ ووجّهَ وبيّنَ وَعَلّمَ، وأجال فكره بعواقب الأمور، وهدر لسانه بتوحيد كلمة المسلمين، وأشار بالحق الى أهله، وشجب الباطل في مكمنه، وذهب علي عليه السلام شهيد عظمته وواقعيته نتيجة مؤامرة ثلاثية حبكها معاوية والخوارج وأعداء أهل البيت، وفي طليعتهم الأشعث بن قيس الكندي، ونصّ أمير المؤمنين على ولده الحسن بالإمامة والخلافة من بعده، فنهض الإمام الحسن بالأمر، وشمر ساعديه لقيادة الأمة، وخطب لدى توليه الخلافة خطبة غراء ـ تجدها في غير هذا الموضع من الكتاب ـ كشف بها عن قوة شكيمته، وملامح شخصيته، وأبان خصائصه النسبية والدينية والنضالية، فاجتمع أهل الحلّ والعقد عليه باعتبار بيعته بيعة شرعية لا إكراه فيها، وبإعتبار إمامته نصيّة لا اجتهاد معها، وهو الإمام الوحيد بعد أبيه الذي حصل على البيعة والنص في استقبال الإمامة.

ووصلت أنباء بيعته وإمامته الى معاوية، فطار هلعاً ورعباً،

وتفرقت نفسه شعاعاً، فكاتبه يمنيه الأماني أولاً، وراسله على الصلح ثانياً، واستوى على شراء ذمم زعماء القبائل ثالثاً، وائتمر على اغتيال الإمام الحسن رابعاً، وكان لا بد لقرن الشيطان أن ينجم، ولكن الإمام الحسن صليب العود ودقيق الرأي، فنهض بواجبه القتالي بادىء ذي بدء، وبذل جهداً مضاعفاً بإيدولوجية جديدة لقيادة عسكرية، كان من أركانها ابن عمه عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب، وهو الموتور دموياً من معاوية في قتل ولديه الصغيرين في إغارة بسر بن أرطاة على اليمن، وقيس بن سعد بن عبادة الأنصاري الجريء الذي صمد في وجه سياسة معاوية حتى آخر لحظة، فلم يبايعه ـ بأمر من الإمام الحسن عليه السلام ـ إلا والسيف بينهما، وعدي بن حاتم الطائي، رمز الفتوة والقوة والبصيرة في الدين، وخانته قيادة ابن عمه عبيد الله بن العباس بأموال طائلة ووعود كاذبة، وتهديدات في ظل الدجل السياسي الذي انتهجه معاوية،وأسقط في يدي البطل الثوري قيس بن سعد بن عبادة جرّاء هول الصدمة، وأكبّ عدي بن حاتم الطائي لا يلوي على شيء إلا حُرَقاً متطايرة.

لقد قعدت بالإمام الحرب لتخاذل أصحابه أولاً، وخيانة ابن عباس ثانياً، وكراهة الجيش للحرب أخيراً، وغير ذلك من العوامل التي سبق ذكرها، والتي رأى الإمام المناخ السياسي في ضوئها لا يسمح له بأدنى تفاؤل بالنصر، ورأى الأفق ملبّداً بسحب التضليل والانتهازية، وأن حرباً فاشلة تنتظره بكل أبعادها الخانقة، فعليه إذن أن يختار ما فيه الإصلاح، وفي مثل هذه الحالة تكون كل الخيارات صعبة، وإن كان بعضها أولى من بعض في ضوء القرار السياسي المحنّك، وكان قرار الإمام السياسي والرسالي بوقت واحد أن يبقى في موقع القيادة مترصّداً ومخطّطاً وصامداً فيوافق على صيغة مشروطة لصلح مشروط أيضاً،

سواءً أوفى به معاوية أم غدر.

وهذا هو الذي حدث بالفعل، ولقد اعتبر الشيخ آل ياسين وثيقة الصلح الذي أبرمه الإمام الحسن «هي خير ما تتوصل إليه اللباقة الدبلوماسية لمثل ظروفه وزمانه وأهل زمانه ـ التي تميزت ـ بالقابليات السياسية الرائعة التي لو قدّر لها أن تلي الحكم في ظرف غير هذا الظرف، وفي شعب أو بلاد رتيبة بحوافزها ودوافعها لجاءت بصاحبها على رأس القائمين السياسيين المحنكّين، وحكّام الإسلام اللامعين»[1].

وكان لا بد للإمام في ظل موقعه الرائد من الأحداث أن يختار هذا الصلح وفق أسس منهجية وموضوعية غير خاضعة للردّ أو الاختزال، لا أن يتخلى عن الأمر ويضع الحبل على الغارب، وذلك من أجل أن ترسو السفينة العائمة بهدير الأمواج على أرض صلبة من الشاطىء، ولقد خطط الإمام عليه السلام لموقفه في الصلح المشروط في ضوء المقدمات الآتية، والتي فرضت عليه الخيار المحدّد ليس غير:

١ ـ إن الجيش العراقي الذي ينتظر به خوض المعركة الحاسمة منقسم على نفسه، وفي ظل تركيبته الإقليمية، الى قسمين: كوفيين وبصريين، الكوفيون علويّون فيما يقال، وقد تقدم تفصيل موقفهم من الحرب، والبصريون أمويّون، فكيف يحارب الأمويين بالأمويين، وفي الأقل كيف يحارب معاوية بجيش منقسم الولاء؟ كما هو الواقع.

٢ ـ لمس الإمام بوادر العصبية القبلية بين هذين الفريقين كما مرّ، فربيعة الكوفة تضطهد ربيعة البصرة، ومضر البصرة تناوىء مضر الكوفة، ويمن

---

(١) راضي آل ياسين/ صلح الحسن/ ٢٥٧.

الكوفة تقاتل يمن البصرة، وموالي البصرة ضد موالي الكوفة.

٣ ـ أدرك الإمام عليه السلام مسلسل الأحقاد الجاهلية في المجتمع الكوفي، فقد نجح معاوية نجاحاً باهراً في تمزيق الوحدة العضوية لكيان الكوفة حتى عادت أشلاء متفرّقة في مهّب الرياح العاتية، وأورىٰ الفتن في إطار الأوغار القديمة، ورأى نظرية الأخذ بالثأر في الجذور المتأصلة، فالدماء تراق لأتفه الأسباب، والأزمات تنفجر لأبسط الأحداث، والمشاعر تلتهب بأدنى شرر متطاير، والوحدة لا يمكن استعادتها.

٤ ـ وأجال الإمام عليه السلام طرفه في نظرة فاحصة أخرى، فرأى جماهير الجيش البصري، وهي تساق الى الحرب المنتظرة دون عقيدة دافعة، وإنما كان سوقاً إجبارياً في أَسلم التعبيرات، وإن كان فيه من يقاتل فلا يقاتل عن إيمان راسخ، فهو أموي الهوى عثماني العقيدة.

٥ ـ يترشح عن الفقرة السابقة مضافاً الى استقراء الإمام عليه السلام نوايا المقاتلين، أنه وجد ثلةً كبيرة من البصريين ليسوا بأهل حرب، وهم يجرّون اليها ولا يؤمنون بها، فلا يكتب معهم أي نصر، ولا يتحقق أي ظفر مهما كان ضئيلاً، فعسى أن يكونوا أول المنهزمين، وفي ذلك ما فيه من انهيار معنوية الجيش بعامة.

٦ ـ أضاف الإمام عليه السلام في ضوء تقديراته الحقيقية واقع جيشه الكوفي الذي هو عماد المعركة وعمودها، وإذا به: القادة يرشون، والأركان ينسحبون، والناس تتفرق، والإشاعة تنتشر، والدعاية للقتال في إخفاق يصل درجة الصفر، والخور والهلع والخوف يمتلك كل النفوس الضعيفة، والتوجيه المعنوي يفتقد أدنى مقوماته، إذ لا قائم به، بل العكس هو الصحيح، والأراجيف تنام وتستيقظ على أصوات التهويل والأباطيل، والأموال تصل أهل الردّة سراً وجهاراً، والقوم بين أملٍ

متضائل، وشعور بالمسؤولية متدّاعٍ، وهذه المؤشرات قد تجرّ الى كوارث ونكسات في تقدير الإمام وهو في غنى عن كل ذلك.

٧ ـ لفت نظر الإمام تكاثف نشاط الرتل الخامس المتمركز في الكوفة من أهل الريب والبدع والخوارج والانتهازيين، وهذه الطبقات جمعاء بعيدة كل البعد عن الواقع الرسالي الذي يقاتل من أجله الإمام، فهم أول المعارضين بل المعرقلين للمنهج والقيادة والأهداف في أولوياتها منذ اللحظة الأولى.

٨ ـ تنبه الإمام الى عدة محاولات جادّة لاغتياله يقوم بها العملاء السريّون لمعاوية، بل وجد استعداداً من قبل هؤلاء لقتله أو تسليمه لمعاوية أسيراً، وقد راسل جملة منهم ـ رعاعاً وأيفاعاً ـ وأرسلوا له بالبيعة دون وعي للنتائج المروّعة لهذا التدهور الأخلاقي والإنساني معاً، وقد أثرّ هؤلاء الأذناب أثرهم البليغ في أفق تسيطر عليه الاِهتزازات العقائدية والخواء السياسي، فكيف تكون الحال إذا تبنّى هذا التيار زعماء القوم؟ لك أنت أن تتصور ذلك!! فكيف بإمام مفترض الطاعة، متأصل القيادة، حديد النظر، جدّي الممارسة كالحسن ابن أمير المؤمنين عليه السلام.

ليس هذا الانزلاق في العمالة لمعاوية شيئاً نحن ندّعيه على القوم أو رؤسائهم في الكوفة ـ وهي عاصمة أمير المؤمنين في خلافته ـ بل هو حقيقة ثابتة في كل وقائعها المرّة، السواد وعلية القوم. . .

فقد روى البلاذري: أن زعيم بني تميم في الكوفة، وهو عثمان بن شرحبيل التميمي، قد بايع معاوية سراً[1].

---

(١) ط: البلاذري/ أنساب الأشراف ١/ ٢٢٣.

وأنت أدرى بفروض البيعة، وما يترتب عليها من تنفيذ كل الأوامر والإرادات للمبايع له.

بعد هذا كله، وما لم نذكره يوازي ما ذكرناه مما مرّ عليك سابقاً ـ فما يدرينا لو أن الإمام الحسن عليه السلام قد حارب معاوية بهذا الفلل من جنده، وهذا التخاذل من الكوفيين والبصريين، وهذا التعامل السريّ والعلني من قبل النفعيين والعملاء والانتهازيين، ما يدرينا ما يكون المصير؟ أجل والله لأسلمه الجمعان عند أول رمية سهم، أو ضربة سيف، أو طعنة رمح، فإمّا القتل له وللصفوة من الهاشميين وأصحابه المنتجبين، وأمّا الأسر الذليل لهم جميعاً وهو الأمثل عندي من خلال سيرة معاوية، فإن مما يشين معاوية كثيراً، ويطأطىء من جبروته كونه طليقاً وابن طليق، فما رأيك لو ذهب بالحسن والحسين عليهما السلام وأنصارهما، ووقف حيث وقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم الفتح، وقال لهم جميعاً ما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم له ولأبيه ولقريش بعامة: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[1].

ثم يلتفت معاوية الى جهة المدينة ليقول: يوم بيوم الفتح يا رسول الله!!! ولا تعجب من هذا فالتركيبة البدوية للأمويين تفرض عليهم سوء الأدب، وحبّ الانتقام، والترحيب بنظرية الأخذ بالثأر حقاً أو باطلاً، ألَمْ يقلْ عمرو بن سعيد بن العاص الأموي عامل يزيد على المدينة عند مقتل سبط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحسين بن علي عليهما السلام، وقد جيء بالسبايا إلى المدينة، ملتفتاً إلى ضريح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يصرخ:

---

(١) ظ: الطبري/ التأريخ/ فتح مكة.

«يوم بيوم بدرٍ يا رسول الله»[1].

هذه المقدمات بمضاعفاتها اللامحدودة هي التي دعت الإمام الحسن عليه السلام إلى اختيار القرار السياسي في الصلح.

(١) ابن أبي الحديد/ شرح نهج البلاغة ١/ ٣٦١.

«القرار السياسي في ضوء المسؤولية»

أ ـ يقظة الإمام لا الإنفعال الثوري:

ربما كان الإنفعال الثوري الطائش هو الذي دعا جمهرة من الأغرار الى القول: بأن على الإمام الحسن عليه السلام أن يقاتل معاوية مهما كانت النتائج، وهذا القول مرفوض بكل عواهنه واضطرابه، لأن وراء الإمام الحسن عليه السلام حنكة سياسية مجرّبة، وله قيادة عسكرية سابقة زمن أبيه بل وفي عهد عثمان في فتح إفريقيا، والإمام لا يعصي القرار السياسي متأثراً بأهواء الناس وعواطف الناقمين، إنما يكون القرار نابعاً من صميم مصلحة الإسلام العليا، وفي ظل القرآن العظيم، وطبق سيرة جده وأبيه صلوات الله عليهما، وإذا كان القرار إنما يصدر في أمثال هذه المفردات الواعية، فهو القرار العتيد الذي يصدر في ضوء المسؤولية الرسالية ليس غير.

ولم يكن الإمام الحسن عليه السلام عسكرياً متوسعاً، ولم يكن زعيماً قبلياً، وهو لا يحاول ملكاً دنيوياً، ولا يسعى الى نصر مزيّف، وما كان له ـ وهو الإمام المفترض الطاعة ـ أن يندفع بإحساس عاطفي، أو ينجرف بوعي لا ديني، أو يتصرف دون حاجز مباشر، وإنما كان في مسؤوليته القيادية رائد دين، وفي تصرفاته العسكرية قائد أمة، وفي نضاله الإنساني صاحب قضية كبرى، أما أن القضية قد فشلت على يد الأتباع والجيش المنهزم، فذلك تقصيرهم في العطاء وقصورهم في

الأداء، وهم وحدهم يتحملون تبعات هذا الفشل، ونتائج هذا الخسران المستبين.

أمّا الإمام الحسن عليه السلام فلم يتراجع عن تكليفه الشرعي لحظة زمنية. فلم يخلد الى حياة الراحة والانزواء، وعاملاً بصبر عجيب، ولم يهدأ حين تضطرب الأزمات، ولم يصمت حيث تتحرك الكوارث، وإنما كان له فضل السبق بما خطط وبرمج في تثبيت المسمار الأول الذي اخترق نعش الحكم الأموي فشيعه الى الأبد، وقد يبدو هذا الرأي لأول وهلة مبالغاً فيه، أو هو متطرف من جذره، ولكن نظرة موضوعية للحركات المتلاحقة والأحداث الجسام التي ألمت بالنظام الأموي، هذه النظرة ترنو الى قواعد الثورة الكبرى التي نسفت كيان الحكم الأموي، وهي ثورة الإمام الحسين عليه السلام في طف كربلاء، والتي يبدو فيها دور الإمام الحسن عليه السلام مخططاً للبعد العسكري المتجمع، وممهداً للنهج الثوري المتحمس من خلال معركته السريّة التي خاضها من أجل البناء والتغيير.

لم يترك الإمام الحسن عليه السلام الأمة للظروف والأقدار، بل احتاط لذلك في ظل عهود الصلح فيما بينه وبين معاوية، فلقد اضطر معاوية ـ وهو الماكر الخبيث ـ أن يوافق باديء ذي بدء على كل شرط وعقد وعهد وأمر وقرار يكتبه الإمام عليه السلام دون تقيّد بأية عقبة أو تبعة حتى جعل الأمر مفتوحاً بين يدي الإمام عليه السلام فيما يحبّ أن يكتب، وقد يكون هذا نوعاً من السياسة المغلّفة التي يعتورها الدجل والكذب واللامبالاة، وقد تكون وعود معاوية كافة وعوداً خلّابة لا أساس لها من الوفاء، ولكن الإسلام يتعامل مع ظواهر الأمور ولا يفتش عن الأعماق، والمخائل العربية الأصيلة عند وعودها حتى في جاهليتها الأولى، بيد أن

التضليل السياسي قد لعب دوره القذر في المعاهدة، أليس القوم هم نفس القوم أنفسهم الذين إنخدعوا برفع المصاحف، والعودة الى كتاب الله يحكم فيما شجر بينهم في صفين؟ فماذا يصنع الإمام الحسن عليه السلام مع شعبه الذي انطلى عليه الهراء واستسلم فيما سبق للخديعة والمراوغة، فلئن اقتنع الإمام نفسه بما يكنّه معاوية ويبيته من النكث والنقض، فمن الذي يستطيع إقناع السواد الأعظم بهذا الفهم، فقديماً ما ألزموا علياً بالتحكيم، وها هم اليوم يقفون الموقف نفسه مع الإمام الحسن، وينادون بأعلى أصواتهم: البقية البقية، هذا الملحظ مما اضطر الإمام الحسن أن يلتفت الى الكوفيين قائلاً:

«كأني أنظر الى أبنائكم واقفين على أبواب أبنائهم يستسقونهم ويطعمونهم بما جعل الله لهم، فلا يسقون ولا يطعمون»[١].

ومهما يكن من أمر، فإن ابن عبد البر قد أضاف الى العهد أمرين مهمين، الأول عام: وهو إملاء الإمام الحسن شروطه دون قيد أو شرط.

الثاني خاص: وهو أن يكون الأمر من بعده للإمام الحسن عليه السلام، قال:

«فبعث إليه معاوية برقٍّ أبيض، وقال: أكتب ما شئت فيه وأنا ألتزمه، فكتب الحسن شروطه، واشترط عليه أيضاً: أن يكون له الأمر بعده، فالتزم ذلك كلّه معاوية»[٢].

وسترى أن هذا الالتزام فيما بعد، حبر على ورق، لأن معاوية يغدر ويفجر، والإمام يبّر ويلتزم. فقد ذكر المؤرخون بعد هذا أن

---

(١) باقر شريف القرشي/ حياة الإمام الحسن ٢/١٠٨.

(٢) ابن عبد البر/ الاستيعاب ١/ ٣٧٠.

معاوية دخل الكوفة، وخطب فيها خطبته الغادرة، والتي بيّن فيها أنه يضع جميع ما أعطاه للإمام الحسن عليه السلام من شروط تحت قدميه[1].
ولدى سماع الناس لهذا الخطاب علا استنكارهم، وكثر لغطهم، وقامت ثائرتهم، وكان أول المحتجّين عليه قيس بن سعد بن عبادة. فأصحر بالحق مجاهراً، ونطق بالصدق ناهداً، ولكنها صرخة في وادٍ.

ولا شك أن هذا المنطق الغادر لمعاوية كان أول نصر حاسم سجله التاريخ العربي للإمام الحسن عليه السلام فقد أدرك المسلمون بعامة، وأهل العراق بخاصة أن معاوية ـ وهو يحكم باسم الدين ويتبوأ دست الخلافة بزعم الإسلام ـ أدركوا أنه طالب ملك لا صاحب دين، ورائد تحكّم لا رجل مبدأ.

هذا الملحظ بالذات هو الذي كشفه الإمام الحسن عليه السلام ضمن رسالة بعث بها إلى معاوية فيما بعد يفضح فيها سيرته وسيرة أبيه، وإفتآته وإفترائه على الإسلام. ويدينه بعمله.

قال الإمام عليه السلام «فاليَومَ فَلْيَتَعَجْبُ المُتَعجبُ من توثبك يا معاوية على أمرٍ لست من أهله لا بفضلٍ في الدين مَعروفٍ، ولا أَثْرٍ في الإسلام محمودٍ، وأَنتَ ابنُ مَنْ حزّبَ الأحْزاب، وابنُ أعدى قريش لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وَلِكِتَابِهِ، والله حسبُكَ فَستُرّدُ وَتَعْلَمُ لِمَنْ عُقبى الدارِ، وبالله لَتَلْقَيَنَّ عن قليل رَبَّكَ ثم لَيُجْزِيَنّكَ بِما قَدَّمَت يَداكَ، وما لله بِظلاّمٍ للعَبيد»[2].

هذا السبيل كان جديراً بتوعية الناس وايقافها على واقع النظام، وهو يبتعد عن الإسلام، ويجانب الحقّ، ويجنح إلى الباطل.

---

(١) ظ: الشيخ المفيد/ الإرشاد/ ١٧٣.
(٢) ابن أبي الحديد/ شرح نهج البلاغة ٤/ ١٢.

ب ـ تهيأة الرأي العام:

ووقف النظام متبرّجاً لا يستره شيء عن أعين الناس، وفضحت في الأقاليم سياسة معاوية بنقض العهد، وحنث اليمين، وهو أول مكسب يحققه حزب الإمام عليه السلام في اختراق الحواجز المعتمة التي غطّى بها النظام سلوكه، وأسدل بإيرادها على جوهره، وقد شاءت قيادة الإمام وهي تهيىء لثورة الحسين عليه السلام في كربلاء أن تهيىء الرأي العام عن كثب لاكتشاف حقيقة الحكم على طبيعتها دون تزيّد، فانكرت على النظام سوء التدبير، والخروج عن الدين، والاستئثار بفيء المسلمين، فقد جبه الإمام الحسن عليه السلام معاوية في المدينة المنوّرة بما أوضح به انتزاءه على الأمة، واغتصابه الخلافة، وهو يخالف الكتاب، ويعطّل السنة، مشبّهاً ذلك بالملك الذي تنقطع لذّاته وتبقى تبعاته.

قال الإمام عليه السلام: «أمّا الخِلافَةُ فَلِمَنْ عَمَلَ بِكِتابِ الله وَسُنّةِ نَبِيه، وَلَيسَتِ الخِلافَةُ لِمَنْ خالَفَ كِتابَ الله وَعَطَّلَ السُنّةَ، إنَمّا مَثَلُ ذلكَ مَثَلُ رَجُل أصابَ مُلْكاً فَتَمَتّعَ به، وَكأنّهُ انقطعَ عَنْهُ وَبَقيتْ تبعاتُهُ»(١).

وكما تحدث الإمام عليه السلام عن سلوك معاوية الشائن، فقد تحدث عن منزلة أهل البيت عليهم السلام الرسالية، وأنهم وحدهم هم القيّمون الحقيقيون على الإسلام، فقال عليه السلام:

«وَأنَا مِنْ أهل البيتِ الذي كان جبرائيل ينزل إليْنا، وَيَصْعَدُ مِنْ عِندِنَا، وأنَا مِنْ أهلِ البيتِ الذين أذْهَبَ اللهُ عَنْهُمْ الرِجْسَ وَطَهّرَهُمْ تَطْهيرا»(٢).

---

(١) الخوارزمي/ مقتل الحسين ١/ ١٣٠.
(٢) الحاكم النيسابوري/ المستدرك ٣/ ١٧٢.

فكأن الإمام هنا قد قام بالدعوة الإيجابية لأهل البيت كما قام فيما سبق بالدعوة السلبية ضد النظام الأموي الجائر.

وشجع الناس على مجابهة معاوية، وهم يصوّرون حكمه للناس في حملة إعلامية أعطت ثمارها بعد حين، فهذا صعصعة بن صوحان العبدي، وهو من أبرز أصحاب أمير المؤمنين يصك معاوية بقوله:

«كيف؟ وقد عَطَّلْتَ السُنّةَ، وأخفرت الذمّةَ، فصارتْ عَشواء مُطْلَخمّة في دَهيّاء مُدْلَهِمّة، قد استوعبتها الأحداثُ وَتمَكّنتْ مِنهَا الأنْكاثُ»[1].

وأوضح عبد الله بن الكواء لمعاوية سيرته في قتل الأبرار، وسجيته في استبعاد الآخرة، وطبيعته في قلب حقائق الأشياء، فقال له مقابلاً: «إنك جبارٌ عنيدٌ، لا تراقبُ الله في قتل الأخيار، قد علمنا أنك واسع الدنيا، ضيّق الآخرة، قريبُ الثرى بعيد المرعى، تجعل الظلماتِ نوراً والنورَ ظلماتٍ»[2].

وأنكر الحسن المنكر ما استطاع الى ذلك سبيلاً، ولم يقتصر به على معاوية وحده بل شمله الإنكار وشمل أتباعه من طواغيت النظام، وكان حبيب بن مسلمة الفهري أحد عمال معاوية الذين باعوا دينهم بالدنيا، وخسروا نصيبهم بالقليل الأدنى، وقد التقى به الإمام في الطواف فقال له: يا حبيب ربَّ مسيرٍ لَكَ في غير طاعة الله.
فقال حبيب: أما مسيري من أبيك فليس من ذلك.

فردّ عليه الإمام عليه السلام قائلاً: « بلى والله، وَلكنّكَ أطعت معاوية على دنيا زائلةٍ، فَلَئِنْ قامَ بِكَ في دنياك، لقد قَعَدَ بِكَ في آخرتك»[3].

---

(١) ابن عساكر/ تاريخ دمشق ٦/ ٤٢٥.
(٢) المسعودي/ مروج الذهب ٢/ ٣٤١.

وأجمع الرأي العام على غدر معاوية ونقضه للعهود، وعاد من المعروف غدره ونكره حتى قال الحصين بن نمير: «ما وفى معاوية للحسن بشيء مما أعطاه، قتل حجراً وأصحاب حجر، وبايع لابنه، وسمّ الحسن»[1].

وقابل معاوية الرأي العام بالكذب والمكابرة، وادعاء الزلفة الزائفة، وعمد الى سبّ أمير المؤمنين عليه السلام ناكثاً ابرز شروط معاهدة الصلح، وكان ذلك مما أثار عليه الناس، وأسخط العامة، فقد جمع الناس في دمشق وخطبهم قائلاً: «أيها الناس، إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لي: إنك ستلي الخلافة من بعدي، فاختر الأرض المقدسة فإن فيها الأبدال، وقد اخترتكم فالعنوا أبا تراب»[2].

وتطرف كثيراً في سباب أمير المؤمنين في الجُمَعِ والأَعياد حتى صار ذلك من بِدَعِهِ التي سار عليها مَنْ بعدَهُ من الأمويين، وكان آخر خطبته قوله: «اللهم إن أبا تراب ألحد في دينك، وصدّ عن سبيلك، فالعنه لعناً وبيلاً، وعذّبه عذاباً أليماً».

وكانت هذه الكلمات يشار بها على المنابر[3].

وكان هذا المنهج الذي ابتدعه معاوية في شتم أمير المؤمنين عليه السلام قد لاقى موجة عارمة من الغضب عند الناس، وقوبل بردّة فعل معاكسة لدى المسلمين، مما جلب سخطهم على النظام، وهيأ الرأي الجماهيري ضدّه، وذكّر المسلمين بسابقة علي عليه السلام في

(١) ابن أبي الحديد/ شرح نهج البلاغة ٤/ ١٦.
(٢) ابن أبي الحديد/ شرح نهج البلاغة ٣/ ٣٦١.
(٣) محمد بن عقيل/ النصائح الكافية/ ٧٢.

الإيمان، وأوليته في الجهاد، وأوغر صدور الشعب المسلم على معاوية.

فقد تذكر الناس قول رسول الله: « مَنْ سبَّ عَليًا فَقَد سَبّني»[1] وقد أنكر سعد بن أبي وقاص، وكان منحرفاً عن أمير المؤمنين عليه السلام سباب علي من قبل الأمويين، فقد سمع من يشتم علياً عليه السلام فقال له: يا هذا علام تشتم علي بن أبي طالب؟ ألم يكن أول من أسلم؟ ألم يكن أول من صلى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ألم يكن أعلم الناس؟[2].

وكان الاجتراء على سب أمير المؤمنين عليه السلام من قبل معاوية أول نقض لصلح الحسن في أبرز شرط من شروط المعاهدة، ولم يكن هذا وحده ما نقمه الناس، بل أضاف له معاوية أشياء وأشياء، هيأت المناخ السياسي للإطاحة بنظامه.

---

(١) الحاكم النيسابوري/ المستدرك ٣/ ١٢١.

(٢) جعفر مرتضى العاملي/ الصحيح من سيرة النبي الأعظم ٢/ ٣٢٢ وانظر مصادره.

ج ـ صحوة الضمير الإنساني في العراق:

ولم يطل الانتظار بأهل العراق، فقد قلب لهم معاوية ظهرَ المجّن، فرأوا من الأحكام الجائرة الشيء الكثير، ولمسوا من الذلّ والخيبة والخسران ما فاض به الوطاب، وسار فيهم معاوية سيرةَ الطواغيت، فندموا على ما فرّطوا في جنب الإمام الحسن عليه السلام وأقبلت عليهم الفتن كقطع الليل كثافةً، وانهار بنيان دولتهم في الكوفة عاصمة أمير المؤمنين عليه السلام، وانتقلت القيادة من العراق الى الشام، ورأوا في معاوية ذلك الغول الذي يلتهم كل شيء، ولا يمنحهم أي شيء.

وأفاق الناس على حكم صارم، وأثرة معتدٍ أثيم، وسياسة مستَبدٍّ غاشم، فرّق الجمع، وبُدَدَ الائتلاف، وقضى على الوحدة العراقية، واستصفى الذهب والفضة، واحتجن الأموال السائلة والجامدة، ولم يسلم السلطان من سفك الدم الحرام، ولم يسلم النظام من مظاهر الإرهاب، وجزع من جزع من تلك السياسة المالية والإدارية، فكان الإنكار الصريح في كل من المشرق واليمن والعراق، وكان الاحتجاج الصامت في كل من نجد والحجاز وحتى الشام، وانفلتت الأقاليم صارخةً من الظلم الصارخ، وبرز الخوارج من جديد في قوة تقلق الحكم وتثير الأزمات، وتسابقت الإحن والأحقاد تفترس شلو القبائل العربية الممزق، وضج الناس من العصبية والظل العرقي في كل مكان، وكان الاضطهاد ينشر ظله في العراق خاصة، واستبد فيه الحرمان القاتل، وتفشى المرض والفقر بين صفوف الأمة، وتعالت أصوات

الجياع والمحرومين، ولا مستجيب للتغيير، ولا مجير من العدوان، ولا منقذ من الفتنة، أضف الى هذا كله ما أشار إليه الأستاذ فلهاوزن «من حرمان العراقيين العطاء، وإغداق الجرايات الضخمة على أتباع النظام في الشام»[1] وتجبر معاوية تجبر الطغاة، وألبس ذلك بإطار ديني مزيّف، وأيده فيه الفقهاء الرسميون، وسار عليه الولاة والقضاة وعملاء الدولة، وكانت هذه المفردات مجلبة للنقمة العارمة على النظام، فقد أجهز فيها على نفسه، وكان الإنكار العلني والسري الذي سخره الإمام الحسن عليه السلام في طريق التغيير الثوري هو الذي القح شرارة ذلك الاحتجاج، وكان صلحه الذي بناه ضمن موازين سياسية نافذة هو الذي أطلق النفوس من العقال، فقالت ونالت ثم عملت فأطاحت.

إن الواقع المجهول عند الكثيرين لا سيما العراقيين برز في طرفة عين وذلك أن معاوية طيلة إمارته على الشام، وهي عشرون عاماً، كان يُسِرّ حسواً في ارتغاء، فقد يحافظ على المظاهر، وقد لا يصطدم بالشعائر، وقد يحافظ على جملة من الطقوس، حتى إذا حانت الفرصة بسيطرته على السلطان أسفر عن وجهه الصريح دون مواربة، ولولا صلح الإمام الحسن وتخطيطه لهذا الأمر، لبقي التضليل مُقنعاً، والغدر مبيّتاً، ولظل جرح الأمة ينزف دماً غزيراً، ولكان الحديث عن الإسلام في أصالته في أمس الدابر.

يقول الإمام كاشف الغطاء رحمه الله: «أن كل الصلاح وصلاح الكلّ فيما فعله الإمام الحسن عليه السلام، لا من حيث التعبّد والتسليم والخضوع للأمر الواقع مهما كان خيراً أو شراً، ولا من حيث الاعتقاد بالعصمة، وأن عمل المعصوم لا بد وأن يكون موافقاً للحكمة، كلاّ بل لو تدبّرنا

(١) ظ: فلهاوزن/ الدولة العربية/ ١٥٨.

الواقعة ونظرنا لها من جميع أطرافها وظروفها وملابساتها ونتائجها ومقدماتها لاتّضَح لنا على القطع واليقين بأن ما فعله سلام الله عليه هو المتعيّن لا يقع غيره، نعم هو الحزم بعينه، وهو الظفر بخصمه، وهو عين الفتك بعدوه من حيث الفنون الحربية والسياسة الزمنية، فَعَلَ فِعلَ القائد المحنك والحازم المجرب، فحارب عدوه بالسلم، وغلب عليه بالصلح، فأخمد ناره، وهتك أستاره، وأبدى للناس عاره وعياره، وما كان من الصلاح إلا أن يحاربه بالصلح لا بالسلاح، ويذبحه بأعماله لا بقتاله ونباله، وهذا أتمُّ للحجة، وأقطع للمعاذير، وأبلغ في دفع الريب والشبهة»[1].

وهكذا كان فقد حارب الإمام الحسن عليه السلام معاوية بسلمه، وحقق في صلحه ما لا يحققه الفاتحون في القتال، مما كانت معه صحوة الشعوب الإسلامية بعامة والشعب العراقي بخاصة من الغفوة الراقدة، فكانت الحقيقة وضاءة كاشفة، وكانت النتائج باهرة، فما استمرأ معاوية بالحكم لآله وبنيه إلا ليتجرع الغصص في الدنيا، ولعذاب الآخرة أشدُّ وأخزى.

---

(١) محمد الحسين آل كاشف الغطاء/ تقديم كتاب الإمام الحسن/ باقر شريف القرشي ١١/١.

«ظواهر الثورة المضادّة»

أ ـ وضوح الرؤية السياسية في الصراع:

ربما كان الوعي البدائي لدى الناس لا يسمح بوضوح تام للرؤية السياسية في الصراع القائم بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية، أو بين الذات الفطرية الصادقة والتركيبة الخلقية المعقّدة، أو بين الحق والباطل في تعبير عام.

إلاّ أن الرؤية بدت تتضح لدى الشعب المسلم بجلاء حينما ازيحت الحجب، وتسلم معاوية السلطان، وبدأ الصراع يأخذ طابعه المصيري في كل الأبعاد الإجتماعية، وأدرك الناس أن كل هذا الابتزاز لتفكير الأمة، وكل هذه المصادرة لأموالها، وكل هذا الاهتزاز في كيانها، وكل هذه الدماء السائلة من أوداجها، أُرِيد بها كلها إرساء دعائم الحكم الأموي على أرض ثابتة، لا إقامة صرح العدل الاجتماعي، ولا إرادة الحياة الإسلامية الهادفة، وقد أخطأ النظام التفكير في إثبات ذلك أو الترويج له، فالذي حصل هو عكس المتوقع ميدانياً، فالمبادىء المتزلزلة التي سخرها معاوية في هذا المضمار كانت متأرجحة متقلبة في أرض هشّة لا قرار لها، إذ سرعان ما عصفت بها هوج الرياح المدمّرة، فانهار هذا البناء من شاهق لا يلوي على شيء، فقد كشفت كل هذه

المناورات الزائفة انفصال معاوية من كل عرى الإسلام الذي تسلم الحكم في ظلاله، وأكدت بما لا يقبل الشك ابتعاده عن الحضيرة الإنسانية في كل مجالاتها، وصورت للمجتمع الإسلامي ارتكاسه في مستنقع اللامبالاة بالأعراف والقيم، وجسدت شخصيته بدوياً جافاً غليظ الطباع، بينما شكّلتْ هذه الظواهر التي التزمها معاوية نقطة الانطلاق في النصر العقائدي للإمام الحسن عليه السلام لأنها أفصحت عن التزامه الدقيق بكل مواثيق الأيمان، وعبّرت عن استيعاب داخلي ينطلق من الأعماق في الاعتصام بالله وحده، وهنا اتضحت الرؤية الفاحصة بين المعسكرين، معسكر التضليل ومعسكر الواقعية، ولم يكن الإمام الحسن عليه السلام ليمتلك القوة الفعلية في إرساء قواعد هذا التيار التجريبي الشامل، ولكنه في موقع التأثير بسلوكه الذاتي الذي حقق هذا المنظور تلقائياً وعفوياً، بينما لم يستطع معاوية بكل جبروته وامكاناته ان يتجاوز النظرة إليه بأنه الحاكم المستبد الذي لا يأبه بدين أو قيم، ولا يلتزم بنظام أو مبدأ.

أما الإمام الحسن عليه السلام فكان واضحاً في أعماقه ومشاعره، ناصع الجبين في مشاريعه وشؤونه، لم يكتنف الغموض تطلعاته الفعلية ولم يجانب الصواب في تخطيطه المستقبلي، وإن كان فيهما بعيد الغور، عميق النظرة أصيل التنظيم، فحينما بلغ الإحتجاج ذروته على تجاوزات معاوية اللامنطقية، وأوشك الصبح أن يسفر لذي عينين، وكادت ظلمات الإيهام والخداع أن تهوي، وآن للحقيقة أن يتجلى جزء منها وإن كان ضئيلاً، برز دور الإمام الحسن عليه السلام في جمع الصفوف، ورأب الصدع، وبلورة الشعور، وتوحيد الكلمة ريثما تحين الفرصة لوضع اللمسات المضيئة في منعطفات مشروعه الجديد في الانقضاض على الحكم الأموي، إذ سرعان ما تدارس الناس حياة الأمة، وسرعان

ما بان تصاعد المفارقات الهائلة في أجنحة النظام، وسرعان ما استجار الشعب المسلم بالإمام الحسن عليه السلام وكان هذا التطور المفاجىء في الرؤية السياسية يدعو الى التفاؤل الحذر في إدراك حقائق الأشياء، ولكنه على أية حال لم يكن ليتوافر لولا تغيّر المشاعر الى الأفضل، ولولا عودة الوعي بعد غيابه عن المعترك القائم، فقد أقبلت وفود العراق تترى بحماس منقطع النظير وهي تريد القتال دون رويّة وتخطيط، لقد غلبتها العواطف الجيّاشة من جهة، واستولى عليها الشعور بالإثم من جهة أخرى، وواضح أن الدعوة الى الحرب فيها كثير من التطرف غير المبرّر، فمن يقاتل الإمام؟ وكيف يقاتل الإمام؟ ومن يقف في صف الإمام؟ وماذا وراء الحرب المدمّرة لو حدثت؟ لقد كان سليمان بن صرد الخزاعي كما رأيت من ذي قبل على رأس وفد يطالب باسم العراقيين بمناجزة معاوية الحرب فوراً دون دراية بخطوات التنظيم الجماعي الذي سعى له الإمام الحسن عليه السلام ولو وقفنا عند المؤشرات التي رغب فيها الوفد العراقي في طلباته العاجلة لرأينا أن شرائح ما يريد ممثلهم سليمان بن صرد الإذن بالفقرات الآتية:

١ ـ أن يشخص سليمان نفسه الى الكوفة داعية حرب ورسول قتال.

٢ ـ أن يعمل على إخراج عامل معاوية عليها.

٣ ـ أن يظهر خلع معاوية جهاراً.

٤ ـ أن ينابذ معاوية القتال على سواء.

وهو يريد بكل هذا إذن الإمام عليه السلام ولكن الإمام عليه السلام تطامن وهو أربط جأشاً، وأصلب شكيمة، وعالج هذا الانسياق العاطفي الذي لا يستند إلا لمنطق الثورة العارمة انى كانت نتائجها، فهدّأ الإمام هذه

الفورة، وخفف من غلواء هذا التوتر، ووعد سليمان والموفودين معه، بالثورة عند ابّانِها، ووضع الجميع على بيّنة من الأمر أمام البرنامج المستقبلي كما مرّ.

ب ـ تنظيم قوى الثورة:

لم يكن الإمام الحسن عليه السلام ليؤمن بارتجال الخطوات، وليس من شأنه أن يبادر لاستثمار الانفعال الوقتي، ولا علّمنا في تأريخه السياسي الحافل أن يستعجل الزمن، كانت خطواته الكبرى منطلقة في ضوء قيادة القرآن، وكانت مبادؤه العليا مستندة الى السنّة النبوية، فهو يدعو الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وهو يلين لقومه بما رحمة من ربه، فلم تكن الوفود لتقتصر على الوفد الذي أرسل برئاسة سليمان بن صرد بل قصدته وفود أخرى ولعدة سنوات، وهي تستمع إليه، وتتلقى منه، وهو يسمع منهم ويصغي إليهم، وما حدثنا التاريخ أنه أغلظ إليهم حتى ينفضّوا من حوله، ولا عبس بوجوههم حتى تختفي بسمات الآمال من القلوب، أخذ العفو، وأمر بالعرف، وأعرض عن الجاهلين، وقد استقام كما تنبغي له الاستقامة، فلم ينحرف ولم يتطرف، خفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين، اعتبر الجمع أهل مودّة ونصيحة، ورأى في أنصاره رجال الصحبة والاستقامة، وشرح للعراقيين أكثر من مرة أنه إنما يعمل للآخرة، ولو أراد العمل للدنيا لم يعجزه ذلك، ولكنه صاحب رسالة تقتضي الروية لا المغامرة، وعليه وحده يقوم تنظيم قوى الثورة فيما هو الأرشد والأصلح، وأن يكون هذا التنظيم خاضعاً للسرّية، وأن يكون ذلك على هدى ووعْي، لا اتباعاً للهوى، والعمل الجّاد مسؤولية رسالية، والمسؤولية تنطلق من الشعور

بها، والشعور ينبع من صميم النفس الإنسانية ولا يفرض من الخارج، وعلى أتباعه في ضوء هذا العرفان، أن يتحصنوا من الداخل بالتقوى والإحسان، كما عليهم أن يتحصنوا في الخارج بالصبر والكتمان، وعليهم أن يتدرعوا بالحزم واليقظة، وذلك يستدعي التآزر والتشاور وإحكام الأمر، ويتطلب التجمع والتوحيد، وصدق العزم، ويوحي بطلب العون من الله، وإنتظار التعليمات من القيادة، ولم ينسَ الإمام الحسن عليه السلام أن يوصيهم بالترصد والتلبث، وأن يكون كل منهم حلس بيته، يفكر ويعمل ويخطط، التوعية من متطلبات الثورة، وجمع المال والسلاح من أركانها، وإعداد الرجال الأمناء أصل نجاحها، والمرحلية الزمنية سر انطلاقها.

ويبدو أن الأغلبية من شيعة الإمام عليه السلام قد اقتنعت بذلك واطمأنت إليه، وأن ليس في صلح الحسن مع معاوية نهاية لمتاعب الإمام عليه السلام بل ربما يكون ذلك بداية لمتاعب جديدة قد خُطط لها بأمانة وإخلاص، وقد شعر المخلصون القلائل أن الإمام قد نظّم لمستقبل الأمة بما هو أجدى عائدية على المدى البعيد، وربما تعجّل بعضهم الثورة ففاتح الإمام الحسين عليه السلام للقيام بها، ولكن الإمام الحسين عليه السلام وهو الخبير السياسي المحنّك لم يكن ليعدو رأي أخيه الحسن كما مرّ تفصيل ذلك سابقاً.

ج ـ التنظير الرسالي الموحّد:

بالإضافة الى ما سبق بيانه من متابعة الإمام الحسين لأخيه الإمام الحسن عليه السلام ربما نضيف هنا بعض الشيء فيما يتعلق بالتنظير الرسالي الموحَّد بين سيدي شباب أهل الجنة، فقد كان الإمام الحسين عليه السلام

مستجيباً الاستجابة كلها للظروف المتشابكة التي فرضت عليه وعلى الإمام الحسن عليه السلام سلماً ظاهراً ودعة موقتة أيام معاوية، فالحسين عليه السلام بهذا الملحظ يؤيد الإمام الحسن عليه السلام بالتريث والانتظار والإعداد، فقد استمر العراقيون ـ زيادة على ما سبق ذكره ـ في مراسلة الإمام الحسين عليه السلام وهم يستعجلونه بالثورة المسلحة، ولكنه أجابهم بما يشبه إجابته السابقة: «ما دام معاوية في قيد الحياة فلا أتحرك بشيء، وإذا مات نظرت في الأمر»[1].

ومعنى هذا أن الإمام الحسين عليه السلام لو كانت قيادة الأمة إليه زمن معاوية لأنتظر وصبر حتى تتهيأ أسباب الثورة، ولكن بعد وفاة معاوية.

والحسن عليه السلام وهو يتولى قيادة الأمة لم يكن ليتجاوز هذا القدر، فكلاهما ـ إذن ـ مشتركان في القرار، وما كان للحسين عليه السلام أن يتخلف عن دوره الرسالي لحظة زمنية واحدة، وما حدثنا التاريخ أن الحسين عليه السلام قد خالف أخاه في قراره، ولا حدثنا أنه امتعض منه مرة واحدة، وهذا يؤكد لنا التزامهما معاً للمنهجية الرسالية، واتحادهما معاً في التنظير الرسالي الواحد، واشتراكهما في النظر الى واقع الأحداث.

فلم يكن الإمام الحسين عليه السلام ثائراً أيام الإمام الحسن عليه السلام، ولم يكن الحسن عليه السلام صابراً لو أدرك ثورة الحسين، فكلاهما صابران وكلاهما ثائران، في وقت واحد، فما معنى أن يسمى الإمام الحسن عليه السلام صابراً ويسمى الإمام الحسين عليه السلام ثائراً، وهما يعيشان مأساة واحدة، ويخططان لقضية واحدة، نعم صبر الإمام الحسن عليه السلام على المكاره فلم يستطيع أن ينفّس عن كربه، وثار الإمام

---

(١) الشيخ المفيد/ الإرشاد/ ٢٠٦.

الحسين عليه السلام على الظالمين حينما وجد الى ذلك سبيلاً، فنفّس عن كربه، لهذا فدرجة صبر الإمام الحسن عليه السلام لا تساوي درجة ثورة الإمام الحسين عليه السلام فحسب، بل تزيد عليها غصةً ومرارة؛ ولهذا فإننا نعتبر اللائمين للإمام الحسن عليه السلام في عصره وحتى اليوم على نوعيين:

الأول: هم ذوو الفهم الساذج السطحي الذي لا يعي مسوّغات ودوافع صلح الحسن مع معاوية.

والثاني: هم أولئك المتحمسون صدقاً ولكنهم تجاوزوا حدود المعقول حتى خرجوا عن التوازن أسفاً وحزناً، وهم لا يقصدون التعنيف بقدر ما يندبون حظهم العاثر فيما يتخيّلون.

وكلا هذين الفريقين من الناس قد أخطأوا الطريق والتعبير، فلو نظروا بعين التحليل والنقد المنهجي الموضوعي لوجدوا أن الإمام الحسن عليه السلام قد أعدّ العدّة للانقضاض على الحكم الأموي تمهيداً للثورة المرتقبة، فقد عرّى الإمام النظام وكشف عن مساوئه، وأمسك بثغراته السياسية، وفضح انحرافه العقائدي، وهيىءَ الرأي العام ضده، ودعا الى التنظيم والترصد إعداداً للقضاء عليه، وأسمع صوته الناس في النكير على أعماله، وسفّه أحلام ولاته الطواغيت، فكان عليه الناس إلباً، فلما تمكنوا من الفرصة حملوا بوجهه السلاح، حتى انهار وشيّع إلى الأبد في ثورة سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام في طف كربلاء.

«الدعوة الى الإطاحة بالحكم الأموي»

أ ـ التمهيد للكفاح المسلح:

وكانت الدعوة الى الإطاحة بالحكم الأموي، حديث المتحمسين الى القتال، مثل هذه الدعوة في هدفها العام تلقى تجاوباً حثيثاً عند معارضي النظام، وتجد هوى عريضاً في نفوس الناقمين عليه، ولكن مثل هذا المشروع الضخم لا يتحقق إنجازه بالأماني الفارهة، ولا يصلح التفكير فيه في ظل الأحلام المتفائلة، وإنما يسعى إليه المناضلون الرساليون في أُسلات السيوف وكعوب الأسنّة، ولا بد لمثل هذه الحالة الجادة من التمهيد العلمي والتعبئة النفسية فضلاً عن الاعداد القيادي لجماهير الأمة، ومن هنا يبدو عمق التأصيل فيما كان يهدف إليه الإمام الحسن عليه السلام من الترصد لتهيأة المناخ المناسب لإعلان الثورة على النظام، فلقد كان تخطيطه الريادي يدعو الى استثمار أخطاء النظام في الإنقضاض عليه، وكان تفكيره التعبوي يصب في رافد الثورة، ولقد شجّع على ذلك جور الأمويين أنفسهم، وساعد عليه تفننهم بابتداع العقوبات العرفية ضد أعدائهم، فهي لا تستند الى دستور، ولا تنبع من صميم التقاليد العربية، مما كان له الأثر الفاعل في خلق الأجواء المفعمة بالإنتقام من النظام، وكان التجاوز على الإسلام في مقدراته وتعليماته عاملاً آخر من عوامل الإستياء العام الذي دفع بجمهرة من

الأبرار أن يقولوا بكفر النظام حيناً، وبجوره حيناً آخر، وبخروجه عن الدين سواهما، وما أكثر الصيحات المدويّة التي مهدت للكفاح المسلح في خاتمة المطاف، بعد أن فشلت كل المحاولات في ردعه، وأَخفقت كل التحركات الداعية الى تخفيفه من غلواء البطش والإرهاب، والعودة به الى المناخ المعتدل بين الشدّة واللين، ذلك أن السلاح اللساني المحض قد يصاب بالخيبة حينما لا يعود مؤثراً. وقد انطبع هذا الفشل في التأثير على الناس كما انطبع فشله في تأثيره على الحكم، فالحكم لا يرعوي لأي نصح أو توجيه أو موعظة، والشعب تخدّر في ظل خضوعه لنزوات النظام طيلة فترة طويلة، وكما لم تؤثر الكلمة الواعدة الصادقة على الحكم، فكذلك هي لم تؤثر لا من قريب ولا من بعيد بالشعب الذي خدّرته سياسة السوط والجبروت.

يقول الأستاذ محمد مهدي شمس الدين:

«إن المجتمع الذي خضع طويلاً لتأثير السياسة الأموية والتوجيه الأموي لا يمكن أن يصلح بالكلام، فهو آخر شيء يمكن أن يؤثر فيه...

إن كلمة لا يمكن أن تأثر شيئاً في النفس الميتة، والقلب الخائر، والضمير المخَدَّر، كان لا بد لهذا المجتمع المتخاذل من مثال يهزّه هزاً عنيفاً، ويظل يواليه بإيحاءاته الملتهبة، ليقتلع الثقافة العنيفة التي خدّرته، وقعدت به عن صنع مصير وضّاء»[١].

وهكذا كان، فقد تداعت الأسباب الإِجتماعية والسياسية والنفسية للإِنقضاض المباشر على الحكم الأموي، بعد أن مَهّد الحكم لنفسه

---

(١) محمد مهدي شمس الدين/ ثورة الحسين ٩٩ ـ ١٠٠.

أيضاً لمشروعية هذه الأسباب بما أحدثه من مظالم، وما اخترعه من مبتدعات تمسّ جوهر الدين في كثير من الأبعاد، وكان من أشنعها تأثيراً على الحكم، وأشدّها نتائج في النكير أمران مهمّان في تاريخ النظام هما: استلحاق زياد، واستخلاف يزيد.

ب ـ استلحاق زياد:

أعلن معاوية بن أبي سفيان استلحاق زياد ابن سميّة في عملية استشهاد مخجلة، كان شهودها الخمّارون والفسَقة والزناة، وكان ذلك بإغراء من المغيرة بن شعبة مكافئةً لزياد على يده في تلجلجه بالشهادة لدى زنا المغيرة نفسه، وكان زياد قد تلجلج بها أمام عمر بن الخطاب، فدرأ عمر الحد عن المغيرة.

أصبح زياد ابن أبيه، زياد بن أبي سفيان في عشية وضحاها، وقد قلب معاوية في هذا الاستلحاق مفاهيم الشريعة الغرّاء، فالحديث النبوي الشريف يصرّح «الولد للفراش وللعاهر الحجر»[1].

وأنكر المسلمون هذا اىستلحاق، ووجدوه معارضاً لأحكام الإسلام، ولكن معاوية قد رضا به، وزياد قد أخلد إليه، وأعجبته نسبته الى أبي سفيان.

وكان زياد حين استشهد أمير المؤمنين عليه السلام عاملاً له على البصرة، فلما عقد الإمام الحسن بنود الصلح مع معاوية، أخذ زياد يتربص بالأمر، فهو لا يرغب ببيعة معاوية دون ثمن، وهو لا يريد أن يخرج على معاوية دون ضمان، فانتقل الى إحدى كور فارس وأقام

---

(١) ابن أبي الحديد/ شرح نهج البلاغة ٤/ ٧٣.

بها.«وكان معاوية ضيّقاً بمكان زياد في قلعته تلك، كان يعلم مكره وكيده وبُعد غوره في الدهاء، وسعة حيلته، وكان يعلم أن عنده مالاً كثيراً، وأن له انصاراً يتعصبون له من أهل فارس. وكان يكره أن ينتقض عليه، وأن يبايع لرجل من أهل البيت، فيفسد عليه الجماعة، ويخرجه من العافية الى الحرب وسفك الدماء... فتوسط المغيرة بين معاوية وبين زياد حتى أصلح بينهما، وأخذ لزياد ما أراد من الأمان، وقنع معاوية بمال قليل أداه إليه مما كان عنده من الخراج، وأذن له معاوية في أن ينزل من بلاد المسلمين حيث يشاء، فإن أحبّ العراق أقام فيها، وإن أحبَّ الشام تحوّل إليها.

ولأمر ما خطر لزياد أو معاوية أو للمغيرة أن يتصل نسب زياد ببني أمية وبأبي سفيان خاصةً، كأن أبا سفيان قد عرف سميّة في بعض زياراته للطائف.

ويقال أن زياداً قد دسّ الى معاوية من زعم له أن أهل العراق ينسبون زياداً الى أبي سفيان، فانتهز معاوية هذه الفرصة ودعا إليه زياداً ثم جمع الناس فشهد الشهود بأن أبا سفيان قد عرف سمية، واكتفى معاوية بذلك فألحق زياداً بأبي سفيان، وجعله أخاه»[1].

ولم يكن الأمر بهذه السهولة والعفوية المطلقة، فقد عقد معاوية لذلك الأندية الجماعية، وأحضر مسلمي الشام في دمشق، وأعلن ذلك على رؤوس الاشهاد، في محاورة يندى لها جبين الإنسانية خجلاً وحياء، وأغاظ ذلك الاستشهاد والمحضر بني أمية أنفسهم، وأغاظ ثقفياً لمكان عبيد فيهم، وأغاظ أخوة زياد لأمه لأنه أشهد على زناها وفاحشتها، وهيّج ألسنة الشعراء فكان لهم الطريف مما ستلمح من

---

(١) طه حسين/ الفتنة الكبرى ٢/ ٢٠٣ وما بعدها.

الشعر في الواقعة، وجلب سخط الناس بعامة، وظل الموضوع حتى اليوم سبّة على معاوية وزياد معاً.

وكان نكير المسلمين مستطيراً لإفك الاستلحاق، وكان الإمامان الحسن والحسين عليهما السلام في طليعة القادة المنكرين لهذا الخرق الأشنع.

لقد أنكر الإمام الحسن عليه السلام استلحاق زياد إنكاراً مرّاً في عدة مناسبات، كان أبرزها بحضور معاوية وزياد وعمرو بن العاص ومروان بن الحكم، وسواهم من أركان النظام الأموي، والتفت الحسن عليه السلام لزياد وزجره زجراً عنيفاً قائلاً: «وما أنت يا زياد وقريشاً؟ لا أعرف لك فيها أديماً صحيحاً، ولا فرعاً نابتاً، ولا قديماً ثابتاً، ولا منشأً كريماً، بل كانت أمك بغيّاً تداولها رجال قريش وفجّار العرب، فلما ولدت لم تعرف لك العرب والداً، فادّعاك هذا ـ يعني معاوية ـ بعد ممات أبيه، مالك افتخار، تكفيك سُميّة، ويكفينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم»[1].

وكتب الإمام الحسين عليه السلام إلى معاوية يستنكر ذلك، ومما كتبه: «أوَ لَسْتَ المدّعي زياد ابن سميّة المولود على فراش عبيد ثقيف، فزعمت أنه ابن أبيك، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الولد للفراش وللعاهر الحجر» فتركت سُنّةَ رسول الله تعمداً، واتبعت هواك بغير هدى من الله»[2].

وحين تم استلحاق زياد ولاّه معاوية البصرة، فسار بها سيرة جاهلية، واستحدث أموراً لم يألفها المسلمون من ذي قبل، وقضى بما لا يقرّه شرع أو دين، فأسرف في القتل إسرافاً، وأخذ الجار بالجار،

(١) البيهقي/ المحاسن والمساوىء ١/ ٤٨.
(٢) الكشي/ رجال الكشي/ ٣٣.

وتعقب البريء بالمسيء، وحكم على الظِنة، وعاقب على التهمة، واستمرأ من العقوبات أبشعها، واستحسن من المثلة أقساها، وقد استدعى ذلك نزيفاً من الدماء لا يرقأ، فأغرق البلاد والعباد بأمواج متلاطمة من البلاء، وحسبك في خطبته البتراء دليلاً على ما استحل وأحدث وانتهج، قال زياد: «وقد احدثتم أحداثاً لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن غرّق قوماً غرقناه، ومن أحرق قوماً أحرقناه، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه، ومن نبش قبراً دفناه حياً فيه. . . وإني أقسم بالله لآخذن الولي بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والمطيع بالعصي، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: أنجُ سعد فقد هلك سعيد»[1].

وها أنت ترى ما في هذه الخطبة من الأحكام العرفية الجائرة فيما لا يعرفه النظام الإسلامي، ولا يقره العرف الإنساني، وكأن زياداً فيها قد أوضح معالم الطريق لكل الطواغيت في العالم، فهذا الوعيد الظالم ما أنزل الله به من سلطان، وهذه العقوبات الكيفية لا يقرها الضمير ولا يعترف بها الإسلام.

«فالإسلام لا ينقب عن قلب السارق، وإن نقّب عن أهل البيوت، والإسلام لا يدفن الناس في القبور أحياءً وإن نبشوا عن الموتى في قبورهم، والإسلام لا يقيم الحدود بالشبهة وإنما يدرؤها، ولا يقتل الناس على الريبة، ولا يبيح للسلطان أن يعاقبهم بما كسبت قلوبهم، وما دبّرت نفوسهم، وما أدارت رؤوسهم، وإنما يبيح له أن يعاقبهم بما كسبت أيديهم، وترك حساب الضمائر لله الذي يعلم خائنة الأعين وما

(١) الجاحظ/ البيان والتبين ١/ ٢٠٠.

تخفي الصدور»[1].

وإنّا وإن كنّا لم نكتب هذا الكتاب هازلين، ولكن هنالك من الهزل ما تلتمس به الجّد، أو تتوصل به الى قناعات جادة، وهو ما سأنقلك إليه في أبرع ما ذكر المؤرخون حول استلحاق زياد، فقد مرّ زياد في موكبه في البصرة، فقال أبو العريان الشيخ المكفوف، ذو العارضة والبيان، ما هذه الجلبة؟ فقيل له: إنه موكب زياد بن أبي سفيان!! فقال أبو العريان: والله ما ترك أبو سفيان إلا يزيد ومعاوية وعتبة وعنبسة وحنظلة ومحمداً، فمن أين جاء زياد؟.

ووصل النبأ زياداً، فأشير عليه أن يوصله بمال، فوصله به مع رسول، فقال الرسول: يا أبا العريان ابن عمك زياد الأمير قد أرسل إليك مائتي دينار لتنفقها، فقال: وصلته رحم، أي والله ابن عمي حقاً. واجتاز زياد في اليوم الثاني، فسلّم عليه زياد فبكى أبو العريان، فقيل له ما يبكيك؟ قال عرفت صوت أبي سفيان في صوت زياد. وبلغ الخبر معاوية، فكتب إليه:

ما ألبثّتكَ الدنانيرُ التي بُعِثتْ ... أَنْ لَونّتكَ أبا العُريانِ ألوانا
أمسى إليكَ زيادٌ في أرومتِهِ ... نُكراً، فأصْبَحَ ما أنكرتَ عِرفانا
لله درُّ زِيادٍ لَوْ تَعَجّلها ... كانت لَهُ دون ما يخشاهُ قربانا

فلما قرأت على أبي العريان أجاب معاوية:

أحْدِثْ لنَا صِلَةً تحيا النفوس بها ... قد كدت يا ابن أبي سفيانَ تنسانا
أمّا زيادٌ فقد صَحّتْ مناسِبُهُ ... عندي، فِلا أبتغي في الحقِ بهتانا

---

(١) طه حسين/ الفتنة الكبرى ٢/ ٢١٥ وما بعدها.

مَنْ يُسْدِ خَيراً يصبهُ حينَ يَفعَلُهُ   أو يُسْدِ شرّاً يصبه حيثما كانا[1]

وقد استضرى زياد حينما ضمّ إليه معاوية الكوفة مضافاً الى البصرة بعد هلاك المغيرة، فأكثر في العراق الفساد، وأظلّت الناس سحابة من الظلم المديد.

ج ـ استخلاف يزيد:

استشهد الإمام الحسن عليه السلام في صفر سنة خمسين من الهجرة مسموماً بأمر من معاوية على يد زوجته: جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندي، وعدها معاوية بتزويجها من يزيد، وأغراها بمائة ألف درهم أو دينار، ففعلت[2].

وكان السمّ من أسلحة معاوية في تصفيته خصومه العقائديين، والوسيلة الوحيدة التي لا تثير الجدل والتساؤل والخصام كثيراً، فعمد إليه واستخدمه سياسياً في أكثر من مرة، فقد داف السم بالعسل في اغتيال البطل مالك الأشتر عند توجهه والياً على مصر في عهد الإمام علي عليه السلام، ومات على يده عبد الرحمن بن خالد بن الوليد مسموماً في حمص، ومات سعد بن أبي وقاص مسموماً بأمره حينما عزم على استخلاف يزيد قال أبو الفرج: «وأراد معاوية البيعة لابنه يزيد، فلم يكن شيء أثقل عليه من أمر الحسن وسعد بن أبي وقاص، فدسّ إليهما سمّاً فماتا منه»[3].

ودفن الإمام الحسن عليه السلام في البقيع بعد خطوب طويلة ذكرها

---

(١) ابن أبي الحديد/ شرح نهج البلاغة ٤/ ٧١.
(٢) ظ: الشيخ المفيد/ الإرشاد/ ١٧٤.
(٣) الأصبهاني/ مقاتل الطالبيين/ ٢٩.

المؤرخون شارك فيها الحزب الأموي برئاسة مروان بن الحكم، وشاركت فيه أم المؤمنين عائشة. وبموت الإمام الحسن عليه السلام صفا الملك لمعاوية يدني من يشاء، ويبعد من يشاء، ويبتدع ما يشاء، وينتزي على الأمة بما يشاء، وما اكتفى معاوية بسياسته المستبدة التي امتلك بها أعناق الناس وأرزاقهم، وسفك الدماء وإراقتها، وتسليط ولاة الجور على الأمة، حتى عمد الى جعل الخلافة ملكاً عقيماً، فمهّد الى بيعة ابنه يزيد بما شاء من ترغيب وترهيب، وبما عرف به من مكر وغدر، وبما أعدّ من عملاء ومأجورين، وبما ابتاع من ذمم وضمائر.

وبعد أن صفّى خصومه السياسين بالسم والقتل والاغتيال، عقد العزم على استخلاف يزيد، وسعى الى تنفيذ هذه الرغبة في قرار أحكم برمه وعقده، وظل سبع سنين يروّض الناس عليه، ويعطي الأقارب، ويدني الأباعد من أجل ذلك[1].

وكان قد تولى كبر هذا الأمر الانتهازي الجبان المغيرة بن شعبة، حينما علم بتغير معاوية عليه، بإرادة عزله عن الكوفة، فابتدره بهذا الرأي: «قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان، وفي يزيد منك خلف، فاعقد له، فإن حدث بك حدث كان كهفاً للناس وخلفاً منك، ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة.

فقال معاوية: ومن لي بهذا؟ فقال المغيرة: «أكفيك أهل الكوفة، ويكفيك زياد أهل البصرة، وليس بعد هذين المصرين أحدٌ يخالفك»[2].

وكان معاوية يفكر في استخلاف يزيد، وهو متلهّف له، فلمّا

---

(١) ظ: ابن عبد ربه/ العقد الفريد ٢/ ٣٠٤.

(٢) الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٦/ ١٦٩.

فاتحه المغيرة بذلك، حظي عنده، وأقرّه على عمله، وهو المهّم عند المغيرة، وأسفره بمهمته الى الكوفة، فاقتنع بذلك جملة من الأمويين، وعارضه بقية المسلمين، وأظهر زياد كرهاً لبيعة يزيد، فلما هلك أظهر معاوية عهداً مفتعلاً عليه فيه عقد الخلافة ليزيد[1].

وسخّر معاوية لعمله هذا القصّاص على المنابر، والشعراء في المحافل، فنسج كل من هؤلاء منفردين ومجتمعين فضائل لمعاوية لا تدرك، وشمائل ليزيد لم تكن، وكياسة فيه لا تطاول، ولياقة لا تبارى، وكان عبيد أهل الشام ممتثلين للأمر مطيعين، وأذناب معاوية في كل مصر يهللون ويكبّرون، والمسلمون في سخط لا حول لهم ولا طول.

وأدرك معاوية أن هذا الأمر لا يتم إلا بخطوات سريعة حاسمة، ولا يستوثق إلا باجراءات عاجلة تدع الحليم في حيرة، فعمد الى قرارين يمهّدان للأمر، ويحسمان ما هنالك من نزاع:

الأول: استدعاؤه أعيان المسلمين من أقطار الأرض الى الشام، وفيهم أولياؤه وأنصاره وعماله وعملاؤه، وبيّت السّر لدى زمرته الخاصة، تدعم حديثه وتؤيد مقترحه، وقد تمَّ له ذلك، فحضرت الوفود من العراق ومصر والحجاز، وتكامل جمعها في حوزته، فأومأ الى الضحاك بن قيس الفهري بالثناء على يزيد عند دعوته لذلك، فكان له ما أراد من أحاديث يطول ذكرها، فاستجاب له من استجاب تسليماً وخذلاناً، واحتج عليه من احتج انكاراً واعتراضاً، وكان الأحنف بن قيس في طليعة المحتجين على ذلك، فردّه الضحاك مفنداً، فابتدره الأحنف بالجدل والحجة، فانبرى له عبد الرحمن الثقفي مندّداً، وعاوده معاوية مصدّقاً، فأمسك الأحنف مرغماً، فهو أمْر دبّر بليل، وحسم

---

(١) ظ: المصدر نفسه ٦/ ٢٧٠.

الموقف أحد الانتهازيين قائلاً.

أمير المؤمنين هذا، وأشار الى معاوية. فإن هلك فهذا، وأشار الى يزيد. فَمَنْ أبى فهذا، وأشار الى السيف.

فبهر معاوية بخطابه، وقال له: اجلس فأنت سيد الخطباء وأكرمهم[1].

واستقام شأن الاستخلاف ليزيد في الشام على هذا الشكل ونحوه، ووجد تردداً في الحجاز ونجد، فقد انكر ذلك بقية المهاجرين، ووقف في عرضه الأنصار وأبناؤهم، واعترض عليه ذوو الشأن والشرف، فعمد معاوية الى السفر صوب المدينة المنورة عسى أن يجد ثغرة ينفذ منها لإبرام عقد البيعة ليزيد، فسار معاوية بموكبه حتى دخل المدينة، وهو القرار الثاني الذي تذرع به لإقرار مهمة الإستخلاف، وهناك جمع إليه ابن عباس، وابن الزبير، وابن عمرو، وعبد الله بن جعفر في لقاء سريّ، وطرح عليهم الموضوع فرفض الجميع العرض، وأَبدوا تحفظهم عليه، وردوا مجمل كلامه، باستثناء عبد الله بن عمر بعث إليه معاوية بمائة ألف دينار فسمع وأطاع[2].

د ـ مؤتمر المدينة وقرار مكة:

انتهت مهمة معاوية في لقائه الأول بالمدينة بأعلام الناس بالإخفاق والفشل الذريع، إلا لماضة من عبد الله بن عمر لا تسمن ولا تغني من جوع، فرجع معاوية الى الشام يدبر أمره، ريثما تهدأ نائرة

(١) ظ: ابن قتيبة/ الإمامة والسياسة ١/ ١٧٥ ـ ١٨٠.
(٢) ظ: البيهقي/ السنن ٨/ ١٥٩+ ابن كثير/ البداية والنهاية ٨/ ١٣٧.

الآراء المتضاربة، وبدا له فيما بعد أن يكر عليها راجعاً، ففعل ذلك مشمّراً عن ساعد الجدّ والعزيمة، وأحاط نفسه بقطع أمنية مدرّبة من الجيش السوري، تأخذ على الغرَّة، وتستجيب مسرعة عند النجدة، تقرأ مراد معاوية بالإشارة والإيماء، وتلتقط أوامره باللحظ وحركة اليد، واستدعى الحسين بن علي عليه السلام وعبد الله بن عباس، وخطب خطبة مبيّناً فيها فضل يزيد، وعمله بالسياسة، وتمرسه بالقرآن والسنة، ودعاهما الى بيعته، فأنتفض الحسين لذلك، وما استجاب لشيء مما أراد، وردّه خطيباً بقوله:

«... هيهات يا معاوية، فَضَحَ الصُبْحُ فَحمةَ الدُجَى، وبهرت الشمس أنوار السُرُجِ، وَلَقد فَضَّلْتَ حتى أفرَطت، واستأثرتَ حتى أجحَفتَ، وَمَنَعْتَ حَتى بَخَلت، وِجرتَ حتى جَاوَزْتَ، ما بَذَلتَ لِذي حَقٍ من اسمِ حقَّهُ مِنْ نَصِيبٍ، حتى أخَذَ الشيطانُ حَظهُ الأوفرَ ونصيبَهُ الأكمل.

وَفَهِمْتُ ما ذَكَرتَهُ عَنْ يزيدَ مِنْ اكتماله وسياسته لأُمة مُحَمَّدٍ، تُريدُ أنْ توهِمَ الناس في يزيد، كأَنكَ تصِفُ محجوباً، أو تَنعَتُ غائباً، أو تُخْبِرُ عَمّا كانَ مما احتَويتَهُ بِعلمٍ خاص، وَقَدْ دَلَّ يَزيدُ مِنْ نفْسِهِ عَلَى مَوْقِعِ رأيه، فَخُذْ ليزيد فيما أخَذَ بِهِ من استقرائِهِ الكلاب المُهارشة عند التحارش، والحمام السُبَّق لأترابِهنَّ، والقيان ذات المعازف، وضروب الملاهي، تَجدْهُ نَاصِراً!!.

وَدَعْ عَنْكَ ما تُحاوِلُ، فما أغْنَاكَ أن تَلقَى الله بوزرِ هذا الخَلْقِ بأكثرَ مِمّا أَنْتَ لاقيه، فَوَالله ما بَرِحْتَ تَقْدحُ باطلاً في جَورٍ، وَحَنقاً في ظُلْمٍ، حَتى مَلأتَ الأسْقِيةَ، ما بَينَكَ وبَينَ المَوْتِ إلا غمْضَة، فَتَقْدِمُ عَلَى

مَحْفُوظٍ في يَومٍ مَشْهُودٍ، ولات حِينَ مَنَاصٍ»[1].

وأنت ترى الإمام الحسين عليه السلام في خطابه هذا صريحاً دون مواربة، وعنيفاً بلا هوادة، وشديداً دون لين، وقد وضع معاوية أمام مساوئه، وجهاً لوجه، وفصّل في سيرته حداً بحدٍ: التمييز حتى الإفراط، والاستئثار حتى الإجحاف، والمنع حتى البخل، والجور حتى التجاوز، فقد منع الحقوق، واستولى على المقدرات، وتصرّف في كل شيء استبداداً، حتى أخذ الشيطان من خلال تجاوزاته حظه الأوفر ونصيبه الأكمل.

وفي هذا تعرية فاضحة لسياسة معاوية المالية والإدارية، وما وقف عند ذلك بل ثنّى على حقيقة يزيد كما هي، وكشف إيهام معاوية فيه، وكأنه يصف محجوباً عن أعين الناس، أو ينعت غائباً عن نظرات الحاضرين، ويزيد في أعماله وأفعاله وأولاعه ورغباته ينبىء عن نفسه بنفسه، في استقراء الكلاب، واستباق الحمام، وعزف القيان، وضروب الملاهي، فهو فيها حاضر ولها ناصر.

ثم توجه لمعاوية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فوعظه لو أجدى الوعظ، ونصح إليه لو أخذ بالنصح، فيكفيه ما سيلقى الله به من الأوزار: اقتداح الباطل في الجور، والحنق في الظلم، حتى ملء الأسقية فطفحت بما فيها من جرائر هو مسؤول عنها دون سواه، وما بينه وبين الموت إلا لحظة زمنية معينة تتمثل بغمضة العين، عندها يقدم على سجّل أعماله، في كتاب محفوظ بيوم مشهود، فيندم على ذلك حيث لا ينفع الندم، ويفد على أوزاره ولات حين مناص.

---

(١) ابن قتيبة/ الإمامة والسياسة ١/ ١٩٥.

وقد هزّ هذا المنطق الثائر معاوية هزّاً بليغاً، وطوّح بأحلامه تطويحاً مريراً، فالتفت الى ابن عباس قائلاً: «ما هذا يا ابن عباس؟» فأجابه ابن عباس: «لعمر الله إنها لذرية الرسول ﷺ، وأحد أصحاب الكساء، ومن البيت المطّهر، فأَلْهُ عمّا تريد، فإن لك في الناس مقنعاً حتى يحكم الله، وهو خير الحاكمين»[1].

ولمّا كان معاوية متمادياً بغيّه وطغيانه فإنه لم يرتدع بنصح الحسين عليه السلام ولم يستمع لنصح ابن عباس، ولم يله عما يريد، بل اتجه الى مكة المكرمة، وأحضر الإمام الحسين عليه السلام وابن الزبير وابن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر، فلمّا اجتمعوا به، وصاروا إليه، قال لهم: «إني أتقدم إليكم: إنه قد اعذر من أنذر... وإني قائم بمقالة، فأقسم بالله لئن ردّ عليّ منكم أحد بكلمة في مقامي هذا، لا ترجع إليه كلمةٌ غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه، فلا يبقين رجلٌ إلاّ على نفسه».

ودعا بصاحب حرسه بحضورهم وقال له: أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين، ومع كل واحد سيف، فإن ذهب رجلُ يردّ علي كلمة بتصديق أو تكذيب، فليضرباه بسيفيهما.

وخرج وخرجت الجماعة، فنزىَ على المنبر، وقال:

«إن هؤلاء سادة المسلمين وخيارهم، ولا يبتز أمر دونهم، ولا يقضى إلا عن مشورتهم، وإنهم قد رضوا وبايعوا يزيد، فبايعوا على اسم الله»[2].

---

(١) المصدر نفسه ١/ ١٩٦.

(٢) ظ: باقر شريف القرشي/ حياة الإمام الحسن ٢/ ٤٤٥ وانظر مصادره.

وكان هذا هو الابتزاز بعينه، ولكنه القرار الذي ذهب إليه معاوية جازماً، وقد يشكك في هذه الرواية، وقد ترى أنها ظاهرة التكلف، وذلك لمكانة هؤلاء الرهط في الجماعة الإسلامية، ولكن سيرة معاوية الاستفزازية لا يُستبعد عليها هذا الإجراء، ومناوراته السياسية لا تبرؤه من هذا الأسلوب، فقد اعتاد الكيد منهجاً، وتمرّس الغدر مذهباً، وتعاهد الإرهاب حتى صار له ظاهرة يعرف بها، فالسيف مصلت على الرقاب، والانتقام لا يدع موبقة إلا ارتكبها، وشهوة الحكم تبيح كل حرام، فما المانع من هذا وأكثر من هذا؟.

هذا المناخ الساخن بأحداثه، هيأ للإمام الحسين عليه السلام أن يتبنى خط الثورة، وأن ينهض بمسؤوليته التاريخية، فتصرف بفراسة واستقراء، وتحرك بيقظة وحذر، وبث دعاته في الأقطار، ونصب نفسه شاخصاً للثورة المرتقبة، بعد أن أرسى أخوه الإمام الحسن عليه السلام قواعدها، فكان رجل صدق، ورائد حقّ، وداعية للتغيير الاجتماعي، فما انحنى أمام المغريات المترادفة، ولا خضع لإرادة الطاغوت.

«الإمام الحسين يهيىء مناخ الثورة»

أ ـ مؤثرات سلبت روح النضال:

بدا للإمام الحسن عليه السلام أن النكوص الذي مني به أصحابه، لا ينتزع نصراً محتملاً، ولا يحقق تأثيراً ضد النظام، ومتى كان العجز حليفاً للمحاولات النضالية فإنها تبوء بالفشل والإخفاق، وقد تكلف القائمين بها ثمناً باهضاً لا يرجى معه أي تعويض عن الخسائر البشرية أولاً، وعن الاهتزازات النفسية ثانياً. والمنطق السياسي المركّز لا يؤمن بالتحرك الانتحاري المرتجل الذي لا يصل إلى درجة النضج عملياً، إذ ليس له تأثير بالغ منشود، بل قد يكون التأثير سلبياً، يجهز على بقية المخلصين من رجال الإمام عليه السلام وأتباعه، وقد يستأصل شأفتهم، فتكون الخسارة كبيرة في الأرواح والنتائج، ولمّا كان معاوية قد حصّن حكمه بالمال والقوة، وبجمهرة من الانتهازيين والوصوليين، كان من الصعب اجتياح كل ذلك بيسر وسهولة، وكان على الإمام الحسن عليه السلام أن يوقف الصراع ظاهرياً ريثما تتفاعل الأسباب العاملة على إنجاح المعارضة في الأقل، أو على اختراق حاجز الخوف في أحسن الأحوال، وهذا هو الذي دعاه ودعا الإمام الحسين عليه السلام معاً إلى التريث حتى حين، والى تجاوز المؤثرات الفعلية التي سلبت روح النضال.

«وكان رأي الحسين أن لا يثور في عهد معاوية، وهو يأمر أصحابه بأن يخلدوا إلى السكون والهدوء، وأن يبعدوا عن الشبهات. وهذا يوحي لنا بأن حركة منظّمة كانت تعمل ضد الحكم الأموي في ذلك الحين، وأن دعاتها هم هؤلاء الأتباع القليلون المخلصون الذين ضنّ بهم الحسن عن القتل فصالح معاوية، وأن مهمة هؤلاء كانت بعث روح الثورة في النفوس عن طريق إظهار المظالم التي حفل بها عهد معاوية انتظاراً لليوم الموعود»[1].

ولم تكن فترة الانتظار اعتباطية، ولا العمل السري فيها دون مسوغات، فالحسين عليه السلام، وهو رمز الكفاح الثوري الدائم، لم تتهيأ له طيلة حكم معاوية أسباب الثورة، ولم تستكمل لديه أداتها، فقد كره الناس القتال بعد صفّين زمن أبيه، وقد كره الناس القتال أيضاً زمن أخيه، وقد اعتاد المجتمع هذا التخاذل المشين، ورضي الناس حياة الذلّ، وسُلِبت من الشعب المسلم ـ إلا قليلاً ـ روح النضال بتأثير عوامل نفسية أهمَّها الرعب والذعر من البطش الدموي الذي انتهجه معاوية، وهناك مؤثرات اجتماعية أفاد منها معاوية في المعركة أبرزها ضرب القبائل العربية بعضها ببعض كما سبق القول فيه، وهناك مؤثرات اقتصادية قعدت بالهمم عن النهوض، وشلت الحركة الثورية عن الانتعاش، فما إن ينجم قرن من الناس يتحسس أوضاع البلاد حتى تسكته الأعطيات الضخمة فتطيب نفسه عن الإنكار، فقد حدث أن استنكر مالك بن هبيرة السكوني مقتل حجر بن عدي، وعسى أن يكون قد فكّر بالانتقام له ولأصحابه، ففاجأه معاوية بأن أرسل إليه مائة ألف

---

(١) محمد مهدي شمس الدين/ ثورة الحسين/ ١١٧.

درهم، فأخذها وطابت نفسه[1].

وكانت الأموال تصرف بسخاء على الطبقات المتنفذه ورؤساء القبائل، مما صرف المجتمع عن التحرك بالاتجاه المعاكس للنظام، بل لقد كان التمويل للانتهازيين سبيلاً لتثبيت النظام، فقد أرسل المغيرة بن شعبة وفداً لمعاوية أرشاه بثلاثين ألف درهم يمهّد بذلك لبيعة يزيد، وكان عليهم موسى بن المغيرة، فالتفت معاوية إلى ابن المغيرة هامساً بأذنه: «بكم اشترى أبوك من هؤلاء دينهم»؟ فأجابه: بثلاثين ألف درهم. فضحك معاوية وقال: «لقد هان عليهم دينهم»[2].

وكانت هناك مؤثرات عقائدية كان لها الأثر الفاعل في التطويح بحياة النضال، وتتمثل تلك المؤثرات بضعف الوازع الديني في النفوس، وتضاؤل سلطان الهدى على الضمائر، فقد ابتعد أغلب الناس عن الدين، وألفوا حياة البذخ والترف، وتطلعوا إلى مجالس اللهو والمجون، فترى في القصور الملاهي والمعازف، وترى في الشباب النزوة والفورة والاستهتار، وفيما بينهما تغيب رؤية النضال، وتستبد حياة الرفاه والزهو، فيقبل الناس على الدنيا في ملذّاتها، ويبتعدون عن الإسلام في تضحياته ومثله العليا.

إن ما قدّمه البحث من نماذج تحليلية كثيرة من خلاله حول تأثير هذه العوامل والأسباب يخلص بنا إلى القول أن جملة هذه المؤثرات هي التي سلبت روح النضال إلى حين في الحياة الإسلامية العامة.

---

(١) ظ: ابن الأثير/ الكامل في التاريخ ٣/ ٢٤٢.

(٢) ظ: الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٦/ ١٦٩.

ب ـ المناخ الكلامي يحمي النظام الأموي:

وسخّر معاوية المناخ الكلامي لحماية حكمه، فقد استغل عقيدتي الأرجاء والجبر مجتمعتين ومنفردتين لبرمجة مخططه التضليلي، ورأى في ذلك مظلّة تحتضن الإطار الديني حماية لنظامه بإضفاء صبغة الشرعية عليه، فقد أباحت عقيدة المرجئة للحاكم أن يتصرف أنى يشاء، وسمحت للسلطان بارتكاب أعظم الكبائر جريرةً، بحجة أن الإيمان عمل قلبي، ولا تضرّ مع العمل القلبي الكبائر فضلاً عن الصغائر، الإيمان شيء لا يقدح معه ذنب مهما بلغ به التجاوز، والحاكم باسم هذا الغطاء الواقي: ظل الله في أرضه، وإن ظلم عباد الله، وهو عينه في خلقه، فالسلطة الأموية إذن سلطة شرعية وإن خالفت أحكام الله، وأجرمت في حق العباد، وارتكبت صنوف المعاصي، لها الحرية المطلقة ولا حرية لأحد سواها، وكان معاوية مستفيداً من هذه العقيدة في كل تصرفاته اللاواعية، ومستغلاً لها استغلالاً مشيناً في معالم جوره واضطهاده البالغَين، فقد «كانت العقيدة الأساسية عند المرجئة: عدم تكفير أي إنسان أيّاً كان، مهما إرتكب من المعاصي ما دام قد اعتنق الإسلام ونطق الشهادتين، تاركين الفصل في أمره لله وحده»[١].

وبينما تجد الأمويين يضطهدون كل دعوة دينية لا تلائمهم، نراهم بالنسبة إلى المرجئة على العكس من ذلك، فهم يحتضنون هذه الفرقة، ويعطفون على قادتها، وما ذلك إلا لأن معاوية سيدُهم هو واضع أساسها[٢].

---

(١) حسن إبراهيم حسن/ تاريخ الإسلام السياسي ١/ ٤١٧.

(٢) ظ: محمد مهدي شمس الدين/ ثورة الحسين/ ٨٧.

وقد أنكر معاوية حرية الإرادة في أفعال الإنسان، وعزا ذلك إلى الله تعالى، وبذلك يكون قد قاوم عقيدة القدرية القائلة بحرية الإرادة والاختيار، وساند عقيدة الجبرية القائلة بأن الأعمال محتومة من الله تعالى، وأن الإنسان مجبور على أعماله، نتيجة القدر الإلهي الثابت، وفي هذا الضوء نجد الشاعر الأموي ثابت قطنه يروّج لهذا الفكر ويقول:

وما قضى اللهُ من أمرٍ فليسَ لَهُ ... ردٌّ، وما يقضي من أَمرٍ يكنْ رَشَدا[1]

وظاهر هذا الشعر شيء، وفلسفته شيء آخر، فما قضاه الله ليس له رادّ، وهذا حقٌّ، وما يقضي الله فهو الرشد، وهذا حقّ أيضاً، ولا يختلف في هذا اثنان، ولكن المراد الآني الذي سخره النظام هو تبرير تصرفات الأمويين، وإضفاء الشرعية عليها، لأنه ليس إلا قضاءً إلهياً لا يمكن تغييره.

فالحكم لله يهبه إلى من يشاء من عباده، وإن كان الحاكم جائراً أو فاسقاً أو كافراً، وهذا النغم مما يلذ السياسة الأموية في صرف الناس عن التفكير في الحكم، إذ كان الحاكم بإرادة الله، وحكمه بإذن الله، والرادّ عليه رادّ على الله، وهذا ما يعطي للأمويين منحةً متميزةً لم يحلموا بها أبداً، لذا فهم يؤيدونها، ويدعون إليها، وقد سخروا لها أبواق الدعاية الإعلامية لا سيما الشعراء، فتغنوا فيها بما لا مزيد عليه، فهذا جرير يقول:

الله طـوّقـكَ الخِـلافَـةَ والهُـدى ... واللهُ ليـسَ لِمـا قَضَـى تَبـديـلُ[2]

---

(١) الأصبهاني/ الأغاني ١٤/ ٢٧٠.

(٢) جرير/ الديوان/ ٤٧٤.

ويقول جرير أيضاً:[1]

نَـالَ الخِـلافـةَ أو كـانَـتْ لَـه قَـدَراً   كَمَـا أتـى ربَّـهُ مـوسـى على قَـدَرِ

فإن الخليفة الأموي هنا في القضاء المقدور الحتمي، شأن نبي الله موسى بن عمران عليه السلام حينما جاء ربّه على قدر[2].

«ومثل معاوية لا يجهل الفوائد الجليلة التي يمكن أن تقدمها له عقيدة الجبر في الميدان السياسي، لأنها توحي إلى الناس بأن وجود الأمويين وتصرفاتهم مهما كانت شاذة وظالمة ليست سوى قدر مرسوم من الله لا يمكن تغييره وتبديله، فلا جدوى من الثورة عليه»[3].

ولقد أثرت هذه الظواهر الكلامية في المجتمع الإسلامي، فجعلته يحيا واقعاً مريراً لا يحسد عليه، وقد أدرك الإمام الحسين عليه السلام هذا التحذير الدائم الذي جبلت عليه طبيعة المنخدعين في النظام، وهم السواد الأعظم الذي يمتلك قرار التحرك، وليس باستطاعة الحسين، وهو القائد الفذّ، أن يحوّل هذا المجتمع إلى مجتمع ثوري يؤمن بقيم جديدة، وأخلاق جديدة، وينعم بتفكير جديد إلا بعد مراحل تثقيفية معمّقة، تنقذه من تفكيره السياسي القديم، وتتجه به إلى فهم جديد مضادّ.

وكان مما يشغل الحسين عليه السلام تحوّل الإنسان المسلم إلى أداة طيّعة بيد معاوية جراء تلك التأثيرات الكثيفة التي حجبت عنه الرؤية الحقيقية المدركة، فظل ـ ولفترة معقدّة طويلة ـ يتخبط في ظلام دامس من المتاهات الضالة، حتى استطاعت أن تحول بينه وبين التفكير الواعي في أن ينهض من مستنقع التضليل السياسي.

---

(١) جرير/ الديوان/ ٢٧٥.

(٢) ظ: محمد حسين علي الصغير/ الصورة الأدبية في الشعر الأموي/ ٣٠٧.

(٣) محمد مهدي شمس الدين/ ثورة الحسين/ ٨٩.

ج ـ الحسين يضع اللمسات الأولى للثورة:

وكان على الحسين عليه السلام من موقع قيادته للأمة أن يبدأ بهزّته لهذا المجتمع الضائع، وأن ينفض الغبار عن أفكاره بصبر وأناة، حتى يبلغ معه الأهداف.

إنها لعمليةٌ شاقةٌ تلقي بعبئها الثقيل على متن الحسين عليه السلام، ولا بد له من النهوض بها قبل فوات الأوان، وقد وفق إلى ذلك توفيقاً عظيماً، بعد معاناة إستيعابية للجماهير، فلم يكن المجتمع الإسلامي خلواً من العناصر الطليعية الثائرة، بل كان الاتجاه المناهض للنظام الأموي متهيئاً لدى القلّة الخيّرة من ذوي البصيرة النافذة، ورجال الثبات على المبدأ، وعشيرته الأقربين من الهاشميين ممن اعتمد عليهم الحسين عليه السلام في الشورى ودراسة الأحداث، وممن اختارهم الحسين عليه السلام واصطفاهم لدى تحركه الثوري أولاً بأول، وكأن الحسين عليه السلام يرى في هؤلاء الشرارة التي تقدح زند الثورة، وهو بإزاء وضع اللمسات الأولى لهذه الثورة على أساس من التخطيط الذي سبق إليه أخوه الإمام الحسن عليه السلام من ذي قبل، وها هو اليوم يريد أن يستثمره في عطاءٍ دائم لا تنضب روافده الثرّة، فأزمع الحسين عليه السلام على الحج قبيل وفاة معاوية ولدى ضراوة حكمه في القمع والإرهاب والبطش، فأقبل الإمام الحسين عليه السلام على الحج، وجمع إليه بني هاشم، ومن حج من الأنصار، وقال لهم:

«لا تَدَعَوا أَحَداً حَجَّ العَامَ مِنْ أَصْحَابِ رَسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم المَعْروفينَ بِالصَلاحِ وَالنُسْكِ إلاّ اجمَعُوهُمْ لي» فاجتمع إليه بمنى أكثر

من سبعمائة رجل، وهم في عامتهم من التابعين، ونحو من مائتي رجل من أصحاب النبي ﷺ، ولما تكامل له هذا الجمع من الصحابة والتابعين، قام فيهم خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «أما بعد: فَإِنَّ هَذا الطَاغيةَ (يعني معاوية) قَدْ فَعَلَ بنا وَبِشِيعَتِنا ما قد رَأَيْتُمْ وَعَلِمْتُمْ وَشَهَدْتُمْ، وإنّي أريدُ أنْ أسألَكُمْ عَنْ شَيءٍ، فإنْ صَدَقْتُ فَصَدِّقُوني، وإن كَذِبْتُ فكَذِّبوني: اسْمَعُوا مقَالَتي، واكتِبُوا قَولي، ثمّ ارجعُوا إلى أمصارِكُمْ و قَبَائلكُمْ، فَمَنْ أَمِنْتُمْ مِنَ الناسِ، وَوَثِقْتُمْ به فادْعُوهُم إلى ما تَعْلَمُونَ مِنْ حَقِنا، فإني أتَخوّفُ أن يَدْرُسَ هذا الأمرُ وَيُغْلَبَ، وَالله مُتمُ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون».

قال الراوي: وما تَرَكَ شيئاً مما قاله رسول الله ﷺ إلا رواه... وكل ذلك يقول أصحابه: اللهم نعم، وقد سمعنا وشهدنا، ويقول التابعي: اللّهم قد حدثني به من أصدقه وأئتمنه من الصحابة.

فقال الحسين عليه السلام: «انشدكم الله إلاّ حَدّثتُمْ بِهِ من تَثِقُونَ به وبدِينِهِ»[1].

وأنت ترى الإمام الحسين عليه السلام في هذا الحشد من بني هاشم والصحابة والتابعين يصف معاوية بأنه طاغية، وينكر عليه الإنكار كلّه سياسته في القتل والتشريد، ويدعو إلى استماع مقالته بما يعنيه معنى الاستماع الحق من الامتثال، ويأمر بالصيرورة إلى الأمصار والأقاليم، والعودة إلى القبائل، واختيار من يوثق به ويؤتمن على الدعوة أفراداً وجماعات، وإعدادهم فكرياً وثورياً، ودعوتهم إلى ما يعلمون من حق أهل البيت عليهم السلام في الأولية والأولوية، فإنه يتخوف من اندراس هذا

---

(١) باقر شريف القرشي/ حياة الإمام الحسن ٢/ ٤٢٤ وانظر مصدره.

الأمر واندثاره، ويحاذر من انطفاء هذا الألق الهادي، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

ولم يقف الحسين عليه السلام عند هذه الدعوة المنظّمة، بل أيّدها بتلاوة ما نزل بأهل البيت عليهم السلام من القرآن وفسّره، وسرد ما شاء من الحديث الشريف في فضل أبيه وأمه وأخيه وعموم أهل البيت عليهم السلام، ثم ناشد الصحابة والتابعين والحاضرين التأمين على صدق قوله، ومن ثم طلب إليهم أن يحدثوا بما سمعوا من يثقون به وبدينه.

فالحسين عليه السلام كما تشاهده في حديثه هذا صاحب دعوة جديدة يصحر بها، ورائد حركةٍ ما يعدّ الدعاة لها، ويدعو لإذاعتها ونشرها بين المؤهلين لحملها وأدائها، ويتخذ من أعيان المسلمين وسيلةً لتعميمها على من يوثق به ويؤتمن على أسرارها، لتأخذ مسيرتها في التأثير لدى الدعاة.

وإذا كان برنامج الإمام الحسين عليه السلام هذا شأنه في سفره إلى الحج، فسيرته في مقرّ إقامته بالمدينة المنوّرة أوسع عملاً، وأكثر تخطيطاً، وأشدّ صلابة، فقد كانت تأتيه الأنباء بأحاديث السياسة، وتصله المعلومات أولاً بأول، ويفد عليه الأشراف يعرضون عليه الآراء، يسمع منهم ويستمعون إليه، يشاورهم في الأمر تارة ويدعوهم إلى التنظيم تارةً أخرى، ويحملهم على النهوض بينهما، ولم يكن الحكم وأجهزته بغفلة عمّا يجري في الساحة، بل كان على علم إجمالي بكثير من الإجتماعات، حتى أنه ليؤكد أن الحسين إنما يريد بذلك إعلان الكفاح ضده، فقد كتب مروان بن الحكم عامل معاوية على المدينة إلى معاوية الرسالة الصريحة الآتية:

«أما بعد؛ فإن عمر بن عثمان ذكر أن رجالاً من أهل العراق،

ووجوه أهل الحجاز يختلفون إلى الحسين بن علي، وأنه لا يؤمن وثوبه، وقد بحثت عن هذا فبلغني أنه يريد الخلاف يومه هذا، فاكتب لي برأيك والسلام»[1].

ولم يكن معاوية ليجهل هذه الحقائق، وليس من شأنه أن تغيب هذه الإرهاصات عن ذهنه، فهو من المكر والذكاء بمكان عادة، ولكنه أخلد إلى مجاراة الحسين عليه السلام لما بينهما من عهد، رأى من خلاله أن الحسين في أغلب الظن لا يتحرك في حياته بما يؤدي إلى الكفاح المسلّح، فكان يغضّ الطرف لئلا يتسع الخرق، وكان يستفسر من الحسين عليه السلام مباشرة في مداراة، وكأنه لا يريد أن يتحسس الجمر في الرماد.

ولقد ذكر المؤرخون أنه«لما مات الحسن بن علي عليه السلام تحركت الشيعة في العراق وكتبوا إلى الحسين عليه السلام في خلع معاوية والبيعة له، فامتنع عليهم، وذكر أن بينه وبين معاوية عهداً وعقداً، ولا يجوز له نقضه حتى تمضي المدة، فإذا مات معاوية نظر في ذلك»[2].

ومعنى هذا أن العراقيين كانوا يدعون الحسين عليه السلام إلى الثورة، وأنهم يخلعون معاوية، ويبعثون بالبيعة للحسين عليه السلام إلا أن الحسين كان يمتنع عن الاستجابة الفورية لما بينه وبين معاوية من عهد إلى أمد معيّن، فهو يدفع بالثورة إلى حينها، فإذا مات معاوية نظر في ذلك، فهو لا ييؤسهم نهائياً، بل يعدهم الوعد الحق.

---

(١) الدينوري/ الأخبار الطوال/ ٢٢٤.
(٢) الشيخ المفيد/ الإرشاد/ ١٨٢.

د ـ المجابهة بين الحسين ومعاوية:

يبدو أن تحرك الحسين الثوري ومراسلات العراقيين له، كانت تصل إلى معاوية في أنبائها من خلال عيونه وأرصاده، وهو وإن كان مطمئناً أن الحسين عليه السلام يلتزم بالمواثيق إلا أن الشكوك قد انتابته، فما قرّ له قرار حتى كتب إلى الإمام الحسين:

«أما بعد؛ فقد انتهت إليّ أمور عنك، إن كانت حقاً فإني أرغب بك عنها، ولعمر الله إن من أعطى عهد الله وميثاقه لجدير بالوفاء وإن أحق الناس بالوفاء من كان مثلك في خطرك وشرفك ومنزلتك التي أنزلك الله بها، ونفسك فاذكر، وبعهد الله أوفِ، فإنك متى تنكرني أنكرك، ومتى تكدني أكدك، فاتقِ شق عصا هذه الأمة»[1].

إذن الأنباء تناهت إلى معاوية، وهو علي يقين من صدقها، فأبدى اللين للإمام الحسين، وذكّره بالعهد فيما بينهم، وهو يشير إلى صلح الإمام الحسن عليه السلام مما يؤكد أن ما قرره الإمام الحسن عليه السلام قد التزم به الإمام الحسين حرفياً، لذلك أشار له معاوية، وطلب من الحسين الوفاء به، مع التهديد والوعيد بالكيد، فما كان من الحسين عليه السلام إلاّ أن ردّه ردّاً عنيفاً حازماً، فيه الكثير من التحدي الصارم، وفيه لغة النذير الهادرة، فما حار معه معاوية جواباً، ولا طرق بعد ذلك للحسين باباً، وهذا نصّ الكتاب:

«أمّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَني كتابُكَ تَذْكُرُ فِيهِ أنَّهُ انتَهَتْ إلَيكَ عَنّي أمُورٌ أنْتَ لِي عَنْهَا راغِبُ، وَأنَا بِغيرِها عِندَكَ جَدِيرٌ، فإن الحَسناتِ لا يَهدِي إليها، ولا يُسَدِدُ إليها إلاّ الله تعالى.

---

(١) ابن قتيبة/ الإمامة والسياسة ١/ ١٨٩ وما بعدها.

وَأمَا ما ذَكَرْتَ إنَّهُ رَقَى إلَيكَ عَنيّ، فإنمّا رقاةُ إلَيكَ المَلاّقُونَ، المَشّاؤون بالنَميم، المُفرِقونَ بينَ الجَمْعِ، وكَذبَ الغاوون.

ما أَرَدْتُ لَكَ حَرْباً، وَلاَ عَلَيكَ خِلافاً، وإنّي لأخشَى الله في تَرْكِ ذلِكَ فِيكَ، وَمِنْ الإعْذارِ فيهِ إلَيكَ، وإلى أوليائكَ القاسِطينَ المُلْحِدينَ، حزب الظلمة وأولياء الشياطين، ألست القاتل حجر بن عَدِي أخا كِنْدَة وأصحابَهُ المُصَلّينَ العابدينَ؟ الذينَ كانوا يُنكِرُونَ الظُلْمَ، وَيستفظعُونَ البِدَعَ، وَ يَأمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَينْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ، لا يخافونَ في الله لَومَةَ لائمِ، ثُمَّ قَتَلْتَهُمْ ظُلْماً وعُدْواناً، مِنْ بَعْدِ ما أَعْطَيتَهُمْ الأَيْمَانَ المُغَلَّظَةَ، وَالمَواثِيقَ المُؤكَدَةَ، ألا تَأْخُذهُمْ بِحَدَثٍ كانَ بَينَكَ وبَينَهُمْ، جُرْأةً عَلى الله واستِخْفَافاً بِعَهْدِهِ.

أوَلَسْتَ قاتِلِ عَمرو بن الحَمِقِ صَاحبِ رَسُولِ الله ﷺ العَبْدِ الصالحِ، فَقَتَلْتَهُ بَعْدَ ما آمنتهُ.

أوَ لستَ المُدّعي زِيادَ ابن سُميةَ المولود عَلى فِراشِ عبيد من ثَقِيف؟ فَزَعَمْتَ أنَّهُ ابن أبيكَ، وَقد قال رَسولُ الله ﷺ: الوَلَدُ للفِراشِ وللعاهِرِ الحجرُ» فتَركْتَ سُنّةَ رَسُول الله ﷺ وَتَبِعْتَ هَوَاكَ بِغير هُدىً من الله، ثمّ سَلّطْتَهُ عَلَى أهْلِ الإسْلامِ، يَقتلُهُمْ وَيَقْطَعُ أيديهُمْ وأرْجلَهُمْ، وَيُسْمِلُ عُيونَهُمْ، وَيصْلِبُهُمْ عَلَى جذُوعِ النَخْلِ، كأنكَ لستَ مِنْ هَذهِ الأمَةِ وَليَسوا مِنْكَ».

«أوَلَسْتَ صَاحبَ الحضرميين الذيْنَ كَتَبَ فيهمُ ابنُ سُميّة: أنَّهُمْ عَلَى دِين عَليٍّ صلوات الله عليه، فكَتبتَ إليه أن اقتل كل من كان على دين علي، فَقتَلَهُمْ وَمَثّلَ بِهمْ بأمْرِكَ. وَدِينُ عَليٍّ هُوَ دِينُ ابن عمه ﷺ الذي كَانَ يَضْرِبُ عَلَيهِ أباكَ وَيَضرِبُكَ، وَبِهِ جَلَسْتَ مَجْلِسَكَ الَذي أنتَ فِيه».

«وَقُلْتَ فيما قُلْتَ: إنْ أنْكُركَ تَنكُرْني، وإن أكدْكَ تَكِدْني، فَكِدْ ما بَدَالَكَ، فَإنِّي أرجُو أنْ لا يَضُرَّني كَيْدُكَ، وأنْ لا يَكُونَ عَلَى أحَد أضرَّ مِنْهُ عَلَى نَفْسِكَ، لأنَّكَ قدْ ركبْتَ جَهْلَكَ، وَتَحَرَّصْتَ عَلَى نَقْضِ عَهدِكَ، وَلَعَمْري ما وَفَيتَ بِشرطٍ، وَلَقَدْ نَقَضْتَ عَهْدَكَ بِقَتْلِ هَؤلاءِ النَفَر الَذينَ قَتَلْتَهُمْ بَعْدَ الصُلح وَالأيْمَانِ وَالعُهُودِ وَالمواثِيقِ، وَلَمْ تَفعلْ ذَلِكَ إلاّ لِذْكرِهِمْ فَضْلَنا، و تَعظِيمِهِمْ حَقّنا، وَلَيسَ الله بِنَاسٍ لأخْذِكَ بالظّنةِ، وَقَتْلِكَ أوْلياءَهُ عَلَى التُهَمِ، وَنَفْيكَ أوْلِياءهُ مِنْ دُورِهِمْ إلى الغُرْبةِ»[1].

هذا الكتاب البليغ الصادع بالحقائق، والناطق بالوقائع الهائلة، ألزم معاوية بالحجة الدامغة، وأوقفه على مدى جرائره المتتابعة، وفتح به معاوية على نفسه أبواب النقد الجريء، فصوّر ما ألحق بالناس من المهالك، وما جرّ عليهم من الويلات، وحاسبه في فقراته التي غلّفها بالدجل الديني المزيّف، وأطّرها بإطار من التضليل الفاضح.

فالحسنات لا يهدي إليها إلا الله تعالى، والملاّقون هم الذين مشوا بالنميمة المحرّمة إلى معاوية، والحسين لم يرد له حرباً ولا خلافاً، وإنه ليحذر من الله ويخشاه في ترك ذلك، فمعاوية وأولياؤه قاسطون ملحدون، وحزبه حزب الظلمة وأولياء الشياطين.

وقد صرح الحسين عليه السلام في استدراج ذكي لجملة من مظالم معاوية التي أنكرها المجتمع الإسلامي، وكان بها ناقضاً للعهد، ومطوّحاً بشروط الصلح، مما يعني أن الحسين عليه السلام في حِلّ من العقد الذي نقضه معاوية نفسه، وأجهز على بنوده بما سجله من تجاوزات لا مسوّغ لها من عقل أو شرع أو إنسانية، وهذه المظالم: ـ

---

(١) ابن قتيبة/ الإمامة والسياسة ١/ ١٨٩ وما بعدها.

١ ـ مقتل حجر بن عدي الكندي وأصحابه المصلّين ظلماً وعدواناً لا لسبب إلاّ أنهم ينكرون الظلم، ويستفظعون البدع، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ذلك أنهم لا يخافون في الله لومة لائم.

٢ ـ مقتل عمرو بن الحمق الخزاعي صاحب رسول الله ﷺ بعد أن آمنه.

٣ ـ ادعاء زياد ابن سمية عبد ثقيف، خلافاً للنص الشرعي.

٤ ـ تسليطه زياد ابن سمية بعد استلحاقه على أهل الإسلام، يقتلهم ويقطع أيديهم وأرجلهم، ويسمل عيونهم، ويصلبهم على جذوع النخل.

٥ ـ أمر زياد بقتل الحضرميين لأنهما على دين علي عليه السلام، ودين علي، دين رسول الله ﷺ الذي ضربه وأباه عليه.

وبعد سرد هذه المظالم الفظيعة ردّه من إرادة الفتنة، فرأى الحسين أن لا فتنة أعظم على هذه الأمة من ولاية معاوية عليها، ولا أعظم نظراً للنفس والدين والأمة من مجاهدة معاوية نفسه. ثم تحدّاه بأن يكيد ما بدا له، فلا يضر الكيد إلا أهله.

ثم بيّن الحسين عليه السلام إجمال ما قال في إضرار معاوية لنفسه بكيده ضمن ما حدّد له من مواصفات: أنه قد ركب جهله، ونقض عهده، فما وفى بشرط، ولا التزم بعهد، بل قتل الناس الأبرياء بعد الأيمان الموثقة بحجة ذكرهم فضل أهل البيت عليهم السلام، وتعظيمهم حقهم.

وبعد إيقاف معاوية على ذلك، أكد له الحسين عليه السلام مظاهر المنهج الدموي الذي سلكه معاوية في الأخذ بالظنة، وقتل الأولياء

بالتهمة، ونفيهم من البلاد، والقذف بهم إلى دار الغربة.

كانت هذه الفقرات مما جُبِهَ به معاوية، وهو لا يستطيع نفيها، ولا بمقدوره دفعها، لأنها الواقع المجرّد.

ولستُ أعلم كتاباً أشدَّ لهجةً، ولا أقطعَ حجةً من هذا الكتاب العتيد.

فقد جرّد به الحسين الحقائق، وعرض على معاوية أعماله مكشوفةً، وحذرّه مغبة أقواله التحذيرية، وأوقفه على مجمل جرائمه البشعة، لم يخفض له جناحاً، ولم يرقب له سلطاناً، فكان فصل الخطاب.

وبقي معاوية قلقاً من الحسين عليه السلام وبقي الحسين حذراً من معاوية، يحسب أحدهما للآخر ألف حساب، فبثّ معاوية العيون على الحسين، ووضع حوله الأرصاد، يكتبون إليه بأخباره، ويصوّرون له مستجدات الأمور. إلا أن معاوية كان مطمئناً بحدود أن الحسين لا يثأر بعهده، لالتزامه بعقده، وهو لا يثور على حكمه في حياته، لأن الظروف القائمة ليست بصالحه، وأنه يعمل لما بعد هذه الفترة، وهكذا كان، فقد بقي الحسين عليه السلام على عمل دائب مستمرّ، يكشف زيف النظام، ويظهر مساوءه وعيوبه، وينعى عليه اضطهاده للمسلمين، ويدعو أولياءه إلى التجمع والترصد ريثما يحين اليوم المقدّر لإعلان الثورة، وكان هذا العمل ضرورياً على المستوى الإعلامي في رصد جرائر النظام، وعلى المستوى التنظيمي في تهيأة مشاعر الناس.

حتى إذ هلك معاوية في النصف من رجب سنة ستين من

الهجرة[1] نشط الإمام الحسين عليه السلام للدعوة، وأظهر ما كان مختبئاً في ضمير الغيب، وبدأ العمل علناً متجاوزاً مرحلة السريّة.

وقد كان بإمكان الحسين عليه السلام إعلان ذلك أيام معاوية، فقد نقض معاوية العهد، وترك الكتاب والسنّة ظهرياً، واستباح من الحرمات ما أوجب جهاده ومجابهته، ولكن الحسين كان ذا رأي صائب يحسن تأتي الأمور، فلم يتعجل حركة قد تخمد أنفاسها عند إعلانها، ولم ينهض مسارعاً في وثبة قد تُلْحَدُ في مهدها بسُمٍّ واغتيال، فيقضى في الحال عليه وعلى الصفوة المختارة ممن معه دون إحداث الأثر المدوّي الذي يذكي الروح النضالية، لا سيما أن معاوية كان يمتلك من أساليب القمع السياسي كل وسائل القوة التي تغطي غدره وفتكه، هذا بالإضافة إلى تمرسه في عملية التضليل العام الذي يكثفّ من تزييف الحقائق الثابتة.

ولقد أفاد الإمام الحسين عليه السلام عمقاً سياسياً واستراتيجياً مما خطط له الإمام الحسن عليه السلام فلم يكن يضع الأمور إلا بنصابها، ولم يكن يتعجل الظروف بأحداثها، لقد كان الفكر الثوري المعمّق يؤتي أكله في وقته الدقيق عند الإمام الحسين عليه السلام وقد ظلّ هذا المنهج مواكباً للحسين عليه السلام في مسيرته النضالية منذ البدء حتى خاتمة المطاف.

يقول الأستاذ محمد مهدي شمس الدين:

«وأكبر الظن أن الحسين عليه السلام لو ثار في عهد معاوية لما استطاع أن يسبغ على ثورته هذا الوهج الساطع الذي خلّدها في ضمائر الناس وقلوبهم، والذي ظل يدفعهم عبر القرون الطويلة إلى تمثّل أبطالها،

---

(١) ظ: الشيخ المفيد/ الإرشاد/ ١٨٢.

وإستيحائهم في أعمال البطولة والفداء»[1].

وأحسب أن ما قدّمه الإمام الحسن عليه السلام من التمهيد الكامل، والتنظيم الرائد، هو الذي مكّن الإمام الحسين عليه السلام من الإصحار بآرائه الثورية، مما جعل الإمام الحسين عليه السلام خبيراً تجريبياً في المناخ السياسي العام، فتصرف في ضوء ذلك، واضطلع بأعباء الثورة الخالدة.

ليس هذا الملحظ الذي رأيناه وليد تعصّب لقيادة الإمام الحسن عليه السلام وإنما هو نتيجة ما أسلفنا من دلائل، وما قدمنا من آثار، حكمت كلها بهذا المنظور الذي توصّل إليه البحث بعيداً عن النظرة الجامدة، ومنسجماً مع حقائق الأشياء.

«وستنتهي آخر الأمر إلى نتيجة رائعة وهي: أن صلح الحسن مصدر من أكبر مصادر ثورة الحسين التحررية، والى أن جوهر التضحية واحد عند الإمامين، وإن اختلف مظهرها.

والحق أن يوم الطف كان صدى ليوم المدائن، صلى الله على سيدي شباب أهل الجنة، ونفع المسلمين بذكرياتهما المتجددة، ووفق العرب والمسلمين إلى الاهتداء بهديهما في مرحلتهم الصعبة هذه»[2].

وسيكون حديث الطف موضوع كتاب آخر عن الإمام الحسين ـ صلوات الله عليه ـ.

إن شاء رب العالمين.

---

(١) محمد مهدي شمس الدين/ ثورة الحسين/ ١١٩.

(٢) عبد الحسين شرف الدين/ ثورة الحسين صدى لصلح الحسن/ «بحث»/ مجلة الغري/ النجف الأشرف/ العدد الخاص بالحسين/ السنة التاسعة/ العدد: ١١.

«قصيدة المؤلف»

في رحاب الإمام الحسن بن علي عليه السلام

أطفــأتَ نــائــرةَ الخطــوبِ ... بثبــاتِــكَ الأَلِــقِ الصَليــبِ
وأقمــتَ مــدرجــةَ الخلــودِ ... بــرأيــكَ الحــرِّ المُصيــبِ
وَدَلَفْــتَ لــلأخــرى بسعيــكَ ... والطغــاةُ علــى نَجيــبِ
ولأنــتَ مِــنْ عليــاكَ فــي ... مُثُــلٍ مِــنَ الفكــرِ المهيــبِ
تحمــي كيــان المسلميــنَ ... مــن الإبــاحــةِ والنــدوبِ
فــأجبــتَ داعيــة الهــدى ... ودرأتَ عــاديــة الحــروبِ
وإذا «معــاويــةٌ» يــذودُكَ ... عــن مَقَــامِــكَ فــي الــوُثُــوبِ
مــا لأِبــنِ هِنــدٍ فــي الخِــلافــةِ ... غيــرُ إذلالِ الشعــوبِ
وتــراثُــهُ أن يقتضــي ... أَحقَــادَ«بــدرٍ» «والقَليــبِ»
وبقيــتَ صِفْــرَ الكــفِّ مِــنْ ... حــقٍ علــى عَمْــدٍ سليــبِ
والمسلمــونَ بِمَشْهَــدٍ ... مِــنْ ذلــك الأمــر العجيــبِ
قــد قَصّــرَتْ أيــدي المُعيــن ... وأغْمَضَــتْ عَيــنُ الــرَقِيبِ
فَتــلاقَفَتْهــا عُصْبَــةٌ ... مِــنْ كِــلِّ أفّــاك مــريــبِ
هِــيَ مِحنــةٌ لمّــا تَــزَلْ ... فــي القَلــبِ دَاميــةَ اللهيــبِ
يعيــا بهــا حَــذَقُ اللبيــب ... ويكتــوي فِكــرُ الأريــبِ

* * *

يــا أيّهــا الحســنُ الــزكــيُّ ... وقِمــةَ الفِكــرِ الخَصِيــبِ

يــا شُعْلَــةَ الحَــقِّ المُبِيــنِ   وذِروةَ الــوَغْــي الــوَثُــوبِ
يــا نَسْمَــةَ السَحَــرِ التــي   مُــزِجَــت بِــوَطْفَــاءِ سَكُــوبِ
يــا نَفْحَــةَ الفَجْــر الــذكّــي   تَهُــبُّ فــي المَــرْجِ العَشِيــبِ
يــا زَهْــرةً لــلأقحــوان   تَلَــذُّ صَــوتَ العنــدليــبِ
يــا أنّــةَ المَحْــزُونِ تَكْشِــفُ   مــا لَــدَيــهِ مِــنْ كُــرُوبِ
وَمَــرَارَةَ الصَبْــرِ المُقَــدّسِ   لَيْــسَ تَفْتَــأُ بــالشُبُــوبِ
لــم أدرِ إذ أشكــو إليــك   وأنــتَ ســرٌّ فــي القلــوبِ
شكـوى الغـريـبِ إلى الغريـبِ   أم الحبيــبِ إلــى الحبيــبِ
أيصــح أنــك مــن تــراثِــكَ   للنَبِــيّ بــــلا نصيــبِ
وســواكَ يُــورَثُ بــالكَــلالَــةِ   مِــنْ بعيــدٍ أو قــريــبِ

❊ ❊ ❊

يــا أيّهــا الحســنُ الــزكــيُّ   تَحِيــةَ النِسْــرَ الخَضِيــبِ
يــا نبعــةَ الخُلُــقِ الــرَفِيــعِ   وصَــاحِــبَ الصَــدرِ الــرَحِيــبِ
غَــالَتْــكَ أيْــدِي النَــائبــاتِ   بِلَــيٍّ مَنطِقِهــا الكَــذُوبِ
وأرَتْــكَ مــا لا يَستَطيــعُ   بيــانَــهُ قَلَــمُ الأديــبِ
المنَطِــقُ المفلــوجُ أنّ:   المصُلحيــنَ إلــىٰ شَعَــوُبِ
والخَــائِنيــنَ يُــدلّلُــونَ   بكــأسِ فَــاتنــةٍ لَعُــوبِ
يَتَقَلّبُــون عَلَــىٰ الأرائِــكِ   والمبَــاهــجِ والطيُــوبِ
يَتَعَطَفُــون مِــن النَعِيــمِ   تَعَطّــفَ الغُصْــنَ الــرَطِيــبِ
ودُعَــاةُ دِيــنِ اللهِ فــي   لجــبٍ مــن الشَبَــحِ الكَئِيــبِ
يَتَضَــوَرُونَ مــن الجِــوَىٰ   وَيُــراوَحُــون مــن اللُغُــوبِ
أبِمثــل سُــؤْدَدِكَ العَظِيــمِ   تَهُــبُّ عــاديــةُ الجُنــوبِ
فتقــدّمَ الأدنــى وَتَسَتعْــدِي   عَلَيــكَ يَــدَ المُــريــبِ

وَتُقِيتُك المِحَنُ الصِعَابُ　　　عَنَاءَ مُخْتَلِفِ الضُرُوبِ
ولقد يَعُزّ عَلَيَّ أَنَّكَ　　　في حَياتِكِ كالغَريبِ
حتى قَضَيْتَ من الأسى　　　مثلَ المسيحِ عَلَىٰ صَلِيبِ
رَمْزَ الفُحُولِةِ وَالرُجُولةِ　　　في الشَبِيبةِ والمشيبِ

* * *

قابَلْتَ بالصبرِ الطغاةَ　　　وأَنْتَ أَثْبَتُ من عَسِيبِ
وأَذَبْتَ نَفْسَكَ بالضَنَا　　　وإلتاع قَلْبُكَ بالوَجِيبِ
وَلأَنْتَ من دُنياك في　　　جيشٍ مِن الألمِ الوَصِيبِ
تَلْوِي عَلَى مَا لا يُطَاقُ　　　وَأَنْتَ فَرّاجُ الكُرُوبِ
مُتَحدياً صَلَفَ الطباعِ　　　وَجَمْرَةَ الحِقْدِ المُرِيبِ
وَالطارئاتُ العاصفاتُ　　　تَهزُّ غُصْنَكَ بالهُبُوبِ
وَسِياسَةُ المُستأجِرِينَ　　　بِكلِّ مُؤتَفِكٍ مشُوبِ
تَسْتَنُّ بالأَطْمَاعِ　　　مُتَجَرَةَ الضمائرِ والقُلُوبِ
وَتَجرُّ للأدنى الحضيضِ　　　قِيادَ شبانٍ وشيبِ
لاحظّ للتقوى ولا　　　أَثَرٌ مِن الوعي الرتيبِ
والناسُ مقبلةٌ على الدنيا بمطرفها القشيبِ
يتصارعُون على الحُطام　　　ويستمتون على الشحوبِ

* * *

يا أَيُّها الحسنُ الزكيّ　　　بُليتَ بالزمنِ العصيبِ
الناسُ بَعْدَكَ ما تَزالُ　　　تعيش في حُكمٍ رَهيبِ
ما بين فكيّ قَسورٍ　　　أقدارُهُمْ، ولَهَاةِ ذِيبِ
أَوْدَى مُعاويةُ بنُ حرب　　　بالحَلِيبِ وبالضَرِيبِ
وأحالها جرداء إلاّ　　　مِن قَتِيلٍ أو حَرِيبِ

وأمـــضّ منهـــا أن بُليـــتَ ... بكـــلِّ مُحتـــرفٍ كَـــذُوبِ

بـــالانتهـــازِييـــنَ . . لا ... يَتَـــوَرَعُـــون عـــن الـــذنـــوبِ

بـــالمُـــؤثِـــرِيـــنَ علـــى الحقيقـــةِ ... كـــلّ دهمـــاءِ قَطُـــوبِ

الشـــاربيـــنَ دمَ الشعـــوبِ ... بضـــرعِ عشـــراءِ حَلُـــوبِ

مـــا كُنْـــتَ تعلـــمُ أمـــرهـــم ... والله عـــلاّمُ الغيـــوبِ

لله درّكَ مِـــــنْ حَلِيـــمِ ... فـــي الخطـــوب وَمِـــنْ غَضُـــوبِ

لله درُّكَ مـــــن حَسِيـــبِ ... فـــي البَـــلاءِ ومـــن نسَيـــبِ

للهِ دُرّكَ مِـــــنْ جـــوادٍ ... فـــي العطـــاءِ وَمِـــنْ وَهُـــوبِ

قـــد غِيـــلَ نَجْمُـــكَ بـــالأُفـــولِ ... وَصُـــكّ بَـــدرُكَ بـــالمَغِيـــبِ

النجف الأشرف

محمد حسين علي الصغير



«نتائج البحث»

في غمار هذه الجولة المضنية في التاريخ السياسي الحافل للإمام الحسن ابن أمير المؤمنين عليه السلام، يمكننا الإشارة بإيجاز إلى أبرز النتائج التي تمخض عنها البحث:

الفصل الأول، وكان بعنوان:

«قيادة الأمة في ضوء المنطق الرسالي» وقد انتظم في ستة بحوث: .

١ ـ القيادة في ظل القرآن: وقد تحدثنا فيه عن القيادة مصطلحاً سياسياً وقرآنياً، وتوصلنا أن القيادة في القرآن هي الجهة التي تتلقى القرار من السماء لتنفذه في الأرض أمراً إلهياً يحتضنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم منفذاً ليس غير، وكانت صيغة الطلب عادةً وسواها، مصدر ذلك الأمر في القرآن.

وتناولنا حجم القيادة الرسالية في تحمل المسؤولية لدى النبي صلى الله عليه وآله وسلم باعتبار دينه عالمياً ودائماً وإنسانياً وتكاملياً، ومهمّة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الأداء والتبليغ، ووقفنا عند التصريح والنص بإمامة علي أمير المؤمنين عليه السلام في استقراء استطرادي شمل مميزات أمير المؤمنين صلى الله عليه وآله وسلم التي انفرد بها وهو يرسي قواعد الإسلام في ثباته مع النبي، ودفاعه المستميت عنه، ونضاله الدائب في مشاهده كلّها،

وعرضنا لجملة من خصائصه التي جعلت القرآن والنبي يتوجانها بكوكبة من الآيات، وطائفة من الأحاديث ضمن مسيرة أمير المؤمنين المباركة، وأكدنا استخلاف الكتاب والعترة. في الأمة تخطيطاً رسالياً نَهَدَ به النبي صلى الله عليه وآله وسلم تبليغاً، وخلصنا إلى القول بمرجعية أهل البيت عليهم السلام ضرورة إلزاميةً افترضها القرآن العظيم والسنة الشريفة، وأن الإمامة نصٌّ لا اختيار فيه، وكما نصّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مراراً على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام فقد نصّ أمير المؤمنين على إمامة ولده الحسن عليه السلام.

٢ ـ إرهاصات قيادية: وهو بحث تناول المؤهلات القيادية التي تمتع بها الإمام الحسن عليه السلام منذ عهد مبكر في مؤشرات بارزة زمن النبي، وعهد الشيخين وعثمان، وزمن أبيه أمير المؤمنين، متوشحاً باحتفاء عظيم في تطاول سؤدده، وتكامل شخصيته، مما حكم بهيبة خاصة فرضت وجودها من منطلق ذاتي، حتى عادت للحسن سيماء الأنبياء وبهاء الملوك على رأي المعتزلة.

ولمسنا بركة الإمام عليه السلام في أول شبابه في الفتوح الإسلامية لا سيما فتح إفريقيا وخراسان وقومس ونهاوند وجرجان، إذ كانت الانتصارات حليفة للجيش الإسلامي، والإمام الحسن أحد أركان حربه، وهو يمثل دوراً قيادياً وعسكرياً بارزاً.

وتحدثنا عن ظاهرتين تعبران عن دلائل منهج الحق في مسيرة الرجل الأولى: في مساندته لأبي ذر، والثانية: في موقفه من الفتنة الكبرى في خلافة عثمان، وعارضنا أستاذنا الدكتور طه حسين بعدِّهِ الحسن عثمانياً، وتتبعنا مصادره ردّاً وتفنييداً، وانتهينا إلى كون الحسن رجل صدق وحق، ورمز بطولة ونضال.

٣ ـ المهمّات الريادية الصعبة: وقد تناولنا فيها مهمات أبي محمد الحسن عليه السلام التي مسك بها زمام المبادرة سفيراً لأبيه، وممثلاً له، وناطقاً باسمه، وداعية لقيادته، وخطيباً استقطب أهل الكوفة للالتحاق بأمير المؤمنين في حرب الجمل، ومحاججاً فذّاً استطاع لجم الخصم بدلائله الصادقة، وأدى الرسالة بأمانة وإخلاص، فقد استنهض الجيوش وسيّر البعوث، مذكراً بموقع أمير المؤمنين القيادي والإيماني والنضالي، فأحسن السفارة وافداً، وحَرَّكَ الأمة داعياً، فاستجابت له الضمائر، وأخبتت نفوس الناس، ورأوا فيه الرائد الذي لا يكذب أهله.

وقد لمس البحث في هذا المنحنى بالإمام عليه السلام مثلاً رائعاً في الاستخلاف، ودبلوماسياً فذاً في السفارة، وسياسياً محنكاً في الكسب الرسالي.

وفي البصرة كشف الإمام عليه السلام زيف التضليل الإعلامي، وفضح الغباء السياسي للمتمردين في مواقف ومشاهد غراء، وقام بدور الإصلاح والمبادرة مع المتخلفين عن نصرة والدِهِ الإمام، وعالج الموقف بحكمة وأناة.

٤ ـ في حاضرة الكوفة الحمراء: ورافق الحسن أباه علياً أمير المؤمنين عليه السلام حينما اتخذ الكوفة عاصمة للخلافة الإسلامية، فخبر الحسن مناخها الاجتماعي المتعدد، وتمرس حياتها العقلية المتباينة، وعرك تكوينها النفسي المضطرب، ورأى الكوفة تحتضن علياً عليه السلام باعتباره بطل التحرير الجغرافي والسكاني لأهلها، فهم يبادلونه حباً بحب وهوى بهوى، فدعاهم إلى جهاد المحلّين، وانتدب الحسن داعياً، فخطب فيها واعياً، وهيأهم للحرب مجتمعين، فخاض بهم الغمار، فاعتبروا علياً عليه السلام بعد هذا رجل الاستقلال السياسي للعراق

كله، فهو يجاهد بهم عدوه، والحسن أحد أركان حربه في هذا الجهاد الذي ردّ إليهم الاعتبار العسكري، وكان قواده طليعة أعيان الكوفة في جيش عدته سبعة وخمسون ألف مقاتل من الكوفيين عدا سواهم، وانتكست الحرب بخديعة المصاحف بعد بلاء مستبين، ورُشح الحكمان الضالاّن، واضطرب الناس بشأنهما، فكشف الحسن عليه السلام الواقع الحق بالحجة والبرهان، وكانت معركة النهروان، والإمام ينظر هذا الكيان المتداعي، فعمد إلى تهيأة المناخ الصالح لإنقاذ العديد من حيرة الضلال بخطبه العصماء، وكانت الحياة العقلية في الكوفة تتسم بالحجاج والمناظرة وبدايات علم الكلام، وطلب الناس الرأي من الحسن عليه السلام في أمهات المسائل فكان كالسيل الهادر إجابة ونقداً وتقويماً، ومؤكداً على الكتاب والعترة باعتبارهما الثقلين المستخلصين، وذهب أمير المؤمنين شهيد عظمته، ونصّ على الحسن بالإمامة، وعهد إليه بالخلافة.

٥ ـ الإمام الحسن يتسلم قيادة الأمة: وباستشهاد أمير المؤمنين عليه السلام كان الحسن رأس قيادة المسلمين، عرّف نفسه بخطبته الأولى، فأوجز ملامح شخصيته النسبية والدينية والنضالية، وبايع له الناس على الكتاب والسنة، فكانت بيعة شرعية خالصة. وتناهت الأخبار إلى معاوية بذلك فطار قلقاً وهلعاً، وعمد إلى شراء الذمم، واستدعاء الانتهازيين، وبث عملاءه يلتقطون له الأخبار في الكوفة، فوبخه الإمام على ذلك، وسيّرهم للبصرة فحذّره عبد الله بن عباس، وأجاب معاوية على الأمرين بكتاب فيه الضلالة والتضليل، فما غَيَّرَ ذلك من موقف الحسن عليه السلام في اعتداده الشامخ، وأرسل لمعاوية كتاباً يطلب فيه البيعة، فردّه معاوية بالمكر والنُكر، وطلب إليه الدخول في طاعته، وله ما شاء من الخراج، ولا يُعصى له أمر، فما استمع الحسن عليه السلام لذلك فهو يعرف غدر

معاوية وسريرته، فلا عهد له ولا دين، وإنما هو الملك والسلطان، وبعث له معاوية محذّراً، فأجابه الحسن عليه السلام بضرورة اتّباعه لأنه مع الحق والحق أحق أن يتبع، فما رضخ معاوية فأخذ بالمناورة رغباً ورهباً، وكان الحسن قد تأهب للحرب فيما أعدّه أمير المؤمنين من جيش للعودة إلى صفّين.

٦ ـ التجربة العسكرية المترددة: عُني الإمام الحسن عليه السلام بدراسة البنية الاجتماعية للشعب العراقي والكوفي بخاصة، ونظر لهذا المزيج العجيب ببصيرة نافذة، فرأى الخور والتردد يمتلكان هذا الجمع المتنافر، ولحظ طبيعته في التقلب، وعجم ضعف القرار الحاسم في موقفه، وأدرك كراهية الجيش للقتال وميله إلى الدعة والسلم، ووراءه معاوية يستخلص ولاء القادة، ويبتاع ضمائر الزعماء، ويمني بمناصب الدولة، مسخراً الرتل الخامس من المنافقين يزودّه بالأنباء، فيتسلمها معاوية ويضيف إليها الإشاعات، مما ولّد حالة من الإرتباك السياسي، وأعلم معاوية عماله بمجريات الأمور، واستبشر أولياؤه بهذا الخلل، واحاط الإمام عليه السلام بهذه الأحداث خبراً، فأخذ يجيل نظره في واقع الجيش المفكّك، فأبصر الفزع الشامل ينتابه من ذكر الحرب، وأدرك ما عليه الناس من الخذلان، ولم يشأ اتخاذ القرار إلا بعد الإعذار، فخطب الناس ممتحناً لهم، فكان الموقف الجبان الذي أنكره عدي بن حاتم الطائي، وخرج إثره معسكراً في النخيلة وحده، والإمام يقطر قلبه دماً عن قعود هذا الجمع، فانتدب ثلاثة من القواد قرعوا الناس تعنيفاً، وشكرهم الإمام على فتوتهم ونصحهم، وانتقى من جيشه اثني عشر ألفاً بقيادة عبيد الله بن العباس، وزودّه بالتعليمات العسكرية النابضة، وبصّره بالشؤون الحربية المحتملة، وجعل قيادته ثلاثية، ولكنه خان الإمام والأمة، والتحق بمعاوية ليلاً، مستجيباً لدراهم معدودة مهما

كثرت، وأصبح الجيش ولا أمير عليه، وصلى بالناس قيس بن سعد، وخطب وشجب، واستنكر، وكتب للإمام بذلك فوجم الحسن عليه السلام له، وتجرأ قوّاد معاوية فاعلنوا كذباً أن الحسن يراسل معاوية على الصلح، وجدّ معاوية في كيل الأماني لعملائه في الكوفة، وأثمر ذلك حتى كتب له بعض الرؤساء بالسمع والمسير إلى الكوفة، وتسليم الحسن إليه، وبلغ ذلك الحسن، فماذا يا ترى الحسن صانعاً؟ سؤال يدور في الأذهان، وقد تكفل الفصل الآتي بالإجابة عليه.

وكان الفصل الأتي بعنوان:

«التخطيط الرسالي الرائد وانتهاكات الحكم الأموي» وقد انتظم في خمسة بحوث رئيسية:

١ ـ الإمام وطبيعة المجتمع الكوفي المتناقض: تجلت للإمام عليه السلام طبيعة المجتمع الكوفي، فالقادة يرتشون، والزعماء في وعود الولاية، والرعاع في فوضى من الولاء، والخوارج يشيعون الفتنة، ومعاوية يجند النفعيين، والصفوة المختارة في حيرة من الأمر، معاوية يريد ملكاً قيصرياً ومعه المال والجاه والإغراء، والخلافة وسيلة للأثرة والتحكم والسلطان، وعلائم الغدر يشارك بها الجيش الأشراف، والعيون تكتب لمعاوية بأنباء الحسن، وعلية القوم يراسلون معاوية، ومعاوية يطلع الحسن على ذلك، واختبر الحسن القوم فوجدهم لا طاعة معهم، ويخطب بهم فيقال له: كفر الرجل ويشدّ على فسطاطه منتهباً، ويجرّ مصلاه من تحته، ويُنزع مطرفه من عاتقه، وتحيط به ربيعة وهمدان، ويطعنه متمرّد بالمغوّل، ويحمل جريحاً إلى المدائن، وهو في مرارة من الألم، وغصة من التهافت المريع، فيخطب الناس بما يختلج في صدره، ويوقفهم على حقيقة كرههم للحرب، فإن شاؤوا السلم فهو،

وإن شاؤوا القتال فعليهم، وعلا صوتهم: البقية.. البقية. فهل يحارب الإمام بهذا الفلل؟ وقد أرادوا قتله، وانتهبوا ثقله، ولو قابل بهم لكان لأول الأسنة غرضاً، ولأُسلم عند الوثبة، ذلك ما دعاه إلى التفكير باطرّاح الحرب حيناً، والإعداد السري لها فيما بعد، واضطر إلى الصلح، فاثر الصلح مع العزة، على الاستسلام مع الذلة.

٢ ـ الإمام يرفض الخذلان والاستسلام: ولم يكن الإمام الحسن عليه السلام متلهفاً على الصلح ولا متعجلاً له، ولم يقعد عن الحرب بل الحرب هي التي قعدت عنه، فليست الحرب مجرد حركة طائشة حققت أهدافها أو لم تحقق، بل هي حرب مقدسة خالصة عن الشوائب، ولما كان الجيش العراقي عاجزاً عن التحرك الثوري الهدف، وكان العدو حذراً متربصاً يحاور ويناور ويساوم، فالحرب إذن تكون فاشلة في كل مراحلها، وعلى الحسن رفض الفشل والخذلان، وكان بين عدة خيارات:

أ ـ الحرب في ظرف سيىء غير مواتٍ، وذلك هو الخسران.

ب ـ تسليم السلطة، والقناعة بالغنيمة، وذلك هو الاِستسلام.

ج ـ أن يخضع للظرف المعاكس موقتاً، فيؤجل الحرب إلى حين.

وكان الخيار الثالث هو قدره المقدّس باعتباره صاحب رسالة لا طالب ملك. وكان هذا التخطيط الهادىء هو الذي عصف أخيراً بالنظام الحاكم.

٣ ـ الصلح الاستراتيجي المشروط: انتهى تخاذل أصحاب الإمام عليه السلام عند زاوية حادّة: الحرب الفاشلة، الاغتيال للإمام، الاِستسلام المشين، اللجوء إلى هدنة عسى أن لا تكون طويلة الأمد، وكان البند الأخير هو قرار الإمام عليه السلام، وكان معاوية يسعى إلى

الصلح وهو يبيّت الغدر، وراسل به الإمام الحسن، ووعده بما شاء، وأن يكتب بشروطه ما شاء، فالأمر له من بعده، وله الأعطيات الضخمة التي تسد احتياج شيعته، واشترط الحسن أمن الجميع من الغوائل فلبّى ذلك معاوية وقال للحسن: أكتب ما شئت، وأملى الحسن ما يريد، وأجاب معاوية ملتزماً، وكانت الشروط تتلخص في حيثيات مهمة أوجزها البحث على شكل فقرات، وهي وافية بما أراد الحسن، إلا أن معاوية غدر بذلك كلّه، فعلا عليه الاستنكار، وأفاق أهل الكوفة من الإغفاء، وجوبه الإمام بكثير من المعارضة يدفع بها الحب والولاء، ويفجّرها المصير المؤلم الذي ينتظره أتباعه المخلصون، وفوتح الإمام الحسين عليه السلام على الثورة، فلم يكن ليعدو رأي أخيه، وبذل الحسن فريداً من الحلم والحكمة إزاء كل كلام قارص شديد، وأفاض في إضاءة سريعة أن قلة الأنصار الحقيقين هي التي دعت إلى الموقف، وغادر إلى المدينة المنوّرة لا ليهدأ ويستريح، بل ليكافح ويناضل في أفق أوسع.

٤ ـ المعارضة ومنهجية الحكم الأموي: سمي عام الصلح بعام الجماعة، وهو عام الفرقة الكبرى بين أبناء الدين الواحد، بما استأثر به معاوية من السلطان والاستبداد واحتكار القرار، فليس له منازع، وما وفى للمسلمين بعدل، ولا وسع الناس بحلمه المزعوم، وإنما أخمد الأصوات بالإرهاب الدموي، فقوبل بموجة عارمة من السخط والبغضاء والنكير، واستحدث لصدّ ذلك منهجين جديدين:

أ ـ إثارة العصبية القبلية في الكوفة والبصرة ونجد واليمن حتى الشام، فأشغل الناس بعضها ببعض بمتاهات لا أول لها ولا آخر، وقد ألقى البحث على ذلك ضوءاً تحليلياً مكثّفاً.

ب ـ تسخير بيت المال لسد احتياجات رجاله وبلاطه في الشام، وإغراء ولاته وعماله في القصبات، وحرمان شيعة أهل البيت والأنصار ومن يمتّ إليهم بصلةٍ ما من كل الحقوق المالية، فكانت الشام في نعيم ورغد، وكانت بلاد الله الواسعة في بؤس وشقاء وحرمان، واحتجن معاوية لنفسه الأموال السائلة والجامدة، واستصفى الذهب والفضة، وجعل بيت المال خزيناً ثراً ينفق منه بسخاء على الكذّابين من الرواة، والفقهاء الرسميين، والقادة العسكريين، وزمر الشعراء والإعلاميين، حتى كان كل أولئك طبقة عليا متمولة سحتاً وغصباً وابتزازاً، والشعب المسلم كله في المحرومين ظلماً وعدواناً.

ما اكتفى معاوية بهذين الملحظين الخطيرين حتى أضاف لذلك برنامجاً جديداً في الظلم والجور والاعتساف.

٥ ـ الجديد في برنامج معاوية السلطوي: وابتدع معاوية برنامجاً خطراً نزع فيه يده عن جوهر الشروط التي التزمها للإمام، ويتمثل هذا البرنامج في:

أ ـ ملاحقة أتباع أهل البيت في عقوبات لم يسبق لها مثيل، شملت حز الرقاب، وقطع الرؤوس، وبتر الأيدي، وخلع الأكتاف، وسمل العيون، وحرق الأبدان، ومصادرة الممتلكات، وإسقاط الأقوال والشهادات، وأشرك معهم الأنصار في الإجراء، والتزم ولاته ذلك، وحمل الناس على سب أمير المؤمنين حتى عاد سنة جارية.

ب ـ سياسة الإرهاب الدموي، بسفك الدماء بغير الحق، جند لها زياد ابن سمية، وسمرة بن جندب، وبسر بن أرطاة، والضحّاك الفهري وأضرابهم من الطواغيت الكبار والصغار، وهم يفتكون بالأبرياء،

ويخرّبون الديار، ويدفنون الناس أحياء في كل من العراق والحجاز واليمن، أضف لذلك الغارات المنظّمة على أطراف الجزيرة وحدود العراق، وانتهاك كل الاعراف والمقدسات، وقتل الصالحين كحجر بن عدي في كوكبة من أصحابه، والمُثله المحرّمة بكل أعيان صحابة أمير المؤمنين أمثال: رُشيد الهجري وأوفى بن حصن وجويرية بن مسهر الصيداوي وعبد الله الحضرمي، وعمرو بن الحمق الخزاعي الذي سجن زوجته، وأهدى إليها رأسه بعد قتله، وكان قد طيف به في البلدان، وأضراب هؤلاء كثير.

٦ ـ الإمام الحسن ينتصر عقائدياً، وذلك بعد أن احتاط لنفسه ولدينه ولأمته، وكان نصره على معاوية لغدره وفجوره وطيشه، فشكل ذلك عنصراً أساسياً في مسيرة الأحداث ضد معاوية خلافاً للوجه الرسمي، إذ قارن الناس بين الرجلين فرأوا الإيمان والوفاء والالتزام لدى الحسن عليه السلام، ورأوا الخيانة ونقض المواثيق لدى معاوية في عقلية يغلب عليها الغباء السياسي، فانطلق العمل السري للإطاحة بهذا النظام، بعد أن أعلن الإمام منهجه الجديد في المقاومة لدى أتباعه وأنصاره، فاخترق الحواجز السلبية، وبلورتها إلى عمل إيجابي انتهى بالتخطيط السياسي الرائد، ناظراً مستقبل الأمة، بعد أن دعا الناس إلى التريث ما دام معاوية حياً، ومعنى هذا تشكيل حزب سري ذي برنامج لا عسر فيه ولا تعقيد يتبنى طاعة الإمام من أبناء أمير المؤمنين كما يرى ذلك الدكتور طه حسين، فكان هذا الحدث الذي خطط له الإمام عليه السلام دليل اليقظة السياسية المبكرة، وربما تعجّل بعض الثائرين أخاه الإمام الحسين عليه السلام لإعلان الكفاح المسلح، فما كان من الحسين إلا أن تابع الحسن بكل خطوة، مما هيأ المناخ النفسي للانتقام من النظام.

وكان الفصل الثالث بعنوان:

«التخطيط الرسالي عند الحسن يمهّد لثورة الحسين» وكان فصلاً فريداً رائداً انتظم في خمسة بحوث:

١ ـ ريادة التخطيط الرسالي من موقع الأحداث، وقد تناول الإمام الحسن عليه السلام فكراً إنسانياً ونموذجاً رسالياً أعدّه أمير المؤمنين ليتولى قيادة الأمة، فكان ذلك من خلال تمرسه الأحداث الجسام في عهد أبيه من الخلافة حينما عاد بالإسلام إلى جوهره، فاضطلع الحسن بريادة مبكّرة للتخطيط الرسالي الفريد حتى تولّى مسؤولية الإمامة، ووصلت أنباء بيعته معاوية، فكتب إليه يمنيه ويعده، فكان الصلح في ضوء مقدمات فرضت عليه هذا الخيار، وقد أحصى البحث جملة هذه المقدمات في سبع، وهي التي اضطرته إلى مهادنة وقتية، وإلا لأصبح أسيراً هو وأهل بيته وأصحابه، وربما منّ عليهم معاوية بالصفح، فيكون ذلك سبة مدى الدهر، ويعدّه معاوية دون شك يوماً بيوم الفتح الذي ذهبوا فيه طلقاء.

٢ ـ القرار السياسي في ضوء المسؤولية، وقد بحث المفردات الآتية:

أ ـ يقظة الإمام لا الانفعال الثوري، وكان الإمام ملتزماً أن يكون قراره السياسي نابعاً من صميم مصلحة الإسلام العليا في ضوء المسؤولية الرسالية، فهو لا يحاول ملكاً دنيوياً، ولم يكن زعيماً قبلياً، وإنما كان رائد دين، وقائد أمة، فلم يتراجع عن تكليفه الشرعي، ولا استجاب للعواطف الآنيّة الملتهبة، وإنما كشف من أمر معاوية ما كان مختبئاً.

ب ـ تهيأة الرأي العام: حيث وقف النظام متبّرجاً لا يستره شيء، فَفُضحت سياسته وتكشفت سوأته، وجبهه الإمام بمخالفاته السلوكية

والدينية والإنسانية، وقام بالدعوة ضده، وبالدعوة الإيجابية لأهل البيت منهجاً وقيادة، وأنكر كل السياسات الهادمة التي تبناها النظام في القتل والتشريد والتمثيل والمصادرة، مما هيأ معه الرأي العام لمسلسل الثغرات الفتّاكه في تركيبة النظام.

ج ـ صحوة الضمير الإنساني في العراق، فقد قلب معاوية للعراقيين ظهر المجن، وشعروا بأدهى مظاهر الذل والخسران، وأقبلت عليهم الفتن كقطع الليل المظلم، فأفاقوا على حكم صارم ونظام مشين، فعلا الاستنكار وكثر الحجاج، فحقق الحسن في صلحه ما لم يحققه الفاتحون في القتال، وصحا الشعب العراقي بضميره ليتعقب النظام بجرأة وإرادة ومرارة، ما كانت تحدث لولا فضح الحسن للنظام ولولا إعانة النظام على نفسه في الإنحراف.

٣ ـ ظواهر الثورة المضادة، وقد اشتمل على المفردات الآتية:

أ ـ وضوح الرؤية السياسية في الصراع بين الذات الفطرية الصادقة، والتركيبة السلوكية المعقّدة، فقد بدت الرؤية واضحة بعد التعتيم، وبدأ الصراع يأخذ طابعه المصيري، حتى أن العراقيين حاولوا الخروج على السلطان بعد أن بلغ السيل الزبى، وكان رائد ذلك سليمان بن صرد الخزاعي وأصحابه، إلا أن الإمام لم يأمن مطلقاً بالخطوات الهائجة العارمة، ولم يستعجل المرحلة الراهنة، بل دعا إلى تنظيم القوى الثورية، وتهيأة العمل السري، وإقامة الكيان الجّاد، وفوق هذا كله التحصن بالتقوى، والاتجاه إلى الله، وطلب العون منه، وألزم أتباعه انتظار التعليمات، واقتنع الأغلب بالرأي الصائب.

ج ـ التنظير الرسالي الموحد: وكان السلم الموقّت قد أوجد تنظيراً رسالياً موحّداً بين سيدي شباب أهل الجنة الحسن

والحسين عليهما السلام في الجزئيات كافة، وفي أصل الفكرة التنظيمية مرحلياً، فكان كل منهما مشتركاً في القرار، فالحسين لم يكن ثائراً أيام الحسن، والحسن لو أدرك ثورة الحسين لم يكن صابراً، فكلاهما صابران وكلاهما ثائران، وهما يعيشان مأساة واحدة، ويخططان لقضية واحدة، وعلى الجيل المسلَم المتحفّز شرح هذه الأبعاد.

٤ ـ الدعوة إلى الإطاحة بالحكم الأموي، وقد اشتمل على الفقرات الآتية:

أ ـ التمهيد إلى الكفاح المسلح، وقد لقي هذا القرار هوى عريضاً في نفوس الناقمين على النظام، ووجد تجاوباً عميقاً لدى المعارضين الفعليين، فكانت التعبئة النفسية أولاً، والإعداد القيادي ثانياً، وقد شجع تجاوز النظام لمقدرات الإسلام، واعتداؤه المتكرر على المقدسات، شجع على إعلان الكفاح المسلّح، إذ لم يبق في قوس التصبر منزع.

ب ـ استلحاق زياد، وكان استلحاق زياد ابن سمية من أبرز الدواعي التي استهدفت النظام للإطاحة به، لأنه خروج صريح عن النص الشرعي، وكانت حفلة الاستلحاق ماجنة هزيلة، استهجنها العالم الإسلامي، وكان نكير المسلمين مستطيراً، وأول المنكرين الحسن والحسين عليهما السلام.

ونتيجة لهذا الاستلحاق فقد سُلط زياد على البصرة فسار فيها سيرة جاهلية استحدث فيها البدع في الأحكام العرفية الجائرة حتى ضجّ الناس.

ج ـ استخلاف يزيد، وهي الكارثة التي دعت المقاومة المسلحة

أن تنشط وتتجه للإمام الحسين بعد استشهاد الحسن عليه السلام، فبعد أن صفّى معاوية خصومه الرئيسيين بالسم والقتل والاغتيال، مهّد بأساليبه الترهيبية والترغيبية لاستخلاف يزيد، وسخّر لعمله ساسة السوء، وجنّد القصّاص ووعّاظ السلاطين، وهيأ عماله وولاته لمباركة هذه الخطوة، ولكنه وجد تردداً في الحواضر الإسلامية، واستنكاراً عاماً من زعماء المسلمين لا سيما الحسين ابن أمير المؤمنين.

د ـ مؤتمر المدينة وقرار مكّة: ولدى فشل معاوية في لقائه الأول بالمدينة عقد فيها مؤتمراً ثانياً مطوقاً بقطعات من الجيش السوري المدرّب، يلتقط أوامر معاوية باللحظ والإشارة، وجمع أعيان المسلمين، وأبرزهم الحسين بن علي عليه السلام ودعا إلى بيعة يزيد، فرفض الحسين عليه السلام ذلك بخطاب جريء رصد كل مساوىء معاوية ويزيد مما أدى إلى أن يدهش معاوية، ويسجل على نفسه فشلاً ثانياً، فذهب إلى مكة، وأرسل على الحسين والعبادلة وطوقهم بأجهزته الخاصة، وأمرهم بقتل من يردّ عليه، فأعلن زوراً أمام الناس أن زعماء المسلمين بايعوا يزيد ورضوا به، وغادر مكة غادراً، هذا المناخ هو الذي هيأ للحسين سبيل الثورة.

٥ ـ الإمام الحسين يهيىء مناخ الثورة، وقد اشتمل على مفردات دقيقة العطاء:

أ ـ مؤثرات سلبت روح النضال، فقد كان العجز القاتل حليفاً للمحاولات النضالية حتى باءت بالفشل، وليس هناك حتى بالتحرك الانتحاري من يستطيع أن يكون مؤثراً في الميدان السياسي، لأن معاوية قد حصّن حكمه بالقوة والمال والوصوليين ذوي المطامع، ولم يكن أجتياج هذا التحصين يسيراً، فأوقف الإمام عليه السلام الصراع ظاهرياً ريثما

يخترق حاجز الخوف والجمود، وإلى حين يستطيع الوثوب بقوة، وشاركه في هذا الحسين فلم يثر بعهد معاوية، فالثورة بعد لم تستكمل أداتها.

وكانت العوامل النفسية في الذعر من البطش الدموي، والمؤثرات الاجتماعية في ضرب القبائل العربية، والأسباب الاقتصادية التي حرمت المستضعفين، والأعطيات الضخمة التي أسكتت الزعماء، والمؤثرات العقائدية بضعف الوازع الديني، كل أولئك عوامل سلبت روح النضال.

ب ـ المناخ الكلامي يحمي النظام الأموي: استغل معاوية عقيدتي الإرجاء والجبر لبرمجة مخططه التضليلي، فالإرجاء أباح للحكم أن يتصرف أنى يشاء، والجبر أظهر السلطان للناس بأنه ظل الله في الأرض نتيجة القدر الإلهي الثابت.

سخر معاوية لذلك الإعلام والقضاه والفقهاء والشعراء، وكان الذي يشغل الإمام الحسين كون الإنسان المسلم أداة طيّعة بيد النظام جرّاء تلك التأثيرات التي حجبت الرؤية الحقيقية عن التفكير في إزالة النظام.

ج ـ الحسين يضع اللمسات الأولى للثورة، وذلك من موقع قيادته للأمة، فقد استطاع بأصالته المتميزة هزّ المجتمع الإسلامي هزّاً عنيفاً أعاد له روح الثقة والتحرك، واستوعب احتواء عناصره الطليعية الثائرة، فكانوا الشرارة الأولى التي تقدح زند الثورة، ومهّد لتحركه هذا بالحج حيث ملتقى القبائل والوفود، وأعلن موقفه السلبي من النظام، وجمع إليه بني هاشم والصحابة والتابعين، فأنكر سياسة النظام، وأوقع فيه، ودعا إلى التجمع والتأهب ريثما يصدر أمره، وعلم معاوية بالحال،

وكان لا يريد أن يتحسس الجمر في الرماد لئلا يتسع الخرق، فأسّر حسواً بارتغاء.

د ـ المجابهة بين الحسين ومعاوية: وكان لا بد أن تحصل المجابهة بعد تحرك الحسين الثوري، ففاتح معاوية الحسين مذكراً بمعاهدة الصلح، فردّ الحسين ردّاً شديداً بكتاب صدع بالحقائق وزخر بالوقائع الصارخة، ذكّره فيه بانتهاك شروط الصلح جملة وتفصيلاً، فوجم لذلك معاوية، وبقي قلقاً من الحسين، وبقي الحسين حذراً منه، حتى إذا هلك معاوية بدأ الحسين بالعمل علناً متجاوزاً السرِّية، مستفيداً العمق السياسي والاستراتيجي مما خطط له الحسن عليه السلام في صلحه الذي كان بداية ممهّدة لثورة الطف.

وثورة الطف ستكون موضوع كتاب خاص بالحسين إن شاء الله.

هذا ما توصل إليه البحث في جملة من نتائجه ضمن منهجه العلمي، عسى أن ينتفع به الناس وأنتفع «يَومَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنون إلاّ مَنْ أتى الله بِقلْبٍ سَليمٍ».

والحمد لله ربّ العالمين

النجف الأشرف

محمد حسين علي الصغير

«المصادر والمراجع»

١ ـ خير ما نبدأ به: **القرآن القريم**.

٢ ـ ابن أبي الحديد، عز الدين، عبد الحميد بن هبة الله المدائني (ت: ٦٥٦هـ)، **شرح نهج البلاغة للإمام علي (ع)**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٩م.

٣ ـ ابن الأثير، أبو السعادات، المبارك بن محمد الجزري (ت: ٦٠٦هـ)، **جامع الأصول إلى أحاديث الرسول**، تصحيح: عبد المجيد سليم ومحمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٤٩م.

٤ ـ ابن الأثير، أبو الفتح، ضياء الدين، نصر بن محمد الجزري (ت: ٦٣٧هـ)، **الكامل في التأريخ**، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٠م.

٥ ـ أحمد أمين (الدكتور) (ت: ١٣٧٣ هـ)، **فجر الإسلام**، مطبعة لجنة التأليف والنشر والترجمة، القاهرة، ١٩٥٥م.

٦ ـ أحمد بن حنبل (ت: ٢٤١هـ)، **المسند**، دار صياد، بيروت، د.ت.

٧ ـ أحمد الشايب (الدكتور) أستاذ في كلية الآداب، جامعة

القاهرة، **تأريخ الشعر السياسي**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٦م.

٨ ـ أحمد زكي صفوت، **جمهرة رسائل العرب**، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٦٢م.

٩ ـ الأربليّ، أبو الحسن، علي بن عيسى بن أبي الفتح (ت: ٦٩٣هـ)، **كشف الغمّة في معرفة الأئمة**، مطبعة النجف، النجف الأشرف، ١٣٨٥ هـ.

١٠ ـ الأصبهاني، أبو الفرج، علي بن الحسين (ت: ٣٥٦هـ)، **الأغاني**، تحقيق مصطفى السقا، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦١م.

١١ ـ الأصبهاني، أبو الفرج، **مقاتل الطالبيين**، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٩٥٦م.

١٢ ـ باقر شريف القرشي (أستاذ في الحوزة العلمية في النجف الأشرف)، **حياة الإمام الحسن بن علي (ع)**، دراسة وتحليل، الطبعة الثالثة، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م.

١٣ ـ بروكلمان، المستشرق الألماني البروفسور كارل بروكلمان (١٨٦٨ ـ ١٩٥٦م)، **تأريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة: نبيه أمين فارس وصغير البعلبكي، دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٦٠م.

١٤ ـ البلاذري، أحمد بن يحيىٰ (ت٢٧٩هـ)، **أنساب الأشراف**، تحقيق: محمد حميد الله، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٥٩م.

١٥ ـ البيهقي، أبو بكر، أحمد بن الحسين بن علي المشافعي البيهقـي (ت: ٤٥٨هـ)، **السنـن الكبـرى**، طبعـة الهنـد، ١٣٤٤ هـ، أوفست دار المعرفة، بيروت، د.ت.

١٦ ـ البيهقي، أبو بكر، **المحاسن والمساوىء**، دار صادر، بيروت، د.ت.

١٧ ـ الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر (ت: ٢٥٥هـ)، **البيان والتبيين**، تحقيق: حسن السندوبي، المطبعة الرحمانية، القاهرة، ١٩٣٢ هـ.

١٨ ـ جرير، جرير بن عطية الخطفي الشاعر (ت: ١١١ هـ)، **ديوان جرير**، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م.

١٩ ـ جعفر مرتضى العاملي، من علماء لبنان، **الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص)**، الطبعة الرابعة، دار الهادي للطباعة + دار السيرة، بيروت، ١٩٩٥م ـ ١٤١٥ هـ.

٢٠ ـ جرجي زيدان، كاتب مصري معروف، **تأريخ التمدن الإسلامي**، مطبعة الهلال، القاهرة، ١٩٣٠م.

٢١ ـ الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله، محمد بن عبد الله (ت: ٤٠٥هـ)، **المستدرك على الصحيحين في الحديث**، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد الدكن، ١٣٤١ هـ.

٢٢ ـ ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، **الإصابة في تمييز الصحابة**، مطبعة مصطفى محمد، القاهرة، ١٩٣٩م.

٢٣ ـ حسن إبراهيم حسن، أستاذ مصري، **تأريخ الإسلام السياسي**

والديني والثقافي والاجتماعي، الطبعة السابعة، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٦٤م.

٢٤ ـ الخطيب البغدادي، أبو بكر، محمد بن علي (ت: ٤٦٣هـ)١ تأريخ بغداد أو مدينة السلام، الطبعة الأولى، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٣١م.

٢٥ ـ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي المغربي (ت: ٨٠٨هـ)، **العبر وديوان المبتدأ والخبر (تأريخ ابن خلدون)**، طبعة بيروت، ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١ م

٢٦ ـ الخوارزمي، أبو المؤيد، الموفق بن أحمد المكي (ت: ٥٦٨هـ)، **مقتل الحسين**، مطبعة الزهراء، النجف الأشرف، ١٣٦٧ هـ ـ ١٩٤٨ م.

٢٧ ـ ابن دريد، أبو بكر، محمد بن الحسن الأزدي القحطاني (ت: ٣٢١هـ)، **المجتبى**، مؤسسة الخانجي بمصر، القاهرة، ١٩٦١م.

٢٨ ـ الدينوري، أحمد بن داود (ت: ٢٩٠هـ)، **الأخبار الطوال**، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٤٩م.

٢٩ ـ راضي آل ياسين، من علماء الكاظمية (ت: ١٣٧٢ هـ)، **صلح الحسن**.

٣٠ ـ الزركشي، بدر الدين، محمد بن عبد الله (ت٧٩٤هـ)، **البرهان في علوم القرآن**. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٧م.

٣١ ـ سبط ابن الجوزي، أبو المظفر، شمس الدين، يوسف بن

فرغلي الحنفي (ت٦٥٤هـ)، **تذكرة الخواص**، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٨٣ هـ.

٣٢ ـ السيوطي، جلال الدين، عبد الرحمٰن بن أبي بكر (ت٩١١هـ)، **الاتقان في علوم القرآن**. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة المشهد الحسيني، القاهرة، ١٩٦٧م.

٣٣ ـ السيوطي، جلال الدين، **تأريخ الخلفاء**، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٧١ هـ.

٣٤ ـ ابن شهرآشوب، أبو جعفر، محمد بن علي السروي (ت٥٨٨هـ)، المناقب، **مناقب آل أبي طالب**، المطبعة العلمية، قم، دار الأضواء، بيروت.

٣٥ ـ ابن الصبّاغ، علي بن محمد بن أحمد المالكي المكي (ت: ٨٥٥هـ)، **الفصول المهمّة في معرفة أصول الأئمة**، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٨١ هـ.

٣٦ ـ الصدوق، أبو جعفر، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه (ت: ٣٨١هـ)، **علل الشرائع**، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٦ م.

٣٧ ـ طه حسين، عميد الأدب العربي الراحل (ت ١٩٧٣م)، **الفتنة الكبرى**، **علي وبنوه**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦م.

٣٨ ـ طه حسين (الدكتور) عميد الأدب العربي الراحل (ت: ١٩٧٣م)، **الفتنة الكبرى**، **عثمان بن عفان**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨م.

٣٩ ـ الطبرسي، أبو علي، الفضل بن الحسن (ت: ٥٤٨هـ)،

مجمع البيان في تفسير القرآن، مطبعة العرفان، صيدا، ١٣٣٣هـ.

٤٠ ـ الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير (ت: ٣١٠هـ)، **تأريخ الأمم والملوك**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٧٠م.

٤١ ـ الطوسي، أبو جعفر، محمد بن الحسن (ت: ٤٦٠هـ)، **التبيان في تفسير القرآن**، تحقيق: أحمد حبيب القصير وأحمد شوقي الأمين، المطبعة العلمية، النجف الأشرف، ١٩٥٧م.

٤٢ ـ عباس محمد رضا القمي (ت: ١٣٥٩هـ)، **سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار**، المطبعة العلمية، النجف الأشرف، ١٩٥٥م.

٤٣ ـ ابن عبد البّر، يوسف بن عبد البّر المالكي الأندلسي (ت٤٦٣هـ)، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٣٢٨هـ.

٤٤ ـ عبد الحسين أحمد الأميني النجفي (ت١٣٩٠هـ)، **الغدير في الكتاب والسنة والآدب**، الطبعة الثالثة، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م.

٤٥ ـ عبد الحسين شرف الدين، كبير علماء لبنان في عصره (ت: ١٩٥٣م)، **ثورة الحسين صدى لصلح الحسن (بحث)**، مجلة الغري، النجف الأشرف، العدد الخاص بالحسين، السنة التاسعة، عدد ١١.

٤٦ ـ عبد الله شبر الحسيني (ت: ١٢٤٢هـ)، **جلاء العيون**، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٧٣هـ.

٤٧ ـ ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي (ت: ٣٢٨هـ)، **العقد الفريد**، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري.

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م.

٤٨ ـ ابن عساكر، أبو القاسم، علي بن الحسين الدمشقي (ت: ٥٧٣هـ)، **تأريخ دمشق**، تحقيق: محمد باقر المحمودي، بيروت، دار التعارف، ١٩٧٠م.

٤٩ ـ علي الحسيني السيستاني (المرجع الديني الأعلىٰ)، **منهاج الصالحين**، الطبعة الأولىٰ، دار المؤرخ البغربي، بيروت، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

٥٠ ـ ابن عنبة، جمال الدين، أحمد بن علي الداودي (ت٩٢٨هـ)، **عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب**، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٨٠هـ.

٥١ ـ فلهاوزن، البروفسور يوليوس فلهاوزن (١٨٤٤م ـ ١٩١٨م)، **الدولة العربية وسقوطها**، دار صادر، بيروت، د.ت.

٥٢ ـ ابن قتيبة، أبو محمد، عبد الله بن مسلم الدينوري (ت: ٢٧٦هـ)، **الإمامة والسياسة**، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٣٢٥هـ.

٥٣ ـ ابن كثير، عماد الدين، إسماعيل بن عمر القرشي (٧٧٤هـ)، **البداية والنهاية**، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٦٦م.

٥٤ ـ الكشي، أبو عمرو، محمد بن عمر بن عبد العزيز، **رجال الكشي**، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ١٩٧٠م.

٥٥ ـ المتقّي الهندي، عليّ المتقي بن حسام الدين الهندي (ت: ٩٧٥هـ)، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ.

٥٦ ـ المجلسي، محمد باقر (ت: ١١١١هـ)، **بحار الأنوار**، المطبعة الإسلامية، طهران، ١٣٨٩هـ.

٥٧ ـ المجلسي، محمد باقر (ت: ١١١١هـ)، **مرآة العقول في شرح أخبار الرسول**، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٩٤هـ.

٥٨ ـ محسن الأمين الحسيني العاملي الشقرائي (ت١٣٧١هـ)، **أعيان الشيعة**، مطبعة الانصاف، بيروت، ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م.

٥٩ ـ محمد الحسين آل كاشف الغطاء، كبير علماء الشرق العربي الإسلامي (ت١٣٧٣هـ)، **تقديم كتاب الإمام الحسن للقرشي**، مطبعة الآداب، النجف الأشرف ١٣٧٣ هـ.

٦٠ ـ محمد حسين علي الصغير (المؤلف)، **الإمام زين العابدين، القائد، الداعية، الإنسان**. مؤسسة الغدير للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٩ ـ ١٤١٩هـ.

٦١ ـ محمد حسين علي الصغير، **الإمام علي سيرته وقيادته في** ضوء المنهج التحليلي، مخطوط.

٦٢ ـ محمد حسين علي الصغير، **تأريخ القرآن**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٣م.

٦٣ ـ محمد حسين علي الصغير، **الصورة الأدبية في الشعر الأموي**، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٧٥م.

٦٤ ـ محمد بن عقيل، **النصائح الكافية**، مطبعة النجاح، بغداد، ١٩٦٧م.

٦٥ ـ المسعودي، أبو الحسن، علي بن الحسين (ت: ٣٤٦هـ)،

مروج الذهب ومعارف الجوهر، تحقيق: يوسف أسعد داغر، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٥م.

٦٦ ـ المفيد، أبو عبد الله، محمد بن محمد بن النعمان البغدادي (ت: ٤١٣هـ).

٦٧ ـ محمد مهدي شمس الدين (رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في لبنان)، **ثورة الحسين: ظروفها الاجتماعية وأثارها الإنسانية**، بيروت. د.ت.

٦٨ ـ نصر بن مزاحم المنقري (ت٢١٢هـ)، **وقعة الجمل**، الطبعة الأولى، القاهرة، د.ت.

٦٩ ـ نصر بن مزاحم المنقري، **وقعة صفين**، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة المدني، القاهرة، ١٣٨٢هـ.

٧٠ ـ هاشم معروف الحسين، من علماء لبنان، **سيرة الأئمة الاثني عشر**، دار القلم، بيروت، ١٩٧٨م.

٧١ ـ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر (ت: ٢٩٢هـ)، **تأريخ اليعقوبي**، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٩٦٤م.

٧٢ ـ يوسف خليف (الدكتور) رئيس قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، **حياة الشعر في الكوفة**، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٨م.



فهرس الآيات القرآنية

سورة المائدة

سورة الأنفال

سورة يونس

سورة الأنبياء

سورة سبأ

سورة الزخرف

سورة النجم

سورة المجادلة

سورة الحاقة

سورة المزمل

سورة المدثر

سورة الإنسان

سورة الأعلى

سورة العلق

سورة العاديات

سورة الكافرون

سورة الإخلاص

سورة الفلق

سورة الناس

فهرس الأعلام

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاء

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء



فهرس الموضوعات

